عـلي عـبـد شـنـاوة

الشبيبي في شبابه السياسي

محمّد رضا الشبيبي
ودوره الفكري
والسّياسي
حتى العام 1932



الشبيبي في شبابه السياسي

محمد رضا الشبيبي ودوره الفكري والسياسي

حتى العام 1932

علي عبد شناوة



دار كوفان للنشر

1995

محمد رضا الشبيبي ودوره الفكري والسياسي
حتى العام 1932

رسالة ماجستير في التاريخ الحديث

كلية الآداب ـ جامعة بغداد

بإشراف الدكتور كمال مظهر أحمد

رقم الإيداع في المكتبة الوطنية العراقية/4880 لسنة 1993

ISBN: 1-898124-09 - 4

دار كوفان للنشر ـ 1995

المحتويات

المقدمة

قيّم العديد من المفكرين والمجمعيين والمؤرخين والساسة والأدباء البارزين في مناسبات شتى الشيخ محمد رضا الشبيبي تقييماً رفيعاً. إنه بحق واحد من ألمع وجوه نهضتنا الحديثة، ممن تركوا بصمات واضحة على حركة المجتمع في ميداني الفكر والسياسة.

في البداية كنا نود أن نتحدث عن الدور الفكري والسياسي للشيخ الشبيبي إلى اليوم الذي ودع فيه الوطن مخلصاً، لكن تبين أن حجم ذلك الدور أكبر بكثير من أن تستوعبه رسالة ماجستير واحدة، لذا اضطررنا اضطراراً إلى تقليص الإطار الزمني لدراستنا بحيث يقتصر فقط على المراحل المبكرة من ذلك التاريخ الحافل، وآثرنا أن يكون العام 1932 نهاية للموضوع على أساس كونه نقطة تحوّل ما في تاريخ العراق المعاصر. يكفي هذا لوحده حجة لتوضيح أهمية موضوع الرسالة على ما نعتقد. يقول حسن الأمين في بحثه «الشيخ محمد رضا الشبيبي علامة العراق وشاعر العرب»:

> «كانت في الشيخ محمد رضا الشبيبي عدة صفات تحله كل واحدة منها في النفوس أكرم محل، فكيف بها مجتمعة، فلا بد أن يعنى به الدارسون، وأن تكون له في تاريخنا الأدبي والعلمي والكفاحي مكانة رفيعة»[1].

يقول أحد المتخصصين في شعر محمد رضا الشبيبي: «والناظر إلى مشاركاته المتعددة... يرى أنه جدير بالكثير من الدراسات والعناية، لكن الرجل لم ينل هذا النصيب، فإن ما كتب عنه أقل من القليل الذي يستحقه»[2]. إننا متفقون مع هذا الرأي، ونضيف عليه فنقول إنه ينطبق بصورة خاصة على الجانب التاريخي من الموضوع، وعلى دور الشبيبي الفكري والسياسي تحديداً، ذلك لأنّ الجانب الأدبي من حياته تمت دراسته جامعياً بصورة أفضل[3]. يجعل هذا من موضوع رسالتنا موضوعاً مطلوباً من جميع الأوجه العلمية والعملية باعتباره حافلاً بالمفاخر، دعك عن دروسه وتجاربه المفيدة.

تتألف الرسالة من هذه المقدمة، وثلاثة فصول تتبعها خلاصة باستنتاجاتنا في خاتمة موجزة لها. يحمل الفصل الأول عنوان «نشأة محمد رضا الشبيبي وبداية بروزه قبل الحرب العالمية الأولى» وفيه تناولنا بالبحث نسب الشبيبي وولادته ونشأته وتعلمه وملامحه وصفاته الشخصية، وكل ما يتعلق بحياته المبكرة في حدود المطلوب ليكون مدخلاً لدراسة نشاطه الفكري والسياسي في أولى مراحله. ومن أهم ما ورد في هذا الفصل موقف الشبيبي من ثورة الاتحاديين، وقد بدأه تأييداً لينتهي إلى خيبة أمل كبيرة دفعته إلى الخندق المعادي، شأنه في ذلك شأن جميع المفكرين الوطنيين المنتمين إلى الشعوب غير التركية داخل الأمبراطورية العثمانية.

كان أمراً طبيعياً أن تهز الحرب العالمية الأولى، وإفرازاتها ونتائجها على شتى الصعد مفكراً من نمط الشبيبي بقوة، فتفرض عليه الأحداث مواقف نوعية جديدة تبدأ بالجهاد ضد الغازي الجديد، وتمر بمرحلة قلق فكري تمخض عن تمادي الاتحاديين في تعنتهم وتعصبهم الذي ولّد رد فعل قومياً مشروعاً واسعاً تزامن مع وعود الحلفاء وعهودهم، ومع تزايد الاحتكاك بأسباب الحضارة الغربية التي بدأت تغزو العراق على نطاق أوسع بحكم الاحتلال البريطاني،

وتنتهي إلى خيبة جديدة نجمت عن حقيقة سياسة المحتل الجديد. جاءت معالجة هذه القضايا وتطوراتها، مع موقف محمد رضا الشبيبي منها ضمن الفصل الثاني من الرسالة الذي يحمل عنوان «النشاط الفكري والسياسي لمحمد رضا الشبيبي من بداية الحرب العالمية الأولى حتى نهاية ثورة العشرين».

دشن الشعب العراقي بدماء أبنائه في ثورة العشرين بداية الطريق إلى تحقيق الاستقلال السياسي الذي بدأ بتأسيس الحكومة المؤقتة، ومن ثم النظام الملكي الذي يؤلف، على الرغم من جميع نواقصه في ظل الانتداب البريطاني، خطوة تاريخية مهمة أفضت إلى ظهور مؤسسات تشريعية وتنفيذية عراقية صرفة لأول مرة في تاريخ العراق الحديث والمعاصر. فقدر للشبيبي أن يكون له موقعه في تلك المؤسسات وزيراً ومن ثم نائباً بحكم وزنه الاجتماعي ودوره الفكري والسياسي، فضلاً عن علاقاته الشخصية مع أقطاب النظام الجديد، وعلى رأسهم شخص الملك فيصل الأول. حاول الفصل الثالث والأخير من الرسالة إلقاء الضوء على هذه القضايا، وما يتعلق بها، فكان عنوانه «النشاط الفكري والسياسي لمحمد رضا الشبيبي في سنوات الانتداب البريطاني».

فرضت معالجة هذه المواضيع الرجوع إلى كل ما هو متوفر من مصادر، ومراجع خاصة وعامة تتعلق بشخص محمد رضا الشبيبي أولاً، وبتاريخ العراق في المرحلة التي تصدينا لمعالجتها ثانياً. يؤلف ما وصلنا من مؤلفات الشبيبي المخطوطة والمطبوعة مصدراً أساسياً للعديد من المباحث التي وردت بين دفتي الرسالة.

يجب علينا أن نؤكد هنا بصورة خاصة على «ديوان الشبيبي» المطبوع سنة أربعين وتسعمائة وألف، إذ لا يمكن الفصل بين الشبيبي الشاعر والشبيبي المفكر في نطاقه الأوسع الذي يشمل الفلسفة والتاريخ والاجتماع والسياسة،

فمن خلال شعره يمكن الوقوف على آرائه في شتى الميادين بصورة أفضل. يكمن في هذا تفسير رجوعنا المستمر إلى أشعاره دون التأكيد على شاعريته إلّا في حدود، ذلك لأنّ الأخيرة لا تدخل ضمن نطاق بحثنا أولاً، ولأنّ عدداً كبيراً من الباحثين، والدارسين تطرقوا إليها بإسهاب ثانياً. لكن نتاجه الشعري يبقى يؤلف مصدراً أصيلاً لا غنى عنه لأي باحث يروم الغوص في عمق أفكار الرجل وأهدافه. إلّا أننا تجنبنا نقل نصوص من شعره قدر الإمكان، واقتصرنا على قراءتها في حدود الإدراك، وذلك بحكم كون دراستنا دراسة تاريخية لا أدبية. ثم إن الشبيبي في أشعاره مفكر كبير قبل أن يكون أي شيء آخر، فهو المؤمن أصلاً، ومنذ بداية إبداعه بأنه، «لولا أن بعض الشعر سحر، لكان الشعر من سقط المتاع» كما قال نصّاً على صفحات مجلة «العرفان» الصيداوية في العام 1911.

خرجنا عن هذه القاعدة في حالات نادرة وجدنا أنفسنا فيها مضطرين إلى نقل مقاطع مطولة نسبياً من بعض قصائده لأنها تعبر عمّا نريد بوضوح حسب اعتقادنا، كما فعلنا ذلك بالنسبة لقصيدته «الوداع» التي قالها في أواخر العام 1914، فقد نقلنا إلى المبحث الثاني من الفصل الثاني من رسالتنا أكثر من نصفها شعراً هو في مضمونه أقرب إلى التاريخ منه إلى الأدب.

يدخل العديد من المؤلفات التي استخدمناها لإعداد هذه الرسالة ضمن المصادر الأصيلة لدراسة الشيخ الشبيبي[4]، ذلك لأنّ أصحابها رافقوه، وتابعوه، وشاوروه، وزاملوه، وحضروا مجلسه دون انقطاع، وقرأوا له، أو تتلمذوا على يده. يقول عبد الرزاق الهلالي بهذا الخصوص:

لي بالعلامة المغفور له الشيخ محمد رضا الشبيبي صلة قوية، إذ كنت أزوره، رحمه الله، في أيام الجمع في داره. . . ، كما كنت أراه، وأتحدث معه عندما كان يأتي إلى البلاط[5]. . . والذي أذكره عنه، رحمه الله، هو أني لما

فرغت من كتابة مسودات كتابي عن أخيه الشاعر المرحوم محمد باقر الشبيبي رغبت في أن يطّلع عليها، ويكتب لي مقدمة قبل طبعها[6]. وهكذا قدمت له هذه المسودات وقلت له: أرجو تصحيح ما وقعت فيها من أخطاء، وكتابة مقدمة تكون إضافة جديدة إلى الكتاب. فرحب، رحمه الله، بالفكرة، ووعد بأن أراجعه بعد أسبوع، وهكذا لما جئته بعد ذلك الأسبوع وجدته قد أنجز وعده...»[7].

ينطبق القول نفسه على معظم السادة الذين أجرينا مقابلات شخصية معهم، فإنهم ممن عاصروا الشبيبي، وحضروا مجلسه، بل أن جلّهم تقريباً يعدون أنفسهم تلامذة له، منهم الأستاذ الجامعي الدكتور حسين علي محفوظ المتتبع المتحمس لكل ما يتعلق بالشبيبي، ومنهم أيضاً الصحفي، ورئيس تحرير مجلة «الإذاعة والتلفزيون» سابقاً ياسين الحسيني الذي كان عمه أحمد شوقي الحسيني من زملاء الشبيبي منذ أن التقيا في دمشق في عهد حكومة الأمير فيصل، ومنهم ابن شقيقته وصهره أحمد المظفر. استقى الباحث من هؤلاء الأفاضل معلومات فريدة، وقد أوضحوا له الكثير مما استعصي عليه.

بالنسبة لموضوعنا تدخل مؤلفات المؤرخ عبد الرزاق الحسني ضمن أهم المصادر الأصيلة التي اعتمدناها لا فقط لأنها تلقي الضوء على شتى جوانب تاريخ العراق الحديث والمعاصر، بل أيضاً لأنها تفعل الشيء نفسه بالنسبة لأدوار خطيرة أداها الشبيبي تحديداً في ذلك التاريخ، وقد استقى الحسني معلوماته عنها من الشبيبي شخصياً.

ساعدتنا «محاضر مجلس النواب» العراقي في دورتيه الأولى والثانية كثيراً للوقوف على مواقف محمد رضا الشبيبي في سنوات الانتداب. إن مداخلات الشبيبي المستمرة أثناء جلسات المجلس في تلك المرحلة، وما بعدها تؤلف مصدراً مهماً لدراسة معظم الجوانب المتعلقة بتاريخ المعارضة

البرلمانية العراقية في العهد الملكي عموماً، وبدور الشبيبي في تلك المعارضة خصوصاً[8].

تحتل الصحافة العراقية والعربية موقعاً متميزاً بين المصادر التي رفدت البحث بمعلومات مهمة، بعضها فريدة في بابها سواء بالنسبة لدراسة الشبيبي شخصياً، أو بالنسبة للوقائع التي شهدتها المرحلة الداخلة ضمن الإطار الزمني لموضوع رسالتنا ويشمل ذلك أيضاً المقابلات الصحفية التي أجريت مع الشبيبي في أوقات مختلفة. من أجل ذلك كله كان لا بد لنا من الرجوع إلى مجلات «لغة العرب» و«المقتطف» و«العرفان» و«دار السلام» و«الزهور» وغيرها، وإلى الجرائد العراقية «العرب» و«العالم العربي» و«نداء الشعب» و«العراق» و«صدى العهد» وغيرها.

أمدتنا البحوث والدراسات الخاصة بالشبيبي، وبتاريخ العراق في مرحلة ما قبل الحرب العالمية الأولى، كما في سنواتها وما بعدها، بمعلومات قيمة تبدو واضحة في ثنايا مباحث الرسالة. لكننا نرى لزاماً علينا في هذا المقام أن نشير بصورة خاصة إلى رسالة عبد الرزاق أحمد النصيري عن «دور المجددين في الحركة الفكرية والسياسية في العراق 1918-1932»[9]، فإن معلوماتها النادرة، واستنتاجاتها العلمية الرصينة ساعدتنا كثيراً على فهم جوانب محددة من طبيعة المرحلة التي برز أثناءها الشبيبي الذي له موقعه الملموس بين المثقفين المجددين ممن يتحدث عنهم المؤلف.

حقّاً كان التعامل مع فكر مفكر، ولغة لغوي، وأدب أديب فريد المستوى من أصعب الصعوبات التي جابهها الباحث. فالشبيبي، والقول هنا للعقاد في أرفع مجلس علمي عربي، «شاعر ناقد، باحث لغوي، ناشر للعلم واللغة»[10]. فرض علينا هذا قبل كل شيء أن نبذل كل ما في وسعنا، وهو شيء متواضع، من أجل أن لا نتخلف كثيراً عن لغة الشبيبي، وعن لغة من كتبوا عن الشبيبي،

فإذا كنا قد أدركنا قدراً من المنى في هذا نكون به أحد المدينين إلى تلك اللغة الجميلة، الرصينة التي شدنا إليها شدّاً، وفرضت نفسها علينا فرضاً على الرغم من إرادتنا، فكاد الأمر أن يأخذ منّا زمناً إضافياً نتجاوز به السقف الذي تفرضه التعليمات تعسفاً.

ثم كيف السبيل إلى عدم الوقوع تحت تأثير أحد عمالقة الفكر إذا كان صادقاً في كل شيء، وجاداً في كل شيء، وفوق هذا وذاك وطنياً أصيلاً في كل شيء. حقّاً أن الأمر كان بدوره صعوبة أخرى جابهها الباحث، فكان عليه أن لا يبدو متحيزاً حتى مع الحق إن وجد إلى ذلك سبيلاً. إننا حاولنا، وبذلنا الكثير من الجهد حتى لا نتجاوز إلى أقصى حدّ ممكن أحد الثوابت الملازمة للدراسات الخاصة بالشخصيات . فإن الباحث عن الشخصية يبدو غالباً، بل وحتى دائماً ميالاً إليها، وهو أمر بديهي إلى حد كبير ذلك لأنّ الاختيار لا يقع عادة إلّا على العظماء والأفذاذ. ينطبق هذا على الشبيبي أكثر من غيره، فهو من النوع الذي لا يتكرر كثيراً في الحياة، إنه كان «عدة رجال في رجل واحد»[11]، كان من النوع الحريص إلى حد الغلو على أن لا يحيد عن الصواب، لذا لم يتعرض للنقد إلّا من الذين كان يغيظهم إخلاصه للوطن، وحتى هؤلاء قلّما تعرضوا له، وإن تعرضوا له فإنهم لم يجرحوه.

حاولنا، مع ذلك، أن نجد في فكر الشبيبي ومواقفه ما نراه جديراً بالنقد حسب قناعتنا، وبقدر إدراكنا للأمور، وإذا جاء ذلك محدوداً فأنه ليس بسبب قصور، أو تحيز منّا، بل لأنّ الرجل كان يحسب لكل شيء حسابه، ما كان يؤذي أحداً، وما كان يرد حتى على منتقديه، ولأنه بقي مخلصاً أيما إخلاص لدينه وشعبه وأمته، ولمسقط رأسه وبلده ووطنه حتى الرمق الأخير. ومن أجل أن لا أبدو متحيزاً للرجل، أو متأثراً بفضائله، وجليل أعماله، وسموّ أفكاره حاولت قدر المستطاع، أن أترك الكلام لغيري في تقييم ما أتى من أعمال، وما

نشر من أفكار، وفضلت في ذلك العرب على العراقيين، والأخيرين على النجفيين كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً.

لاحظنا في حالات قليلة قدراً من المبالغة في تصوير بعض من أدوار الشبيبي، منها، على سبيل المثال، دوره في ثورة العشرين، فحسب يوسف أسعد داغر أنه «لعب في (توجيهها) دوراً بارزاً، إذ كان من أعظم أركانها، وموقدي نارها بالخطب اللاهبة التي كان يثير بها حماسة الثوار والشعب المهتاج»(12) في حين أنه ترك العراق قبل ذلك التاريخ بحوالي سنة من الزمن.

لم نر داعياً إلى تكريس فصل خاص لدراسة أوضاع العراق العامة في الحقبة التي تزامنت مع تاريخ النشاط الفكري والسياسي لمحمد رضا الشبيبي، لأنّ ذلك الموضوع واضح بما فيه الكفاية بالنسبة لأي متتبع يصبو إلى قراءة مثل دراستنا هذه، لذا آثرنا التطرق إلى جوانب منها ضمن مباحث الرسالة حيثما رأينا ذلك ضرورياً حسب اجتهادنا. وفي الفصل الأول من الرسالة اضطررنا إلى أن نرجع إلى عدد قليل من نتاجات الشبيبي الفكرية التي تتجاوز الإطار الزمني للفصل، ذلك لأنّ ما ورد فيها يمثل توضيحاً، وتوثيقاً لما قاله الشبيبي قبلاً، مما اقتضى التنويه، مع العلم أن ما قمنا به متوافق مع الضوابط المنهجية المتبعة على ما نعتقد، دعك عن أن الضرورات تبيح المحظورات.

اقتضت الضرورة أحياناً أن تكون الهوامش التوضيحية لبعض مما ورد في مباحث الرسالة كثيرة، لكننا حاولنا، مع ذلك، التركيز قدر الإمكان من أجل أن لا يفقد التوضيح مغزاه المطلوب.

فرضت طبيعة قسم من مصادرنا أن يقتصر ذكر التواريخ فيها على التقويم الهجري، فحولناها إلى ما يوافقها في التقويم الميلادي بالاعتماد على أكثر من جدول موثوق، ولا سيما الجدول الذي وضعه الأكاديمي جوزيف أوربيلي.

هذا جلّ ما أردنا قوله في مقدمة رسالتنا التي نرنو إلى أن تحتل حيزاً ما في مكتبتنا التاريخية، وأن تحظى برضى أساتذتي الأجلاء.

هوامش

(1) «العربي»، العدد 159، فبراير 1972، ص 74.

(2) قصي سالم علوان، الشبيبي شاعراً، من منشورات وزارة الإعلام، بغداد، 1975، ص 12.

(3) نوقشت في مصر وحدها رسالتان للماجستير عن الإبداع الشعري لمحمد رضا الشبيبي، قدم الأولى منهما علي جابر المنصوري إلى كلية الآداب بجامعة عين شمس سنة 1968، وطبعت في كتاب مستقل سنة 1982 (أنظر قائمة المصادر)، وقدم الثانية منهما قصي سالم علوان إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة 1971، وطبعت أيضاً في كتاب مستقل سنة 1975 (أنظر الهامش رقم 2).

(4) نؤكد بصورة خاصة على مؤلفات جعفر الخليلي وجعفر آل محبوبة وعبد الرزاق الهلالي.

(5) كان المؤلف من كبار موظفي البلاط الملكي.

(6) آثرنا نقل كل ما ذكره المؤلف حول الموضوع لا من أجل إلقاء الضوء على طبيعة علاقة الشبيبي بأمثاله وحسب، بل أيضاً لأنّ من شأن كلامه أن يلقي ضوءاً إضافياً على شخصية المترجم له الشيخ محمد رضا الشبيبي.

(7) عبد الرزاق الهلالي، قال لي هؤلاء، بغداد، 1990، ص 190.

(8) للأسف الشديد تعذر علينا فقط الحصول على مذكرات العام 1925 على الرغم من كل ما بذلناه من جهد.

(9) رسالة دكتوراه غير منشورة قدمت إلى كلية الآداب بجامعة بغداد سنة 1990.

(10) الدكتور محمد مهدي علام، المجمعيون في خمسين عاماً، من منشورات مجمع اللغة

العربية، القاهرة، 1986، ص 276.

(11) القول للباحث قصي سالم علوان.

(12) يوسف أسعد داغر، مصادر الدراسة الأدبية. الفكر العربي الحديث في سير أعلامه، من منشورات الجامعة اللبنانية ـ قسم الدراسات الأدبية، بيروت، 1972، ص 608.

الفصل الأول

نشأة محمد رضا الشبيبي
وبداية بروزه قبل الحرب العالمية الأولى

الفصل الأول

نشأة محمد رضا الشبيبي
وبداية بروزه قبل الحرب العالمية الأولى

نسب الشبيبي وولادته:

تؤكد المصادر أن الموطن الأصلي لأسرة محمد رضا[1] بن جواد بن محمد بن شبيب بن إبراهيم بن صقر الجزائري[2] بن عبد العزيز بن دليهم[3] هو منطقة الجبايش في محافظة ذي قار، حيث سكن جده الأعلى شبيب الذي اقترن به اسم الأسرة[4].

تنتمي أسرة محمد رضا الشبيبي إلى فخذ المواجد من عشيرة بني أسد المعروفة[5] التي تقطن الجبايش والمناطق المجاورة لها، وهذا ما يؤكد أرومتها العربية الأصيلة، فإنّ «مجموعات الناس» الموجودة هناك منذ «أدوار ما قبل التاريخ استطاعت أن تحافظ على عنصريتها، وأصلها القديم الذي نجده اليوم»، إذ «بقي الاختلاط محصوراً فيها، ومقتصراً عليها فقط»[6]. وكان محمد رضا الشبيبي نفسه يعتز كثيراً بأرومته العربية الأصيلة، فقد كتب عن والده بخط يده أنّه «من أسرة عربية عريقة في العلم والأدب، شهيرة في النبل والكرم»[7].

لم يكن شبيب، جد محمد رضا، شخصاً مغموراً، فهو سليل (دليهم) أحد رؤساء عشيرة بني أسد، كان معروفاً في الوسط الاجتماعي في الجبايش بحكم مقدرته، ولما كان يملكه من أراض واسعة. وهذا الأمر يوضح من جانب آخر، انتماء الشبيبي الأسري إلى الوسط الإقطاعي. لكن شبيباً كان في الوقت نفسه فقيهاً على طريقة المحدثين التي كانت ذائعة لدى فقهاء العراق في عصره[8].

كان لشبيب ولدان هما محمد وموسى، توفي الأخير دون خلف[9]، أما محمد بن شبيب فقد تزوج ابنة الشيخ صادق أطيمش[10]، وهو أحد رجال الأدب والفكر في مدينة الشطرة.

غادر محمد بن شبيب إلى النجف في بدايات النصف الثاني من القرن التاسع عشر بسبب نزاع مع عشائر المنطقة أدى إلى فقدان أراضيه الزراعية، ولرغبته الجامحة لدراسة العلوم الدينية، وكانت النجف في نظره المكان الأنسب لكونها مركزاً دينياً وفكرياً، توفرت فيه عناصر الجذب لاستقطاب طلاب العلوم الدينية، بالإضافة إلى طموحه في مركز اجتماعي عال.

قضى محمد بن شبيب ردحاً من الزمن في مدينة النجف يرتشف من علومها الدينية، لكن لم يطل المقام به هناك، فقد غادرها متنقلاً بين بغداد والشطرة، متخذاً من الأخيرة مقراً له، إلاّ أنه غادرها بعد ذلك بسبب تعسف بعض شيوخ المنتفك ليستقر في بغداد إلى أن توفي فيها عام 1862م بعد أيام قلائل من ولادة ابنه جواد[11]، مما اضطر قرينته إلى العودة إلى مدينة والدها، بعد أن مكثت قليلاً من الزمن في النجف التي كان يسكن فيها البعض من آل الشبيبي[12].

نشأ جواد، والد محمد رضا الشبيبي، في كنف جده لأمه صادق

أطيمش، وتعلم القراءة والكتابة ومبادىء الأدب، وعلى ما يبدو أن الوسط الثقافي الذي ترعرع فيه دفعه، بعد وفاة جده، للسفر إلى بغداد، ومن ثم إلى النجف ليستقر فيها، ويستقي من علومها.

بدأ يتألق نجم محمد جواد الشبيبي (1862-1944) في النجف بسرعة وذلك بسبب علمه وفضله وخلقه، فقد قال عنه العارفون أنه كان «من أشياخ الكتاب، وفحول الشعراء، تعبر عن مقامه المحمود في صناعة الكتابة مقاماته التي يعنو لها البديع...، وتدلّ على مرتبته العالية من القريض أشعاره التي لا يقاويها القدامى حر لفظ، ولا يضارعها المحدثون دقيق معنى»[13]، فلا غرو أن أصبح لـ «شاعر العراق في عصره»[14] محمد جواد الشبيبي مجلس يلتقي فيه رجال الأدب والفكر في المدينة[15]، باعتباره أحد «كبار شعراء العربية، وفحولها» حسب وصف من كانوا يحضرون ذلك المجلس العامر[16]. وللشبيبي الوالد ديوان ومجموعة رسائل سماها «اللؤلؤ المنثور على صدور الدهور».

في هذا الجو الفكري ولد محمد رضا، الابن البكر لجواد الشبيبي، يوم الاثنين المصادف للسادس من أيار 1889م[17] في حي البراق، أحد أحياء النجف القديمة. كانت والدة الشبيبي بهية بنت مهدي تنتمي إلى أسرة طريحي النجفية المعروفة، وقد أنجبت، فضلاً عن محمد رضا، محمد باقر (1890-1960) أحد أبرز مثقفي العراق المعروفين، ومن كبار مفكري ثورة العشرين[18]، ومحمد جعفر، ومحمد علي، والشاعر محمد حسين، ومحمد رشاد.

نشأة محمد رضا الشبيبي وتعلمه:

نشأ محمد رضا في حي البراق بالنجف، ليقضي فيها شطراً من حياته مع صبيتها، ويدخل في أحد كتاتيب النجف لتعلم القراءة والكتابة، وحفظ الآيات

القرآنية على يد سيدة فاضلة تعرف باسم مريم البراقية[19]، وكان ذلك عند السنة الخامسة من عمره، ليتعلم بعدها الخط على يد الشيخ هادي مصير، أحد خطاطي النجف المعروفين يومذاك[20]، لكن خطه لا يرقى إلى الخطوط الجميلة، كما يبدو ذلك واضحاً جلياً من مدوناته التي تسنى لنا الاطلاع عليها. وقرأ العربية ومبادءها، نحواً وصرفاً، على الشيخ محمد حسن المظفر.

كانت بداية تعلم الشبيبي هذه لا تختلف عن بداية أقرانه، فالكتاتيب هي التي كانت تقوم بدور مؤسسات التعليم، ولم تكن المدارس منتشرة آنذاك، وحتى عندما فتحت المدارس الحديثة، فقد كانت حكراً لأبناء الموظفين والقلة القليلة من أبناء المتصلين بهم من وجهاء ذلك الزمان[21].

ومن هذا نرى أن محمد رضا الشبيبي قد أكمل مراحل تعلمه الأولى على طريقة الدراسة التقليدية في النجف، فضلاً عن الرعاية التي أولاها إياها والده[22].

ومن المناسب هنا أن نشير إلى أن المدرسة النجفية التقليدية كانت مجانية في جميع مراحلها الثلاث[23]، والتي كانت تشمل المقدمات، والسطوح، والخارج أي البحث الخارجي، وقد كان لكل مرحلة من مراحل الدراسة تلك أطرها ومنهاجها[24].

إلاّ أن الشبيبي لم يستمر في إكمال مراحل الدراسة النجفية التقليدية الثلاث، بل انقطع عنها بعد أن اجتاز المرحلة الأولى منها، أي المقدمات، ليتجه اتجاهاً خاصاً به بعد أن أحس بالنفور منها بسبب ما لمسه من جمود وتقيد فيها، فاتجه إلى الدراسة الحرة، والتفكير المجرد.

هنا تحول الوالد محمد جواد الشبيبي إلى المعلم الأول لابنه البكر، وإلى موجهه، فقد أرشد «ولده، وفلذة كبده محمد رضا في وصية خاصة

خطها بقلمه، وكتبها بأسلوبه في اليوم الحادي والعشرين من ربيع الثاني سنة 1322 للهجرة، الموافق لليوم السادس من تموز سنة 1904 للميلاد، وكان الولد يبلغ من العمر خمس عشرة سنة، إلى «جد للعلم، ففيه يظهر جدك»، وإلى العمل «بما تعلم فذلك رشدك، واتق الله تقاته، وثق منه بالتسديد، وتوكل عليه، ولا تعتمد على مخلوق في شيء، فأمر الخلق إليه، واستعمل حسن السلوك، وتودد إلى القوم الذين يتودد إليهم أبوك، ولا تهتم بأمر المعاش، فإن أباك قد فارق أباه وهو ابن سبعة أيام، فدبره الله على ما رأيت. . . وأمك أمك، أحسن خدمتها، فقد ربتك صغيراً، وخدمتك كبيراً، ولئن مكنك الله، وإني لأرجو ذلك، فلا تجعل على يدها يداً، ولا تقدم عليها أحداً. أخوتك أخوتك، أحسن تربيتهم، وأدبهم، وكما يرضي الله وأهل الورع»[25].

أما في ميدان العلم فإنه يصف والده هكذا: «تعلق بالعلوم العربية، وأخذ منها بالنصيب الأوفى، واشتغل بتحصيل علمي الفقه وأصوله مدة غير وجيزة، حضر فيها على أكابر العلماء، ومادة تبحره في الآداب العربية غزيرة، لا يخوضها قلم الواصف»[26].

تحول مجلس والده، في الوقت نفسه، إلى مدرسة أساسية للسلوك والعلم في حياة محمد رضا الشبيبي الذي يقول عنه نفسه أيضاً:

«ولم يزل ناديه من أبهج نوادي الأدب في النجف، تلقى فيه المحاضرات النافعة، وتجرى فيه المناظرات المفيدة، والمذاكرات العلمية، فهو مجتمع الطبقة العليا من المهرة الذين يفعل أحاديثهم في الألباب ما لا تفعل السحرة»[27].

وقد هيأ له المجلس مجال التعرف على عشرات الأدباء والعلماء والامتزاج بهم، والتأثر بآرائهم[28].

مهد له مجلس والده الطريق لحضور مجالس أخرى كانت تعقد في النجف، وتلقى فيها محاضرات في شتى ميادين علوم المعرفة الإسلامية، مثل مجلس الملا كاظم الخراساني المعروف بتبحره في علم الأصول، ومجلس شيخ الشريعة المعروف بتبحره في الفقه[29].

من هنا كانت خصوصية تعلم الشبيبي بتركه الدراسة التقليدية، واتجاهه الحرّ للدراسة والبحث والتفكير، والاستمالة إلى دراسة الفلسفة والفنون والآداب، ودراسة البلاغة، فانطلقت نفسه وفكره في دراسة العلوم المتنوعة، وكان ذلك «زاده الذي لا يشغله عنه شاغل حتى الطعام»[30].

تتلمذ محمد رضا الشبيبي خلال السنوات العشر الأخيرة من عمر الدولة العثمانية على يد أفضل العلماء في ذلك العصر، فدرس البلاغة على محمد حسين القزويني[31]، وأخذ المنطق عن مهدي الطباطبائي[32]، وتأدب على عدد من شيوخ الأدباء، منهم والده جواد الشبيبي وحسين مهدي القزويني[33]، وهادي آل كاشف الغطاء[34] ومحمد سعيد الحبوبي[35]، وتفقه عند جماعة من الفقهاء والمجتهدين منهم عبد الرسول الجواهري[36] وعبد الكريم الجعفري[37] وعبد الحسين الواسطي[38].

وحضر الشبيبي أيضاً دروس محمد كاظم الهروي[39]، كما حضر دروس شيخ الشريعة[40] الذي كان هو الآخر من أساطين علماء النجف وأساتذتها. وقد بقي مخلصاً لأساتذته، وفيّاً لذكراهم، فقد عد الحبوبي «بطل النهضة العراقية» و«شهيد الدفاع» لفتواه ضد البريطانيين أيام الشعيبة، فرثاه حين وافاه الأجل في العام 1915. كما يعد «رثاء أستاذ» من قديم شعره الذي قاله في العام 1907[41].

في الزمن الذي تعلم فيه الشبيبي وترعرع لم تجر العادة على الاهتمام

بتعلم اللغات الأخرى، فالحاجة إليها كانت محدودة، لا تتعدى الاهتمام بالتركية باعتبارها لغة السلطة الحاكمة التي لم تستطع، مع ذلك، خرق أسوار النجف. لكن ظروفاً خاصة اقتضت بعض الاهتمام بالفارسية، إلاّ أنها كانت بدورها محدودة التداول بين مثقفي النجف. من هنا فإن اهتمام محمد رضا الشبيبي باللغات الأخرى لم يكن كبيراً باعتباره ابن زمانه ومكانه، وهو يقول عن نفسه بهذا الخصوص:

«كان لي ولع بتعلم اللغات أيام شبابي»، ولكن «لم أجد لغة غير العربية إجادة تامة... إني أعرف طرفاً من الفارسية، ومن اللغات الشرقية الأخرى، ومن بعض اللغات الغربية»[42].

أدت صفات محمد رضا الشبيبي، واستعداده النفسي والعقلي، ومميزاته الأخرى، دوراً أساسياً في توجهاته العلمية والفكرية، فلا شك في أنّ «فطرته كانت أكبر معلم، ومخرج له»[43].

ملامح محمد رضا الشبيبي وصفاته الشخصية:

كان محمد رضا الشبيبي معتدل البنية، حنطي اللون، مربوعاً أقرب إلى الطول، طبيعي النظر، خفيف اللحية[44]. كان جاد المظهر، متواضعاً في الهيئة، يلبس قباء بلون داكن، وعباءة سوداء، وعلى رأسه عمامة بيضاء، ليبدو متأنقاً حسب مفاهيم المجتمع يومذاك، عرفه الجميع منذ شبابه وقوراً، متزناً، بسيطاً إلى الحد الذي تجاوز فيه ثوابت أبناء طبقته. يقول شاهد عيان عن ذلك بأسلوب رومانسي جميل ما نصه:

«ومشت بي الأيام، أو مشيت بها، فصرت أعرف الشبيبي من بعيد، وأراه عند العصر في بعض الأحيان متأبطاً طيتين، أو ثلاث طيات صغيرة من وسط الجانب الأيمن من عباءته حتى يرتفع ذيل العباءة من هذا الجانب شبراً أو

شبرين عن الأرض، وماسكاً حاشية الجانب الأيسر من العباءة عند الصدر بين طرفي سبابته وأبهامه، وهي إحدى طرق المشية عند طلاب العلم، بل لعلها طريقة المتأنقين في مشيتهم المتزنة الوقرة، وإذا ما بدا شيء من الاختلاف بين مشية الشبيبي ومشية طبقته فإن خطوات الشبيبي كانت أسرع قليلاً من خطوات طبقته «التي كانت تستطيع أن تتنازل عن كل شيء من امتيازاتها إلاّ التأني في المشية»[45].

عاش الشبيبي في صباه وشبابه حياة طالب علم، منفتح الذهن، صافي الفكر، منشغلاً بالقراءة والبحث، يقتطع من ذلك أوقاتاً للتفسح أحياناً[46]. وكان يمتلك عاطفة جياشة لم يفصح عنها علناً إلاّ عند وفاة زوجته التي هزته هزاً، وكشفت عن كوامنه التي طالما لم يفصح عنها في أصعب لحظات حياته[47]. كان سريع البديهة، حلو النكتة، لا يجامل أحداً حتى إذا كان ذلك شخصاً مثل نوري السعيد الذي كان يكن للشبيبي احتراماً خاصاً جديراً به، وكان لا يسكت عن كائن من كان إذا أحس أن في كلامه ما يمس العراق من طرف خفي حتى وإن كان ذلك شخصاً مثل طه حسين الذي كان الشبيبي يجله لعلمه وأدبه[48].

تميز الشبيبي بطبع هادىء، فكان يكتم غيظه في فورة غضبه حتى في عز أيام شبابه، فلم يرد على أحد من منتقديه في ميدان العلم شفاهاً أو كتابة. يصف لنا الخليلي موقفه الأخير هذا ثناء ونقداً بدقة، وموضوعية، إذ يقول:

«علمت من متابعتي لسيرة الشبيبي أن الشبيبي قلّما كان يعنى بالوخز واللمز والانتقاد الذي يوجه له، حتى قد يتعذر على القراء أن يجدوا ردّاً للشبيبي على مؤاخذيه، أو لامزيه في كتاب أو مقال أو رسالة، وهي حسنة تسجل له بالإعجاب، لكن هذا الإعراض منه قد تجاوز الحد، حتى شمل السكوت عن النقد العلمي، فصير من الشبيبي معرضاً عن الرد والإجابة حتى

في معرض النقد العلمي أو الأدبي، وهو غير مرض طبعاً»[49].

مهما يكن من أمر فإن موقف الشبيبي هذا لم يأت بمعزل عن تواضعه وإنكاره لذاته عن قناعة تشوبها مسحة فلسفية نابعة عن تحديد صحيح لدور الفرد في المجتمع، وفي صنع الحدث، فهو القائل:

«إنني لا أدعي بأنني صاحب رسالة، بل أنا أبذل جهدي في سبيل المصلحة العامة، والعمل في سبيل المصلحة العامة ليس لـه نهـايـة، فهـو عمـل بـاق مـا بقيـت الحيـاة، ومـا تـرددت الأنفاس»[50].

لم يعرف الشبيبي للتعصب معنى أيّاً كان شكله قومياً أم دينياً أم طائفياً، الأمر الذي نلاحظه أثناء الحديث عن جوانب مختلفة من نشاطه وفكره، ولكن يجب أن نقرّ بدءاً أن عدم تعصبه هو الذي جعل الجميع يتحدثون إليه «بملء الحرية في تبادل الرأي بعيداً عن الغرور والكبرياء»[51]. وهو إلى ذلك كان وفياً للجميع، للقريب والصديق والجار والبعيد. وقد تجلى وفاؤه في حبه للنجف الذي كاد أن يكون عشقاً لا يجاريه إلّا عشق الوطن. وكان ذلك ضرباً من ضروب الوفاء الجليل لمسقط رأسه «حيث عاش أيام صباه وشبابه، وحيث تعلم وعلم، وحيث ساهم في الحياة السياسية والأدبية مساهمة فعالة»[52]. ومن هنا فإنه أولى تاريخ النجف السياسي والأدبي اهتماماً خاصاً، مما نلاحظه أثناء الحديث عن الشبيبي مؤرخاً.

لم يتناقض إباؤه مع تواضعه ووفائه، إذ لم يكن فيه أي قدر من التعالي، فقد جاء إباء الشبيبي من كونه مجبولاً على معاداة الذلّ والهوان والاستبداد، فهو لم يكن من النوع الذي يرضيه «مشرع ضيم مورداً»، أو يقبل بـ «مرتع ذلّ مرعى» كما ورد في خماسية له تحمل عنوان «نفثة مصدور» نشرها في عز أيام شبابه[53].

كان الشبيبي جدياً، لكنه كان أيضاً حلو النكتة، سريع البديهة، يعرف جيداً أن لكل مقام مقالاً، مما جعله إنساناً ممتعاً باعتراف المس بيل[54] التي ما كانت توده حالها في ذلك حال بقية المسؤولين البريطانيين في العراق. أما تقواه، وأدبه الجم، وسلوكه القويم فلم يكن لأي منها حد أو حدود، ولم ينجذب لمغريات الحياة، ولا لمجالس السمر التي كان يرتادها العديد من معاصريه في مجال الشعر[55]. لم يكن ضعيفاً أمام المال، بل أنه جرب الحاجة إليه مراراً في حياته[56]، وربما كان ذلك أحد أسباب عدم ميله للرحلات. ومن المنطلق نفسه لم يتخذ من الأدب والعلم حرفة تدرّ المال عليه، وقد أخذ ذلك من علماء النجف، وأولهم والده الذي قال الشبيبي عنه «يأنف على الأدب لو اتخذه الأديب حرفة»[57]. وفي هذا نرى تفسيراً واضحاً لانقطاعه الدوري عن قرض الشعر، وتحرير النثر.

لا يمكن فصل موقف الشبيبي من المال عن قناعاته الدينية، فلا يقبل أن يقدم المال على الدين وفضائل الأخلاق، وأنّ رزق الإنسان مقرر في السماء، فهو القائل:

المال مأرب كل في صناعته	بئس الصناعة لا كانت ولا الأرب
يستعجلون من الأغراض أعجلها	أين التطوع في الأعمال والقرب
يقيض الله رزقاً غير محتسب	إذا مضى عمل في الله محتسب[58]

إن رجلاً طينته من هذا النوع كان طبيعياً أن يكون جريئاً، بل «أن جرأته كانت نادرة»[59]، فقد كان «لا ينافق ولا يمالق ولا يداهي ولا يداجي، ولا يقول إلاّ ما يصح في معتقده، ولا يعتقد إلاّ ما يصح في رأيه» حسب تعبير أحمد حسن الزيات[60]. وهذا ما جعله رئاسياً في ميدان المعارضة[61]. وقد تعزز ذلك بثباته على الرأي، وبعدم تردده، فلم يعرف لليأس والقنوط معنى. يقول نفسه عن ذلك:

«إننا لم نقنط، ولم نيأس، ولا يأس من روح الله، فإن الله جل شأنه بالمرصاد للقوم الظالمين»[62].

كان أمراً طبيعياً أن يكون الكتاب ولع محمد رضا الشبيبي الأول. فمنذ أيام شبابه أولى جمع الكتب، والمخطوطات النادرة اهتماماً خاصاً، وكان من بين الذين يحضرون باستمرار مزاد الكتب الذي كان يجري كل خميس وجمعة في قيصرية علي آغا بالنجف، فتجمعت لديه طائفة كبيرة من رسائل وكتب مخطوطة نفيسة[63]، حتى قيل عنه: «وإلى مخطوطاته هذه يعود شيء غير قليل من سر عظمته»[64].

دفع حب الكتاب الشيخ الشبيبي لأن يخصّ «لغة العرب»[65] مقالة بعنوان «صرعى الكتب والمكتبات في العراق»[66] تحدث فيها عن تاريخ ظهور الكتب، وعن اهتمام المثقفين بها «حسب اختلاف العصور»، فقد «فتنوا بها وسحرتهم، فبالغوا في جمعها، وفي الضنة بها، وقد تأنقوا في نسخها، ووراقتها وتجليدها وتنضيدها وتحليتها بما لا مزيد فوقه». تضمنت المقالة أيضاً معلومات مفيدة عن عدد ممن سماهم «صرعى الكتب» في العراق، وعن مكتباتهم، ونوادر مخطوطاتهم، مما يجعلها، في الواقع، ضمن نتاجه في ميدان التاريخ الذي نعود إلى تفصيلاته فيما بعد.

لم يفارق حب الكتاب الشبيبي حتى الرمق الأخير، فقد تجمع لديه ما يربو على سبعة آلاف مجلد بين مخطوط ومطبوع[67]. ولئن تركز اهتمام الشبيبي على كتب التاريخ والأدب واللغة بالأساس، إلاّ أن مكتبته ضمت مؤلفات في شتى حقول المعرفة الإنسانية من مترجمة وغير مترجمة. وقد تحولت مكتبته إلى صومعة حقيقية بالنسبة له، كان يؤمها في أوقات «جد مضبوطة» حسب تعبيره[68].

كانت صفات الشيخ الشبيبي أصيلة، غير مصطنعة، كامنة في أعماقه، بقيت تلازمه حتى اليوم الأخير من حياته. فقبيل وفاته كتب عنه مير بصرى[69] يقول:

«أضفى الزمن على الشاب الأنيس وقار المشيب، وجلال الشيخوخة دون أن يفقده جمال نفسه، وصفاء سريرته. وقد زادته الأيام حنكة وحكمة دون أن تزيده ثروة ومالاً. وهو اليوم، كما كان دائماً يؤثر البساطة في مأكله وملبسه ومعيشته، لطيف المعشر، خفيض الصوت، بارّ بأصحابه وأصفيائه، متواضع للصغير والكبير. تجلس إليه، وتصغي إلى أحاديثه العذبة، فتسمع في صوته نبرة من الألم الحبيس، فتذكر الشاعر الوجداني[70]، والشاعر العاطفي، والشاعر الاجتماعي، والشاعر العربي، والشاعر المتألم، والشاعر الوطني، والشاعر المصلح، والشاعر الحكيم»[71].

تحولت صفات الشبيبي، وخصائصه الشخصية، وعلمه الغزير، وثقافته الرفيعة إلى سلاح ماض بيده في مقارعة الظلم والاستبداد، وإلى وسيلة ثابتة ساعدته على نشر أفكاره وآرائه منذ أن نزل إلى ميدان النشاط الفكري، والنضال السياسي.

المرحلة المبكرة من النشاط الفكري والسياسي لمحمد رضا الشبيبي:

برز محمد رضا الشبيبي في البداية في ميدان الأدب، حاله في ذلك حال معظم أقرانه، ولا سيما أبناء النجف. وفي ميدان الأدب طرق الشبيبي باب الشعر قبل غيره. هنا أيضاً كان والده معلمه الأول، وقد قال فيه «وأما شعره فالسهل الممتنع، والجزل الرصين... فوفى عصايب الشعر على الطرازين، وأحرز السبق في الأسلوبين»[72].

أما أحب الشعراء القدماء إلى نفسه فكانوا، حسب تصنيفه تسلسلاً، البحتري وأبو تمام والشريف الرضي وابن هاني وأبو العلاء المعري، ومن المحدثين حافظ إبراهيم وإسماعيل صبري[73].

صقل محيط النجف ومجالسها الحس الشعري لدى محمد رضا الشبيبي، وعمقه، فقد تلقى الشعر والأدب في مدينة «كلها تكاد تكون مدرسة واسعة لصقل المواهب الأدبية»، فإنّ «لمجالسها وأنديتها الخاصة والعامة، ولمنابرها الحسينية التي يرقاها الخطباء باسم تأبين أبي عبد الله الحسين (ع) شأناً كبيراً في صقل الأذهان، وشحذها، وإخراج موهبة الموهوبين إلى حيز الوجود» كما أن كلمة «الشاعر في هذه المدينة كلمة كبيرة تقاس أهميتها بمقياس شعره، وشاعريته»[74].

ونحن نضيف على ذلك ونقول إن النجف يومذاك تذكر في العديد من جوانبها بفلورنسا الإيطالية، رائدة النهضة الأوربية، ولكن في إطار إسلامي. ففي فلورنسا والمدن القريبة منها ما كاد شاعر يرتقي منصة ليلقي منها شيئاً مما تفتقت به قريحته حتى يهم أصحاب الحوانيت إلى غلق محلاتهم ليتمتعوا بما يلقيه ذلك الشاعر من نتاجه[75]، فإنها كانت بحق مدينة الشعر والأدب والفكر والعلم.

بدأ محمد رضا الشبيبي قرض الشعر في حدود الخامسة عشرة من عمره، أي «في منتصف العقد الثاني، والذي لم يكد يقبل على العقد الثالث حتى كان من المجلّين، ومن فحول الشعراء الذين يصلح أن يكون شعرهم منبعاً من منابع الأمثال في كل ميدان من ميادين الأدب والاجتماع والسياسة»[76].

تؤكد بعض المصادر أن أول نشر للشبيبي كان في حدود العام 1910-1911 [77]، فيما يؤشر هو شخصياً العام 1908 بداية لذلك. ففي جوابه

على سؤال وجهته إليه مجلة «الفكر» قال بهذا الصدد ما نصه:

«نشرت جلّ تلك القصائد في الصحف والمجلات السيارة منذ نحو نصف قرن، إذ نشرنا أول تلك المقاطيع الشعرية السياسية في بعض المجلات العربية الصادرة سنة 1908، وهي المقطوعة التي عنوانها الحرية»[78].

وهنا يجب أن نشير إلى أنه حتى الذين يعتقدون بأنّ أول نشر للشبيبي قد تأخر حوالي ثلاث سنوات عمّا يؤكده هو شخصياً، يقرون عكس ذلك ضمناً. فإن عبد الرزاق الهلالي الذي كان من رواد مجلس الشبيبي، ومن المتابعين لنشاطه الأدبي، ونضاله السياسي، يقول بصدد قصيدته «الحرية» هذه ما نصّه:

«ومن يقرأ شعر هذا الشاب في تلك الفترة يجد فيه سجلاً تاريخياً صادقاً لتلك الأحداث والأحوال الاجتماعية، فحين سمح بالانقلاب العثماني (ويقصد به ثورة العام 1908) قال: ...» وهنا يورد الأبيات الثلاثة الأولى من القصيدة[79].

إن ما يهمنا من شعر محمد رضا الشبيبي هو محتواه السياسي والاجتماعي الذي يؤلف جوهر فكره المؤثر في جمهرة المثقفين، والمحرك لهم. فإن شعره حافل بالسياسة وتراجم الرجال وقضايا المجتمع، مما يجعله في أحيان غير قليلة أقرب إلى التاريخ والسياسة من الأدب إذا جاز لنا أن نبدي الرأي في هذا بتواضع. وقد ساعدته ملكته على ذلك كثيراً. سجل لنا أحد المتابعين لشعره وحياته الملاحظة الدقيقة الآتية عنه: «والشبيبي من أكثر من عرفت من يربط الحوادث بأصحابها، فإذا رأى شخصاً، ولو بعد فراق طويل، استعرض فيه كل ما مر من حوادث ذات ارتباط بالتاريخ أو الأدب أو السياسة، ولذلك حوى صدره العدد الكبير من الحوادث والوقائع، فحفل ديوانه بما يطيب من القصص، وبما يبهر من الأدب، وما يفيد من وقائع السياسة، ويكشف عن المعميات مما يكتشف تراجم الرجال»[80].

يحاول محمد رضا الشبيبي في جل كتاباته، ولا سيما في قصائده، أن ينبه ذهن القارىء إلى قضايا الشعب والوطن، وإلى ما هو جديد في ميادين الحياة والعلم. وبما أن بدايات نشره قد تزامنت مع انتصار ثورة الاتحاديين وإفرازاتها السياسية والاجتماعية والفكرية لذا كان أمراً طبيعياً أن يتصدى لموضوعات الحرية والدستور والاستبداد أكثر من غيرها. فإذا أخذنا بما ذكره هو شخصياً فإن قصيدته «الحرية» تكون أول ما نشر من إبداعه، وهو يستهلها بالقول:

طرقت وضاحية النهار دجنة والحر عبد والدنى أملاك
فأضاء عنها البرق ينبض عرقه سلكا عليه حلى السنا أسلاك
ضحك المحيط لوقعها وتبسمت عن ثغر أنجمها لها الأفلاك[81]

كان الشبيبي، إذن، مع ثورة العام 1908 بحماس مثل أي مثقف ثوري عربي آخر، ولا سيما أن ذهنه، مثل أذهان أقرانه النجفيين، كان مهيئاً بصورة خاصة لتقبل إشعاعاتها، وتلقي شعاراتها بحكم احتكاكه قبل ذلك بأفكار الدستور عن طريق العالم النجفي محمد كاظم الهروي صاحب فكرة الحرية، والمطالبة بالقانون في إدارة الدولة، والذي كان الشبيبي يحضر مجالسه في مقتبل عمره كما أسلفنا. كما أنه تأثر في الوقت نفسه، مثل معظم المثقفين الثوريين العرب في تلك المرحلة، بأفكار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي ورشيد رضا[82] التحررية الإصلاحية التي كانت تصل العراق بصورة خاصة عن طريق مجلتي «العروة الوثقى» و«المنار» وغيرهما، وقد تحول ذلك إلى عامل إضافي مهم ساعد الشبيبي وأقرانه على خلق «مدرسة جديدة في التفكير»[83].

أضف إلى ذلك أن الشبيبي احتك قبل العام 1908 بتجربة الثورة الدستورية في إيران التي انفجرت في كانون الأول سنة 1905، ونجحت في

فرض الدستور والبرلمان على الشاه بعد مرور أقل من عام على انفجارها[84]، وكان لأفكار الأفغاني دورها الواضح في تهيئة الطريق لها.

كانت النجف على اتصال مباشر بأحداث الثورة الدستورية بحكم مجموعة من العوامل، أهمها سيل الزوار الإيرانيين إلى العتبات المقدسة، فقد تحول هؤلاء إلى أشبه ما يكونوا بمراسلين ينقلون أنباء الثورة، وأخبار تطوراتها ووقائعها. كما أن قادة الثورة أنفسهم طلبوا من علماء الدين العراقيين تأييدهم في نضالهم ضد الشاه، ومن أجل الدستور[85]. وكانت الصحافة العراقية تنشر أخبار تلك الثورة، وأهم ما رافقها من تطورات، فضلاً عن فتاوى المجتهدين والعلماء العراقيين في تأييدها[86].

أما بالنسبة للشبيبي تحديداً فقد قيل عنه «أنه شق طريقه السياسي والاجتماعي بتأثير من أفكار أبرز قادة تلك الثورة»[87]. يقول عبد الرزاق الهلالي عن الموضوع نفسه:

«ثم تمر الأيام، وإذا هذا الفتى (الشيخ) الهادىء الطبع، المرهف الحس، يجد نفسه وسط جو اجتماعي وسياسي وديني مضطرب، انقسم فيه ذوو الرأي إلى فئتين متنافرتين، لا سيما بعد نجاح الحركة المشروطية[88] في إيران، فئة تؤيدها وفئة تناهضها، وكان الشبيبي[89] وأترابه من الشبان في جماعة المؤيدين، المتطلعين إلى الحرية والعدالة والمساواة»[90].

تركت ثورة الاتحاديين عام 1908 تأثيراً أكبر على محمد رضا الشبيبي بحكم واقع تبعية العراق للدولة العثمانية، فضلاً عن عوامل أخرى أقل أهمية، منها تأثر المثقفين العراقيين، ومنهم الشبيبي بالطبع، بأفكار الإصلاحيين من أنصار الدستور في الدولة العثمانية، ولا سيما مدحت باشا الذي كان العراقيون من أشد المعجبين به بحكم احتكاكهم المباشر بإصلاحاته في بلادهم.

كان الشبيبي معجباً بشخصية مدحت باشا، وبأفكاره وإصلاحاته، وقد كتب عنه أنه «أدخل بعض مفردات الحياة المدنية إلى العراق، وترك فيها أثراً محسوساً من آثار التجدد»[91].

لكن أهم ما دفع محمد رضا الشبيبي إلى الترحيب بثورة الاتحاديين هو ما علقه من آمال كبيرة عليها بأنها تؤدي إلى انعتاق العراق من مشكلاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تفاقمت بصورة خاصة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1909). فكان من شأن شعارات الاتحاديين «الحرية والعدالة والمساواة» التي طالما أكدوا عليها قبل الثورة في صحافتهم ومؤتمراتهم، ونشراتهم السرية التي كانت تصل العراق أيضاً[92]، أن تهز وطنياً مثل الشبيبي من الأعماق. كما أن عدداً من إجراءات الاتحاديين المبكرة حظيت بإعجاب الشبيبي، ولا سيما ما كان يتعلق منها بإحياء الدستور ومجلس المبعوثان وإجراء انتخابات جديدة شملت الولايات العراقية، وإطلاق حرية الصحافة وغيرها.

أعجب الشبيبي أيضاً بإصلاحات الاتحاديين في ميدان التعليم، والتي امتد بعض آثارها إلى العراق أيضاً. فقد جرى بعد العام 1908 تأسيس مدارس حديثة في كل من بغداد والكاظمية والحلة والديوانية وعنة والسماوة وخانقين وكربلاء ومسقط رأسه النجف وغيرها، بحيث بلغ عدد المدارس في ولاية بغداد وحدها مائة وثلاث مدارس في العام 1913، عشرون منها أهلية، واثنتان منها للتعليم العالي هما مدرسة الحقوق والمدرسة السلطانية[93]. وعين لأول مرة مديراً لمعارف بغداد بعد أن ظل منصبه شاغراً منذ العام 1898 [94].

لم يأت تأثر الشبيبي بثورة الاتحاديين من منطلق عاطفي صرف، وما كان بالإمكان أن يكون الأمر هكذا بالنسبة لمن كانوا بمستوى إدراكه الثقافي، ووعيه، وإطلاعه. كان الشبيبي يقارن بين تلك الثورة والثورة الفرنسية

الكبرى، وقد كتب فيما بعد عن الأولى يقول أنها كانت:

«ثورة عارمة على سائر نظم البلاد، غايتها قلب النظم الاجتماعية قبل النظم السياسية، وقد حذا فريق من قادتها حذو أمثالهم في فرنسا، وقلدوهم تقليداً تاماً، ورموا إلى ما رموا إليه من أهداف في الثورة الفرنسية الكبرى»[95].

هكذا عد محمد رضا الشبيبي انتصار ثورة الاتحاديين، وإحياء الدستور بمثابة «بداية عصر جديد»، فيقول بهذا الخصوص ما نصه: «كنت مغتبطاً بالحرية الغالية التي كنا نجاهد من أجلها مع جمهرة من شباب الدولة العثمانية للتخلص من فساد العهد الحميدي»[96]. يكمن في هذا بالتحديد، مع تطلعه المتفائل إلى مستقبل العراق في ظل العهد الجديد، العامل الأساس الذي دفع الشبيبي للانضمام إلى فرع «جمعية الاتحاد والترقي» الذي جرى تأسيسه في النجف بعد انتصار الثورة[97].

سرعان ما أصيب الشبيبي، مثل أقرانه الوطنيين، بخيبة أمل كبيرة من سياسة الاتحاديين التي انصبت في اتجاه قومي متعصب معاد للطموحات المشروعة للشعوب غير التركية الداخلة في الأمبراطورية العثمانية. فقد نقض الاتحاديون عهودهم التي قطعوها للعرب والقوميات الأخرى بشأن منحهم حقوقهم القومية، وبدأوا يتبعون سياسة أكثر دكتاتورية مما سبق عهدهم، وأقاموا نظاماً مركزياً مقيتاً جعلوا من سياسة التتريك أحد أهدافه المركزية. إن ما أقدم عليه الاتحاديون من تصرفات غير ديمقراطية أعطت الدليل القاطع على نظرتهم التسلطية، واستعلائهم على العرب وغيرهم من أبناء القوميات الأخرى، مما زعزع الثقة بهم[98]. وقد تحول ذلك إلى عامل أساس أدى إلى أن تشتد الحركة القومية العربية التي عبرت عن نفسها بتأسيس الجمعيات السرية، والعمل على مقارعة العثمانيين بشكل لم يسبق له مثيل[99].

انتقل محمد رضا الشبيبي في ظل هذه الأوضاع إلى الخندق المعادي للاتحاديين عن وعي كامل، وباتجاه متطور قياساً بأسلوب عمله وتفكيره في المرحلة السابقة، ذلك لأن ثورة العام 1908 ونتائجها المبكرة ساعدت، على الرغم من كل جوانبها السلبية التي ظهرت على الساحة بسرعة، على تعميق منطلقات محمد رضا الشبيبي الفكرية على مختلف الصعد إلى حد كبير. وقد ساعد على ذلك كثيراً ما كانت تنشره الصحافة العربية في المرحلة الجديدة من أفكار نوعية كانت تمثل نقلة مهمة بالنسبة لجميع المثقفين العرب الواعين. فقد تسربت إلى تلك الصحافة أفكار كانت محظورة في العهد الحميدي بصورة قطعية، مما ساعد على أن يطلع المثقفون العرب على أسباب الحضارة الحديثة، وأسلوب الحياة في ظل الديمقراطية الغربية بصورة أفضل. وكان الشبيبي على اتصال وثيق بالصحافة العربية، ولا سيما بـ «مجلات مصر وسوريا» التي «وجدت طريقها إلى العراق فالنجف» في تلك المرحلة[100]، وكان أكثر العراقيين نشرا فيها.

في تعليق له على ذلك يقول الدكتور عبد الرزاق محي الدين، رئيس المجمع العلمي العراقي السابق الذي زامل الشبيبي على مدى سنوات، إن الشبيبي وأقرانه كانوا يقرأون بلهفة وشوق ما في صفحات المجلات والجرائد العربية من أبحاث ومقالات، فبدأوا عن طريقها «يقرأون آثار الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي وشبلي شميل[101] واليازجي[102] والبستاني[103] وغيرهم «فتلقوا أفكارهم» كما يتلقى النائم صيحة القافلة بالمسير من غير تأهب، فهبوا للدعوة بين راض وساخط، ومتلكىء وهائب، ومشت القافلة يحدوها الناظمون والكابتون»[104]. ومما لا شك فيه قطعاً أن الشبيبي كان ضمن رهط الساخطين والهائبين، وقد مشى على رأس القافلة حتماً!.

انعكست التحولات الجديدة قبل كل شيء على شعر الشبيبي الذي تعمق

مضمونه، وتوسع أفقه، وتشعبت اهتماماته، وحوى مصطلحات جديدة لم تكن مألوفة من قبل في الشعر العراقي على الأقل. وأن أول ما يجلب النظر في هذا الميدان أن البعد القومي في شعر الشبيبي أخذ مداه بعد الثورة، ولا سيما بعد أن تبلورت أبعاد السياسة القومية للاتحاديين. وردت ملاحظة بهذا الصدد ننقل أدناه نصها نظراً لدقتها، وتطابقها مع ما نود توضيحه هنا:

«وقد خرج الشعر هنا عن محيطه وقيوده أكثر من خروجه عند الطبقة التي سبقت طبقة رضا الشبيبي، ولم يعد الشعر مقتصراً على حياة الشاعر الخاصة، وإنما عبر إلى الآفاق الواسعة من عوالم الدنيا، وتغلغل في أعماق الشعوب العربية وحرياتها وأمانيها، وما أحسن وصف رضا الشبيبي لما جناه العراق من المتحكمين فيه، وما عملت السياسة وأربابها من المسيطرين عليه في مقدراته»[105].

تعد قصيدة «في العراق» أنموذجاً للتوجهات الفكرية الجديدة لدى محمد رضا الشبيبي، فهو يقول عن القصيدة: «يتذمر فيها من سير الشؤون العامة في العراق، ويشير إلى الفتن والحروب الداخلية، وإلى خيبة الأمال التي عقدت في العراق على إعلان الدستور من قبل الأتراك، وذلك سنة 1331 هـ/ 1912م، ونشرتها صحف سوريا ومصر إذ ذاك»[106]. ومن أجل التوضيح فقط نقتبس من القصيدة بعضاً من أبياتها التي تقول:

جنيت شبابي في بلادي كما جنت ... على القلب أهوال البلاد فشابا
ألنت بها جنب الخضوب شدائدا ... وساهلت وقع الحادثات صعابا

* * *

بأي كتاب، أم بأية سنة ... يبيحون ظلمي سنة وكتابا
إلام أجوب القطر سام جهالة ... وماج تقاليدا وقاض خرابا[107]

تبدو لهجة الشبيبي في مثل قصائده هذه حزينة، باكية، إلاّ أن المتخصصين في شعره يرون في ذلك «دفقة ألم، وزفرة ثائر فيها تفاؤلية، وحث للهمم، وتوحيد للجهود من أجل الغاية المنشودة » التي كان المشرق العربي يسعى إلى تحقيقها آنئذٍ[108]. وهو في ذلك أراد أن يبعث الهمم في نفوس الشعب، فقارن حاله بماضيه بأمل أن يتحول ذلك إلى «أول بوادر النقمة والثورة» على الوضع المزري الذي استوحى أفكاره عنه من صور الحياة في النجف والكوفة والحلة والديوانية، ومنطقة الفرات بصورة عامة، فكان في ذلك «صورة واضحة لما مرّ بالعراق من حوادث، ووصفها وصفاً صادقاً، وكان سجلاً حيّاً للحياة الاجتماعية والسياسية» في تلك المرحلة[109].

في فكره القومي تجاوز الشبيبي بعد ثورة العام 1908 إطار العراق إلى إطار عربي أشمل، وأوسع، فقد كبر الوطن في فكره، وصورته على قلمه، فهو لم يعد يبكي «على الفرات فرداً»، بل بدأ يبكي «على الجزيرة[110] جملة»، فحقيق لديه أنه «إذا تألم عضو أن تناجي آلامه الجسم كله»[111].

في خضم كل ذلك يبحث الشبيبي عن الموجهين الذين يريدهم أن يكونوا مؤمنين بأفكار الإصلاح، ويحز في نفسه أن عدد «داعية الإصلاح» في وطنه ما كان «يتعدى الآحاد» من أرقامه كما ورد في قصيدته المعنونة «درس الآلام» التي نشرها، كما يؤكد، في صحف بيروت قبل الحرب[112]. وهو يبحث أيضاً عن القائد الذي يريده أن يكون جديراً «يقود، لا ينقاد مثل الزعانف» كما هم قادة الشرق الذين لا «تنتهي مخازيهم» فيشكو السماء لأن الرجال «ما بهم رجل»[113].

يؤلف الشباب في منظور الشبيبي أداة التغيير الأساسية، إذ «لم يبق له إلاّ الشباب» كما ورد في مستهل قصيدته «في سبيل الشرق» التي نشرها في آذار سنة 1914 في مجلة «الزهور» المصرية[114]. ومما يلاحظ بهذا الصدد أن

الشبيبي قلما يتطرق بصورة مباشرة إلى أسماء المعذبين من أبناء الفئات الاجتماعية الدنيا في كتاباته[115]، الأمر الذي لم يكن مطروحاً يومذاك بالنسبة لأحد من المفكرين العراقيين المجددين أصلاً. ولكن في توجهه القليل إليهم كان هو هو ـ محمد رضا الشبيبي العبقري الذي أغلب الظن لم يعبر أحد مثله عن عمق المأساة في صورة شعرية تبلغ عنان السماء في سموها ورفعتها. فهو القائل في العام 1911 في جريدة «البرق» البيروتية إن ماء دجلة الذي يأتي عذباً من موارده يتحول إلى حمم في كبد الفلاح[116]. ثم إنه كان يدرك أن التناقض الأساس هو بين جمع الشعب والحاكم الاتحادي الذي يلف ظلمه كل أهل الشبيبي وخلانه. ففي القصيدة نفسها التي تحمل عنوان «على ضفاف دجلة» يتوجه إلى ماء دجلة قائلاً قولاً لم يقله غير الشبيبي:

أأنت أم كل ماء الأرض مظلوم؟ الظلم ينفيك عن أهليك مضطهداً[117]

لكن الشبيبي انتقد، مع ذلك، الأغنياء بقوة في رائعته «رفقاً بنا» التي نشرها قبل الحرب العالمية الأولى في «البرق» البيروتية أيضاً. ففيها لم ير الشبيبي أوجهاً مثل أوجههم «كوالح لم تبتسم للمنى»، أوجهاً لا تستثيرها البائسات «فرادى تمر بها[118] أو ثنى»، وعلى الرغم من أنه دعا الله أن يخفف من أطماع هؤلاء الناس، واستهزأ منهم لأنهم لا يفهمون لمن يكنزون حطام الدنيا، ويصونون أموالهم «عن دواعي الوجود» و«يفنونه في دواعي الفناء»، إلاّ أنه توقع ثورة الحق عليهم، وعد نفسه ضمن الثائرين ضدهم:

أما تستثيركم البائسات فرادى تمر بكم أو ثنى؟
تقابل عزتكم بالصغار وتقرن صحتكم بالغنى
أيهنيكم أنها في الشقاء ويشقيكم أنها في الهنا؟
فلا تنسفوا الحق عن قوة بعيد لها نسف ذاك البنا
بزرق الحدود وحمر البنود وبيض السيوف وسمر القنا

ولا بــد للحــق مــن ثــورة رويداً، فإما لكم أو لنا[119]

ومن منطلق اهتمامه بالشباب، وتهيئة جيل جديد بتحمل أعباء التغيير، يولي محمد رضا الشبيبي التربية اهتماماً خاصاً في نشاطه الفكري المبكر، ويطرح بخصوصها آراء في غاية الأهمية قياساً بزمانها، وفي إطار مكانها. ففي مقالته المعنونة «التربية الصحيحة» المنشورة في تشرين الأول سنة 1909 يرى في «حجر الأم» «المدرسة الصغيرة» التي «تربيك على قدر استعدادك»، ثم يأتي دور الأب، ثم الأسرة في تربية الطفل. أما «تربية العقل، وتثقيف الشعور هما وظيفة المدرسة والأستاذ» في نظره[120].

وهو متأثر برأي الكواكبي في أن التربية هي أداة لتقويم الخلق، ولسمو الروح، ويستشهد به في ذلك[121]، إلاّ أنه يؤمن، في الوقت نفسه، وهذا مهم بحد ذاته، بأن التربية يجب أن تكون أداة لمحاربة الشرور والاستبداد، فإنّ «سيطرة الاستبداد» كما يقول في المقالة نفسها « أفظع كل شيء، الاستبداد يضطرك إلى سوء التربية، وإن عالجت حسن التربية فالاستبداد يضطرك إلى سوء العاقبة من أجلها»[122].

وإطار التربية لدى الشبيبي يتعدى المدرسة، ويتعدى الجيل الناشىء، إنها أداة إصلاح للجميع من أجل المجتمع المنشود، لا يستثني منها أحداً، إذ نراه يتساءل بحرقة وحرارة.

> «أين هي التربية[123]، أين أجدها؟ عند عالم همه التهام مال الفقير، وابتلاع لقمة اليتيم، عند تاجر تقمص باسم تجارته، باع دينه، وضيع يمينه... أين أرى التربية، هل أراها لحاكم ربي على الرشوة، وأدليت إليه الأموال بالباطل، هل أراها لمدعي الزعامة، والمتنفذين، أولئك متجسمة الاستبداد، دعاة الاستئثار، رؤوس الشر، ومصادر السوء»[124].

ومما يلاحظ أن جميع الذين وردت أسماؤهم من القيمين على المجتمع، المؤثرين فيه، وفي حاله وشؤونه. ونظراً لخطورة الموضوع يدعو الشبيبي أصحاب القلم إلى التأكيد على موضوعة التربية، ويطلب منهم مساعدتهم، فيقول في «التربية الصحيحة»: «أنتم يا أرباب الصحف، وحملة الأقلام طالما كتبتم عن التربية، ودعوتم إلى الفضيلة هذا حائر دلوه على ضالته، هذا مسكين تائه خذوا بيده». لكن المهمة ليست سهلة، لذا نرى يختم كلامه مع أصحاب القلم بالسؤال «ولكن إلى أين»، ويجيب بنفسه فيقول: «لا أعلم ولا تعلمون»، وبه ينهي مقالته أيضاً[125].

طرح الشبيبي في مجال التربية والتعليم في وقت مبكر آراءً عميقةً، ورائدة، وناضجة حسب جميع المقاييس. ففي أواسط العام 1910 سجل مثل هذه الملاحظة الدقيقة حول ضرورة الجمع بين النظرية والتطبيق في ميدان التعليم:

«لا يحرم الملكة طالبها إلاّ بالعمل، أي تطبيق ما يحفظ على ما يكتب، وما يقرأ، وبعد تكرار هذا التطبيق وإعادة هذه التجربة ينال الملكة، ودعه حينئذٍ ينسى المواد المعنوية مادامت القوة العملية بين جنبيه، على أن هذه القوة نفسها تمثل له كثيراً من النظريات التي انمحت من لوح خاطره»[126].

ازداد اهتمام الشبيبي باللغة في هذه المرحلة لا فقط باعتبارها أداة التعبير، بل أيضاً لأنها أصبحت لأول مرة، على مدى أربعة قرون من الحكم العثماني، هدفاً مهدداً من حكام الباب العالي في العهد الاتحادي[127]، فيما هو رأى في العربية «دعامة كبرى من دعائم القومية»، لذا «أخلص لها، وتفانى في خدمتها»[128] حسب تعبير إبراهيم مدكور رئيس مجمع اللغة العربية في القاهرة[129]. وهو في ميدان التجديد توجه أصلاً نحو اللغة أولاً ثم نحو

الحضارة العربية، والتراث، تماماً كما كان الأمر في المراحل المبكرة في عصر النهضة في أوربا، ولا سيما في إيطاليا، حيث أولى المفكرون، بدءاً بدانتي[130]، موضوع اللغة القومية اهتماماً خاصاً، بل إن معظمهم بدأ الطريق بها[131]. وهو تماماً مثلهم كان يريد لغة قوية، قويمة، شرط أن تكون مفهومة، وأداة للتخاطب مع الناس لا حكراً على الخواص، محصورة بينهم، وفي مخطوطاتهم، وكان ينظر إلى اللغة باعتبارها علماً يجمع بين النظرية والتطبيق مثل سائر العلوم. ففي مقالته العميقة «الامتحان العملي أو هل تفيدنا النظريات» التي نشرتها مجلة «العرفان» أواسط العام 1910 في حقل «فلسفة اجتماعية» قال الشبيبي بهذا الخصوص ما نصه:

«نحن نريد للطلاب ملكات تجعلهم يقرأون ويكتبون، وينشئون ويخطبون، غير لحانين، ولا متعجرفين، نريد أن تتأصل فيهم قدرة يعرفون معها لحن القول، ودقائق مغامزه وإشاراته، وبالجملة لا نريد أوعية صرف ونحو وجمل طويلة، بل نريد رجالاً عرباً يفهمون ويفهُمون، ويعرفون كيف يتكلمون»[132].

وهنا من الضروري أن نشير إلى حقيقة مهمة وهي أن قصائد الشبيبي كانت تنشر، وتمر دون حساب، على الرغم من مضمونها الثوري الانتقادي التحريضي، بحكم عمق لغتها، وقوة سبكها، مما كان يحول دون إدراك كنه مضمونها بسهولة، بل كان ذلك يتعذر إلاّ على الضليعين في لغة قريش، حتى قالوا عن شعره في ذلك الوقت، في العام 1914 تحديداً، أنه «يذكر بشعر العصر العباسي الزاهر»[133].

والشيخ الشبيبي من أوائل المفكرين العراقيين الذين تطرقوا إلى موضوع علم اللغة بعمق في تلك المرحلة. ففي العام 1912 نشر مقالة في «لغة العرب» اختار لها عنوان «وضع اللغات وخضوعها للطبيعة»، مما يعبر عن مضمونها

العلمي الذي دفع الأب أنستاس ماري الكرملي إلى أن يختار لها المكان الأول في ذلك العدد من مجلته[134].

عرض الشبيبي في مقالته هذه آراءً علمية، وفكرية عصرية بصدد نشوء اللغات على أساس «الأصوات الطبيعية» وباعتبارها «إرادة التعبير عن المرئيات، أو غيرها من معلومات الإنسان الأول»، اعتمد نماؤها على تطور الإنسان وحاجاته الحياتية، فإن «المعاني لم تعلم دفعة واحدة، وكذلك الألفاظ لم توضح دفعة واحدة، بل كلما تجددت المعاني، وعلا إدراك الإنسان، وتصور الأمور الدقيقة، اضطر لإحداث الألفاظ متبعاً في ذلك التدرج، لأنّ الطفرة محال». ومن هذا المنطلق العلمي ـ الفلسفي أكد الشبيبي أن اللغة تخضع لـ «نواميس[135] طبيعية عامة مثل ناموس التحول، وناموس بقاء الأصلح»، وإنها «كالأخلاق، أو ككل مميزات الإنسان، خاضعة للقوى العاملة فيه، فيصح من بعض الوجوه أن نقول إنها كائن حي كالإنسان، ولحياته أطوار كأطوار حياة الإنسان»[136].

كان هدف الشبيبي من مقالته الفريدة هذه خدمة العربية، فقد أراد أن يوجه «أنظار علماء العربية. . . لينشئوا في أبحاثهم لغة تناسب هذا العصر الذي اتضحت فيه أعمال القوى الاجتماعية والطبيعية ليسيروا معها، لا ليقضوا في سبيلها جامدين، فتقضي الطبيعة على هذا اللسان العربي البين بمقتضى أصولها المقررة الثبوت»[137]. أجل إنه أراد للعربية الثابتة الأركان تطوراً يواكب التطور العلمي والفكري الجارف الذي بدأت بواكيره تصل ربوع وطنه ببطء، وهو ما نادى به كل مفكر ثاقب النظر، بعيده في كل زمان ومكان عاش التطور باتجاه الانتقال إلى مرحلة أفضل.

ركز محمد رضا الشبيبي في مجمل نشاطه الفكري في مرحلة ما قبل الحرب العالمية الأولى، كما في مرحلة ما بعدها، على ضرورة الوحدة بين

طوائف المجتمع وفئاته المختلفة، ولا سيما أن الاتحاديين كانوا يحاولون، شأنهم في ذلك شأن أي مستغل، الاستفادة من شعار «فرق تسد». إننا سبق وأن ذكرنا أن الرجل أسمى من أن يكون طائفياً، لكنه أدرك في المرحلة الجديدة، والمراحل اللاحقة مدى ضرورة الانتباه إلى هذا الأمر الحيوي. ثم إن الشبيبي لم يكن متعصباً في إطار الدين نفسه، دعك عن إطار الطائفة الأضيق. إنه يرقى في بعض أفكاره الإنسانية إلى مصاف كبار المفكرين الإنسانيين فيتجاوز الجزء إلى الكل، دون أن يكون ذلك على حساب الأول منهما. فإن الأفكار التي وردت في ثلاثية «الإقليمية أو الجنسية المصطنعة» التي نشرها عام 1912 في العدد ثلاثة وثمانين ومائة من جريدة «البيرق» البيروتية تذكرنا بأفكار جورج برنارد شو في الغرب[138] وطاغور في الشرق[139]، وهذا نصها:

وأرى من الإنسان أعجب ما أرى   جنسيـــة منعتـــه أن يتـــواســـى
لـم لا تشبّـه بـالحقـول يـزيـدهـا   لطفـاً تجمـع وردهـا أجنـاسـا
يا ليت من جعل التباين زينة   للورد قدرها تزين الناسا[140]

وعلى الرغم من إجلاله للدين، النابع عن إيمان المؤمن العليم، وعن نشأته «نشأة دينية بحتة» فإنه «كثيراً ما كان يهاجم رجال الدين» عندما كان «يجدهم أصبحوا حجر عثرة في سبيل التقدم»[141]. إنه أراد أن يفهم القوم أن الدين ليس «عادات معطلة» بل إنه «تحليل وتحريم»، فتوجه إليهم في العام 1911 طالباً منهم أن لا يجعلوا «آلة التفريق دينهم»[142] لأنّ الدين «عن وصمة التفريق معصوم»[143].

أجل إن الدين في نظر الشبيبي لم يكن «عادات معطلة»، لذا فإنه أدان بقوة وقناعة التقاليد البالية والخرافات، فهي التي أدت إلى تأخر الشعب فكرياً، وانحطاطه ثقافياً، وهي التي كانت تؤثر سلباً على مسار النضال من أجل التحرر

والانعتاق.

يضع الشبيبي، مع ذلك، وغير ذلك، الدين في المقام الأول بالنسبة لكل شيء أساسي في حياة المجتمع، فيرفض أن يكون غير الدين محوراً لكل ما فيه خيره، وسؤدده، فالأخلاق عنده تستقيم بالدين، ومن دون الأخلاق يذهب «العلم ذهاب الزبد»[144]، وهو يربط بذلك بين الدين والعلم بأسلوب صوفي مبدع، ودون أن يكون سلفياً، إنه على العكس تماماً من ذلك واقعي في تفكيره، متفائل، فهو يفكر في «اليوم والغد» بل وحتى في «ما بعد الغد». ففي أيلول 1911 نشر قصيدة بعنوان «خواطر اليوم وأقوال غد وأعمال ما بعد»[145] سجل فيها منطلقات فكرية وأخلاقية تمثل الذروة في عصر النهوض الفكري والثوري الجديد، منها «ما فتحت فمي إلاّ رفعت يدي»، ومنها «الحق تحت لساني غير مضطهد»، ومنها «حب الحقيقة يصيبني وإن كبرت»، ومنها «لا قلت للعين نحو الباطل التفتي». وهو فيها (في القصيدة) رجل علمي مؤمن بالتطور، «فنحن والأحقاب سلسلة محبوكة الزرد، الموصول بالزرد»، و«كل العوالم للتغيير خاضعة»[146].

تنبؤنا تجارب التاريخ أن عمالقة الفكر يولون العلم في مراحل النهوض الثوري والتطور اهتماماً استثنائياً باعتباره أداة خطيرة لتهديم قلاع الظلم والاستبداد والتخلف، وضمان السير نحو المستقبل الأفضل[147]. يعد الشبيبي حقاً الأنموذج المعبر عن هذه الحقيقة بوضوح بالنسبة للعراق، بل وحتى بالنسبة للوطن العربي. فهو يريد «العلم العملي» لكل شيء، وفي كل ميدان ومجال سوى المدارس الدينية وحدها التي يستثنيها من ذلك[148]، مع العلم أنه لم يفصل العلم عن الدين، فإن الأول كلما بلغ به التطور ساعد أكثر على تجلي عظمة الخالق كما أكد ذلك في بحثه عن «الاكتشافات الفلكية»[149]، بل إنه يذهب إلى حد أبعد من ذلك بكثير حين جعل الدين والعلم أخوين «ارتضيا

رحماً واحداً غير مقطوع ولا منفصل» وذلك في رائعته التي نشرها في حزيران العام 1911 بعنوان «العالم والعلم»[150]. دفع ذلك صحفياً عربياً أن يرى في الشيخ الشبيبي «شاعراً ومفكراً، يصور شعره أثر العلم الحديث. . . ورغبة الناس في الاهتداء به، مع رغبتهم في الوقت نفسه بالتوفيق بين العلم والدين ما كان إلى ذلك سبيل»[151].

ومرة أخرى يثبت الشبيبي أنه سبق زمانه في أفكاره وتصوراته العلمية، وذلك في إطار المكان الذي كان يفكر ويعمل فيه، حيث القصور في أدوات البحث والفهم والإدراك، وشحة في المصادر، وعجز في اللغات. إلاّ أن الشبيبي قد عوّض عن ذلك جزئياً بمتابعته الجدية لكل جديد في ميدان العلم، بحيث أصبح بوسعه أن يكتب «مختصراً في الاكتشافات الفلكية» يصحح فيه الأخطاء الشائعة بأسلوب علمي مفهوم، فيروي لنا كيف «تمر أحياناً في عرض الفضاء وطوله بعض الكواكب المنقضة ولا مرور السهام النارية، وتذهب لساعتها هباء منثوراً في السماء، وهي التي تسمى الشهب، وليست من صغار الأجرام فقط، وإن كان الغالب فيها ذلك، فقد شاهد بعض المنجمين[152] شهاباً مثل القمر الزاهر قدراً ونوراً». ثم يضيف:

«وحسب الناس هذه الثواقب في القديم بروقاً، أو مثل البروق، ولكن علم الآن أنها أجرام تدور حول الشمس، وربما اصطدمت وهي في أفلاكها بالكرة الأرضية، فيحدث من شدة الاصطدام المنبعثة عن سرعة الحركة تلك الكهربائية، أو النار الحامية، فتتلاشى صغارهن من البين، وقد يتلاشى كبيرها أيضاً، كما أنه يصل إلى الأرض، وتسمى النيازك الساقطة منها على الأرض «أكرلايت» (Acrolite)، ويوجد في المتاحف[153] أنواع منها، أما مادتها فهي الحديد وشيء من التراب»[154].

وأغلب الظن أن محمد رضا الشبيبي كان أول مثقف عراقي تحدث لأبناء

جلدته عن مواضيع فلكية غير مطروقة من قبل، وبأسلوب علمي واضح، بل وأخّاذ، من شأنه تنبيه الأذهان، فهو القائل في العام 1911، وهو وقت مبكر حسب قياسات مجتمعنا، وبالنسبة لمثقف نجفي متدين كان مثل كلامه الآتي يعد كفراً في نظر العراقيين إلاّ ما ندر:

«ويوجد بين عوالم السيارات ملايين من هذه الأجرام الصغيرة، سابحة حول الشمس، وحجم بعضها لا يتجاوز حجم صغار الأحجار، وموزون بعضها قناطير عديدة وبعضها دون ذلك. هذا وقد تصطدم الأرض بعض الأحايين الخاصة بالكثير من هذه الأجرام، فينقض بعضها على بعض، ويختلط الحابل بالنابل، ويتكون من ذلك منظر جرم هائل، ومشهد يأخذ بأفئدة الناظرين إليه»[155].

والشبيبي من أوائل المثقفين العرب ممن استخدموا مصطلحات علمية جديدة، وبأسلوب يغرسها في عقل القارىء وذهنه[156]. فمن أقواله مثلاً: «وقد اعتقد فريق من الفلكيين أن أصل المذنبات من هذه الشهب، لأنهم شاهدوا الكثير منها ذوات أذناب، ولكن قد ظهر أن المذنب مركب قسم منه من الغاز المشتعل، أصفر اللون»[157].

وفي العام 1911 قارن الشبيبي في جريدة «البرق» البيروتية بين «عالم الأفلاك والأرض بكل متناقضاتها من «عابر وعادل، وواف وروّاغ، وراض وماقت، وحيران ومهتد، وهدار وصامت»[158]. وفند في «المقتطف» الرأي الخاطىء حول موقع الأرض في المجموعة الشمسية، إذ قال «وحسبوا الأرض مركزا ياوهموا»، كما تحدث فيها عن أجسام في الكون لا ترى بالعين المجردة[159]، وبأسلوب يذكرنا تماماً بأعلام النهضة الأوربية، ولا سيما الإيطالي جوردانو برونو[160].

كان الشبيبي متحمساً للجمع بين النظرية والتطبيق في ميدان العلم، فكتب مقالة مفصلة حول هذا الموضوع في أواسط العام 1910، قال فيها «كلنا يعلم أن النظر البحت لا يغني فتيلاً، وأن التدريب على العمل غاية كل علم، وأن العلم مادام نظرياً صرفاً، أو محصوراً في صدر صاحبه فهو لا يشغل من فضاء الأعمال حيزاً». ويضيف على ذلك قوله: «وبالإجمال يوم اقترن العلم بالعمل... أخذت تورق أفنان الحقائق، وتلمع فروعها، فأثمرت واجتنينا دواني قطوفها الطيبة»[161]. وقد صاغ لنا ذلك في عبارة علمية رصينة، يقول فيها:

«إن العلم في الامتحان النظري[162] مهما كثر لا يقوم مقامه في الامتحان العملي[163] مهما قل»[164].

جلب أبرز علماء الغرب أنظار محمد رضا الشبيبي، فأعجب بهم أيما إعجاب، وأتى على ذكر أسمائهم في مقالاته خصيصاً، منهم بيكن[165] وديكارت[166] وغاليلو[167] ونيوتن[168]، فإن هؤلاء، وغيرهم كانوا لدى الشبيبي ممن يتمتعون بـ «قوة قلب، وصدق وجدان»[169]. أما بطليموس[170] عنده فهو «شيخ الحكماء»[171]. ولم يكن ذلك مجرد صدفة، فإن بطليموس، كما هو معلوم، صاحب أقدم وصف دقيق معروف للسماء.

ومثل أي مفكر ثوري كان الشبيبي يريد العلم من أجل التطور، والتطور كان يعني الاصطدام بالقديم السائد، والتغيير نحو الأفضل، ومن هنا فإنه كان في توجهاته وأفكاره العلمية رجلاً سياسياً كما كان في جميع الميادين الأخرى، وقد ساعد بذلك على تنبيه الأذهان، ولا سيما أن مجالسه في النجف، ومن ثم في بغداد كانت ندوات طالما طرح فيها آراءه العلمية التي كانت تتعارض في كل شيء مع الجهل والجهالة، والخرافات التي كانت تعد من أخطر العقبات أمام النضال الناجح من أجل الانعتاق. فإذا كان الجهل لدى الشبيبي يعادل

الموت فإن ذلك يعني بالبداهة أن العلم يكون الحياة، ويكون الحركة بعينها، وهما اللذان يؤلفان الأساس المتين لكل تحول في المجتمع، فهو القائل في قصيدته «أوطار وأوطان» التي نشرها في «العرفان» سنة 1913:

وأن حيـــاة الجهـــل إن لـــم تكـــن لهـــا
علـى المـوت سبـق فهـي والمـوت سيـان[172]

وقبل ذلك بثلاث سنوات ونيف قال الشبيبي في «نفثة مصدور»، وهي من أقدم شعره، نشرها على صفحات «العرفان» أيضاً:

وأشقـى الـورى مـن يطلـب السعـي للعـلا
ويمنعـه صـوت الجهـالـة أن يسعـى[173]

وقل في دنيا العرب من قال مثل الشبيبي:

العلـــم والجهـــل إثـــراء وإقـــلال
وأمتـــع الشـــروتيـــن العلـــم لا المـــال[174]

ومن المنطلقات ذاتها أولى محمد رضا الشبيبي التاريخ قدراً واضحاً من الاهتمام منذ أن نزل إلى ميدان الإبداع والإنتاج. ومن البداية بدا واضحاً أنه ينحو في هذا الحقل أيضاً منحى علمياً. من أجل تعزيز هذين الرأيين معاً نقتبس العبارة التالية من إحدى مقالاته التي نشرها في ربيع عام 1910 في مجلة «العرفان»:

«يجدر بالعاملين أن يدرسوا أحوال رجال العمل، ويدرسوا تاريخ حياتهم ليكون لهم مثالاً يحتذون به، وأنموذجاً يرجعون إليه. لمطالعة تاريخ حياة الرجال العظام تأثير أشبه بتأثير الكهربائية في الأجسام، تأثير يجعل في الرأس حرارة محرقة، و(العالم) الطبيعي يقول: «الحرارة حيثما وجدت تحولت إلى ما

حولها»، والرأس خير موصل لها، حينئذٍ فهي تجول منه بكل الدقائق الجسدية، فتشعر بحركة قوية، تشعر بقوة دافعة تنزع بنا لمعالي الأمور، لذلك كان بعض المستأثرين يحظر مطالعة التاريخ»[175].

ولم يمر سوى عام واحد فقط على قوله هذا حين أكد مجدداً خطورة التاريخ، وأهميته باعتباره أداة لرفع شأن ذكرى الماضي التليد، وذلك في «العالم والعلم» التي نشرها في «المقتطف» المصرية. وفيها أيضاً يبدي تمسكه بالموروث والعلم من أجل التبديل والتغيير[176].

وفي إطار التاريخ يتمسك الشبيبي دوماً بالماضي التليد، ويعتز بالتراث والموروث، لكنه يريد أن يتحول ذلك إلى نبراس للحاضر، وإلى دليل للعمل والبناء، فهو يرفض رفضاً قاطعاً «التفاخر أبداً بالقدم». ويرفض «طول التباهي بالرمم»، فيدعو بقوة إلى إعادة بناء ما هدمه الزمان، وتجديد ما رثّ بحكمه حتى يتسنى «الفوز في الحياة»[177].

خص الشيخ الشبيبي «لغة العرب» معظم نتاجاته التاريخية في تلك المرحلة من نشاطه الفكري كونها «مجلة شهرية أدبية علمية تاريخية»، ولأنها كانت في متناول القارىء العراقي أكثر من غيرها. كما أنه جلب بسرعة أنظار صاحب المجلة، ورئيس تحريرها الأب أنستاس ماري الكرملي الذي أطلق عليه لقب «الشاعر الناظم، والناثر الناغم»[178]، وتمنى أن لا ينقطع عن النشر في «لغة العرب» التي أصبح الشبيبي واحداً من أبرز كتابها فعلاً[179]، ومن أكثر المثقفين العراقيين اتصالاً بصاحبها[180].

أول بحث تاريخي نشره الشبيبي في «لغة العرب» كان بعنوان «حول المنتفق»[181] الذي كان في الأصل تعقيباً، ومناقشة لما ورد حول الموضوع في عدد سابق من المجلة.

إننا نرى أن تقييم أي مؤرخ ناقد منصف للبحث يكون إيجابياً من جميع الأوجه تقريباً حتى بغض النظر تماماً عن ظرفي الزمان والمكان. فقبل كل شيء إن اختيار «حول المنتفق» عنواناً للبحث يدل على عقلية علمية تاريخية صحيحة، ذلك لأنّ من المستحيل أن يستوفي بحث مهما كان حجمه كل ما يتعلق بتاريخ المنتفق، مع العلم أن بحث الشبيبي (عشر صفحات) كان مطولاً أكثر بكثير مما درجت عليه «لغة العرب» وغيرها من صحافة العرب يومذاك. إن القلة القليلة من غير الأكاديميين يفهمون، أو يراعون هذا الشرط المنهجي كما يجب حتى في يومنا هذا.

وبما أن البحث كان تعقيباً في الأصل، كما قلنا، لذا استهله الشبيبي بهذا الأسلوب:

«ولما كان لديّ شيء عن بلاد المنتفق، وعن المنتفق، حاضرهم وباديهم، جئتكم بما يمس البحث منه رغبة في الوصول إلى الحقيقة التي كثيراً ما توجد في وسط الاختلافات، كما أنها كثيراً ما تضيع في ظلماتها الكثيفة»[182].

تضمن البحث معلومات مفيدة، وتصويبات عديدة بالنسبة لتاريخ المنتفق وتوابعها، كما بالنسبة لمواقعها ووقائعها، مما دفع الكرملي إلى أن يعقب عليه باسم «لغة العرب» بالقول «نشكر حضرة الكاتب الشهير على مقالته هذه اليتيمة، ونؤمل أنها تكون رأس عدة نبذ تكون حلقاً متتابعاً، إن في المعنى الذي تعرض له هنا، وإن في سواه، إن نثراً، وإن شعراً»[183].

جلب البحث أنظار قراء «لغة العرب» على ما يبدو، فقد عقب عليه (منتفقي) قائلاً: «وقع بيدي في نهار أمس العدد السادس من مجلتكم «لغة العرب» فرأيت فيه مقالة حسناء مذيلة باسم الشيخ محمد رضا الشبيبي،

الكاتب النجفي الشهير وعنوانها حول المنتفق، فبدا لي في أثناء مطالعتها بعض الخواطر، فأحببت أن أبديها للقراء. . . »[184].

نشر المعقب مقالته بعنوان «خواطر في المنتفق وديارهم»[185]، وقد أغنى بمعلوماتها ما ورد في بحث الشبيبي، منطلقاً مما ذكره الأخير عن كونه «ممن يرغب في الوصول إلى الحقيقة التي كثيراً ما توجد في وسط الاختلافات».

كتب الشبيبي نبذة متممة لبحثه «حول المنتفق» سماها «العريسات وأم الغراف»، وقد نشرتها «لغة العرب» باسم «حضرة الشيخ العلامة محمد رضا أفندي الشبيبي»، كما ألحقت بها خلاصة لما كتبه المستشرق لويس ماسينيون[186] حول الموضوع نفسه[187].

نشر «كاتبنا الشهير» حسب وصف «لغة العرب» للشبيبي[188]، بحثاً تاريخياً عن الرماحية في «ربوع خزاعة بالشامية على مقربة من النجف»، وهي موقع «لم يذكرها ياقوت لأنها مستحدثة بعد زمانه قليلاً[189]، ولا تكلم عليها الباحثون المتأخرون. . . »[190]. وفي هذا بالتحديد تكمن أهمية البحث الذي تضمن معلومات تاريخية وجغرافية مهمة أثنى عليها الكرملي، وأغناها بتعليقه عليها، وتوضيحه لغوامضها[191]، مؤكداً «أن كاتبنا المحقق من المصيبين في حدسهم»، فإن معظم ما ذكره، كما علق، هو «الأقرب إلى العقل، وإلى العوائد الجارية في ديار العرب»[192]، مما يعد شهادة صادرة من علامة، لها مغزاها بالنسبة للشبيبي الذي لم يكن قد أكمل بعد الخامسة والعشرين من العمر[193].

تدخل مقالة «صرعى الكتب والمكتبات في العراق» أيضاً ضمن نتاج الشبيبي في ميدان التاريخ قبل الحرب العالمية الأولى، والتي تضمنت، كما أسلفنا، معلومات مفيدة عن عدد من المخطوطات النادرة مثل «كتاب مشارق الأنوار للقاضي عياض الذي كان يظن أنه أصبح أثراً بعد عين»[194].

قدّر محمد رضا الشبيبي القيمة العلمية الاستثنائية للمخطوطات باعتبارها أداة مهمة بيد الباحث عموماً، والمؤرخ خصوصاً، فأولى جمعها، وتحقيقها عناية فائقة. يورد لنا جعفر الخليلي معلومات معبرة عن ذلك، وعن أسلوب عمل الشبيبي مؤرخاً، إذ يقول:

«وقد تجمعت لدى الشبيبي طائفة كبيرة من رسائل، وكتب مخطوطة... وقد اعتمدها فيما كتب من بحوث، وما حقق من مسائل، وكان له الفضل في الاحتفاظ بعدد من النسخ المتفردة، وبالنتف التاريخية عن النجف بصورة خاصة، وعن تاريخ شلة من رجالات الأدب والعلم في العراق بصورة عامة، حتى صار يعرف الكثير من الشؤون الخاصة اعتماداً على تتبعه للأسناد والمذكرات والحجج الشرعية، بل حتى التوافه من الأمور كان يلتقطها، ويجلو بها الغوامض من الأحوال»[195].

ويؤكد الخليلي أيضاً أن الشبيبي «أول من فكر هو وزمرة من أنداده في النجف» في «تأسيس جمعية تقوم بدراسة المخطوطات، وتحقيقها، وتولي طبعها ونشرها»[196]. ويذهب الخليلي إلى القول «وإلى مخطوطاته هذه يعود شيء غير قليل من سرّ عظمته» كما أسلفنا[197].

والأهم من كل ذلك، على ما نعتقد، هو أن الشبيبي كان يرى في التاريخ جزءاً من القضية، وإحدى أدوات خدمتها الأساسية. من هنا يكمن اعتبار حماسياته «مصدراً من مصادر تاريخ العراق المعاصر منذ سنة 1908»، لأنها «مفعمة بالشعور الوطني والقومي، فلم تعبر عن واقع العراق فحسب، بل عبرت عن آلام العرب وآمالهم في التحرر والاستقلال» كما جاء في تحديد دقيق لأحد المتخصصين في أدبه[198].

إن الحقائق التي أوردناها حتى الآن تعطينا الحق أن نؤكد بأن محمد رضا الشبيبي كان فعلاً واحداً من روّاد العراقيين في عصر نهوضهم الفكري، والسياسي الجديد، فقد دق الناقوس في شتى الميادين ـ الدين، الأدب، اللغة، العلم، التاريخ، الاجتماع وغيره، وكان يروم من ذلك تنبيه الأذهان، وتهيئة لوازم النهوض، ومقاومة الاستبداد. فالوعي لديه أمر لا بد منه لتحقيق الهدف المنشود.

وهو في ذلك لم يكن مجرد وعاظ، بل نزل إلى ميدان العمل، والتوجيه المباشر أيضاً، مما لاحظنا بعض جوانبه في ثنايا البحث حتى الآن. كان هو شخصياً الأنموذج الأمثل للعمل في إطار الممكن يومذاك. فقد لاحظنا حرصه الكبير على الجمع بين القول والعمل، بين النظرية والتطبيق في كل ميدان. وهو إلى ذلك كان يؤكد على الجد في العمل، فـ «الجد أبو النجاح» في قناعته إلى الدرجة التي جعلته يختاره عنواناً لمقالة نشرها في نيسان 1910، وقد أكد فيها على الإصرار، والمواظبة دون هوادة وإن كان وحيداً في الميدان، فيقول:

«رجل العمل إذا هم فعل، وإذا فعل استمر، وإذا[199] استمر استقر. رجل العمل لا يتهيب المطلوب وخطره، لا يتهيب الغاية، وبعدها لا يتهيب من الوحدة، من الانفراد، لا ينكص والناس على غير هواه»[200].

يذكر الشبيبي في موقفه من العمل الجاد، والإصرار على مواصلته رغم كل الصعاب، بأعلام عصر النهضة مرة أخرى، ولا سيما بالمفكر الإيطالي بيير باولو الذي كان يرى غاية السعادة في العمل الدؤوب، حتى أنه شبه الليل بالموت «ما دام الوقت يذهب في النوم هباءً»[201]. ولنرجع مرة أخرى إلى الشبيبي وأقواله بهذا الصدد:

«مما يجب أن يعلمه العامل أن النجاح لا يأتي عفواً، ولا يقع صدفة، فلا يقنط أول مرة يجد فيها الخيبة، لا ييأس حين لا ينال الرجاء، لا يخسأ حين يستطيع الفوز، لا بل يجب أن يشتد عزمه كلما خذله النجاح، يجب أن يزداد عملاً كلما خانته الآمال، لئلا يذهب تعبه في الأول هدراً، لئلا يسقط ضياعاً، ويدرج عبثاً». إنه يريد العمل، ثم العمل دون وهن، أو تردد[202].

لا يخفي الشبيبي غرضه الحقيقي من إصراره على العمل، وهو التصدي للجور. فقد رصع مقالته «الجد أبو النجاح» بأبيات شعرية جسد فيها غرضه المذكور جلياً، واضحاً حين قال:

انفض غبار الذل عنك ناهضا فالصقر لما صافح الترب انتفض
فدولة الجور مع الجور انقضت عنك وعصر الظلم كالظلم انقرض
مضى زمان قولك الحق به إثم وقول الإثم حق مفترض
واليوم هذا قولنا فمن نهى وهذه ألفاظنا من اعترض[203]

كان التصدي للاستبداد، إذن، الهدف الأهم لمحمد رضا الشبيبي في تلك المرحلة من نشاطه الفكري والسياسي. إنه كان يحرض صراحة، وضعنا ضد الاتحاديين، ويحث الهمم للانتفاض عليهم. ففي قصيدة «الحب الطاهر» التي نشرها لأول مرة في العام 1911، والتي تشير، حسب شرحه لها، إلى «ما وصلت إليه البلاد أواخر أيام الأتراك العثمانيين... في ناحيتي السياسة وتصريف الشؤون العامة»[204]، تحريض صريح للعراقيين على الثورة ضد الاتحاديين:

يسام العراق الذل وهي عزيزة ويخرس أهلوه وهن فصاح

أسكان أجواز العراقيين هل لكم   نزوع إلى نيل العلا وطماح؟
فلا تضعفوا إن السعادة قوة   ولا تجبنوا إن الحياة كفاح[205]

لم يبلغ النضال السري في العراق قبل الحرب العالمية الأولى مرحلة النضج بعد، ولا سيما خارج بغداد. ولكن ما كان يدور في مجالس النجف من نقاش للأمور كان في الواقع ضرباً من ضروب النضال السري، خصوصاً إذا علمنا أن تلك المجالس كانت أمينة، تتمتع بحصانة ذاتية، ولا يمكن لعناصر السوء أن يجدوا مكاناً لهم فيها. مع ذلك توجد إشارات لنشاط تنظيمي ذي طابع سياسي كان الشبيبي أحد أركانه المجدين. فإنه بعد أن كشف حقيقة نوايا الاتحاديين ابتعد عنهم، وانضم إلى «النادي الوطني العلمي» الذي تأسس أواخر العام 1911[206]، وكان النادي أقرب إلى جمعية سياسية ذات أهداف قومية صريحة على الرغم من تظاهره الثقافي، حتى أنه كان يعقد اجتماعاته بصورة سرية لهذا السبب بالذات[207]. ضم النادي، فضلاً عن الشبيبي، مجموعة من المثقفين المتحمسين، منهم أخوه محمد باقر الشبيبي، وعبد اللطيف الفلاحي، ومحمود أديب، وإبراهيم صالح شكر وغيرهم، كما ضم عدداً من العسكريين العراقيين[208].

أصدر «النادي الوطني العلمي» جريدة «النهضة»[209] بعد «أن تفاقمت النعرة القومية في العراق بعد انعقاد المؤتمر العربي الأول في باريس»[210]. ظهر العدد الأول منها في بغداد يوم الأول من ذي القعدة عام 1331 الموافق للثالث من تشرين الأول عام 1913[211]، وقد أعلنت عن نفسها بأنها «جريدة سياسية عمرانية اجتماعية موقوتة تصدر مرة في الأسبوع»، كان صاحبها ومديرها المسؤول مزاحم أمين الباجه جي، ورئيس تحريرها إبراهيم حلمي العمر. كتبت «لغة العرب» بمناسبة صدور العدد الأول من «النهضة»:

«وصاحب هذه الصحيفة من الشبان أصحاب الهمة العالية،

والكاتب (إبراهيم حلمي أفندي) من الكتاب الذين تفتخر بهم بغداد، وتتوقع منه السعي الحثيث إلى ترقية الوطن. وكلاهما لا يخاف الانتقاد»[212].

صدر عن جريدة «النهضة» أحد عشر عدداً، لم يتسن لنا الاطلاع سوى على عددها الأول[213] الذي لم نجد فيه شيئاً منشوراً باسم محمد رضا الشبيبي. لكن المعلومات المتفرقة المتوفرة عن «النهضة» تبين أنها كانت ذات طابع قومي عربي معارض للاتحاديين، لذا بعد أن ظهر منها «أحد عشر عدداً ورد أمر من الأستانة بإقفالها، فتوارت عن الأنظار» بعد أن عاشت ثلاثة أشهر فقط[214]، كما قدم صاحبها مزاحم أمين الباجه جي إلى محكمة بداءة الجزاء في بغداد، وقد حكمت عليه بالسجن شهراً ونصفاً، وبغرامة قدرها خمس ليرات[215].

تحت ضغط الاتحاديين لجأ الباجه جي وإبراهيم حلمي العمر إلى السيد طالب النقيب[216] رئيس الجمعية الإصلاحية التي تأسست في البصرة، وكان «النادي الوطني العلمي» على صلة وثيقة بها[217].

إن انضمام الشبيبي إلى «جمعية[218] الاتحاد والترقي»، ومن ثم انسحابه وانضمامه إلى «النادي الوطني العلمي» ونشاطه فيه، فضلاً عن نشره المتواصل في الصحافة العراقية والعربية يؤشر تحولاً ما في أسلوب عمله باتجاه التنظيم، ذلك لأنّ نضاله السياسي قبل ثورة العام 1908 كان يتسم بطابع عفوي لم تختف ظواهره، حتى بعد انتصار الثورة. كتب هو عن أسلوب نضاله، ونضال أقرانه في تلك المرحلة، وعن عوامل وأهداف ذلك النضال ما نصه في مقدمة ديوانه:

> «كنّا في رهط من الشباب العراقيين وغيرهم، نفكر تارة في رسم أهدافنا، وطوراً في الوسائل التي توصلنا إليها. ولم نكن نستهدف في الواقع إلاّ الحياة في ظل نظام تحترم فيه الحقوق والحريات، وتفلح في كنفه المساعي، ويتيسر النهوض بالبلاد. كما كان في مقدمة العقبات الشاقة التي تواجهنا دائماً استفحال الجمود، وفقدان الشعور بالواجب، خصوصاً لدى المسؤولين،

وعدم اكتراثهم أو مبالاتهم بالأخطار، فتضطرم النفوس، وتثور الأرواح المتمردة، وتتضاعف الهواجس والآلام. . .»[219].

لم يلاق الشبيبي كثيراً من إرهاب السلطة بسبب أفكاره في تلك المرحلة، مما نجم، في الواقع، عن طبيعة النظام نفسه الذي لم يكن بعد نظاماً مركزياً متكاملاً بمعنى الكلمة، ولم يمتلك أجهزة إرهاب ومراقبة متطورة بسبب وضعه المالي المتهرىء، فضلاً عن أسلوب الشبيبي في التعبير الذي لم يكن فهمه في متناول الجميع كما أسلفنا. كما أنه لم يكن بأمر هين على الحكام يومذاك أن يتجاوزوا على قدسية مدينة النجف حيث مركز نشاط الشبيبي. ولكن تتوفر، مع ذلك، بعض الإشارات وردت في رسالتين بعثهما الشبيبي إلى الأب أنستاس ماري الكرملي قبل الحرب بمدة تبين أنه لم يكن في وضع يسمح له بالنشر بحرية تماماً. فقد وردت في رسالته المؤرخة في الخامس عشر من شوال سنة 1330 هـ ، المصادف للثامن والعشرين من أيلول سنة 1912 عبارة يقول نصها:

«إن[220] فئة تتربص دائرة السوء بي هي اليوم في بغداد، وإني لأوجس شرّاً من سوء قصدهم إذا انتشرت هذه الأبيات، واطلعوا عليها، أما إذا انجلوا (وقريباً ينجلون) عن جهتكم. . . فبادروا إلى نشرها، إذ هم لا يقرأون لغة العرب»[221].

وردت في رسالة الشبيبي الأخرى التي تحمل تاريخ العشرين من رجب سنة 1330 للهجرة، الموافق للسادس من تموز سنة 1912، إشارة غير مباشرة إلى الأمر ذاته، فضلاً عن أن من شأن ما تضمنته أن يلقي الضوء على واقع الحال في البلاد يومذاك، لذا ارتأينا أن ننقل منها قوله:

«هذه مقالة انتقادية حملني على كتابتها ما رأيت من تعرض القوم لغير شؤونهم، ودخولهم في غير ما يعنيهم، وقد كتبت

هويتي فيها، وأرجو أن تكتموها أنتم حتى عن خيالكم، لأنّ الناس لم يبلغوا مبلغاً من الأخلاق يحبب إليهم الانتقاد»[222].

هكذا تحول محمد رضا الشبيبي إلى اسم بارز، وفاعل في عالم الفكر والسياسة قبل الحرب العالمية الأولى لا في العراق فحسب، بل في المشرق العربي أيضاً، فقد أدى الرجل بإخلاص دوره الوطني في تنبيه الأذهان، وتوجيهها، الحقيقة التي يقرها غير العراقيين بقدر ما يقرونه هم أيضاً. ففي العام 1912 كتب عنه محمد صبري في الجزء الثاني من كتابه «شعراء العصر» المطبوع في مصر، ذكر فيه نبذة موجزة عن حياته، قدم فيها مختارات من شعره[223]. وفي العام 1914 كتبت مجلة «الزهور» القاهرية عن الشبيبي تقول مثل هذا القول الذي ينطوي على مغزى كبير بالنسبة لشاب في مقتبل عمره:

«محمد رضا الشبيبي هو أحد أعلام الشعراء في العراق العربي[224]، وأديب من أشهر أدباء النجف، مشى في نظمه مشية من تقدمه من أكابر الشعراء في تلك البلاد، ونهج مناهجهم، فجاء بالشعر مطيب النفس مرصف اللفظ، متين التركيب، يذكر بشعر العصر العباسي الزاهر»[225].

أما من المحدثين فقد قال عنه المؤلف السوري أدهم آل جندي «لقد كان لشعره الأثر البارز في نهضة الأمة، وإحياء ملكة البيان والبلاغة»[226]. وقال الهلالي عن الموضوع نفسه: فإذا باسمه يعدو «من الأسماء اللامعة في دنيا العروبة، وإذا شعره الرائع يقرأه أدباء العرب بكل إكبار وإعجاب»[227]. ورد في مصدر رسمي عراقي عن الشيخ الشبيبي «وكان له منذ طفولته ميل إلى الشعر والأدب، فتعهده بنفسه، وانصرف إلى الدرس والتفكير بذاته حتى أصبح نابغة النجف الأشرف دون منازع»[228]. لا نرى داعياً للتأكيد على أنه لم يكن أمراً سهلاً أن يبلغ شاب في مقتبل عمره مثل هذا المقام في مدينة العلم والأدب

والفكر. أما نجم عبد الله الجبوري فقد ألف عن الشبيبي كتاباً اختار له عنوان «الشبيبي أستاذ القومية»، مما قاله فيه:

«إن الأستاذ الشبيبي كان في الرعيل الأول من شعراء القوميين العرب وكان الأستاذ الأول في العراق خاصة لتلقين شباب العروبة في هذه الديار دروس القومية الحقة التي لا تخفي في طياتها الدلس والتدجيل، ولا ترمي إلى الغايات والمآرب الذاتية»[229].

وفعلاً إن أفكار الشبيبي كانت مهمة في تلك المرحلة لأنّ معظم الناس كانوا «في غفلة من أمرهم» فجاء لهم «بما أنار فيهم البصائر، وفتق الأذهان، وشحذ الهمم والعزائم»[230]. وفي هذا بالتحديد تكمن أهمية نشاطه الفكري والسياسي في مرحلة ما قبل الحرب العالمية الأولى، خصوصاً ولقد كان «لجمهرة المتأدبين شغف بالغ بقصائده، وحفظها وروايتها» وكذلك «بمقالاته الأدبية والتاريخية واللغوية»[231].

ومما يسجل للشبيبي أنه توقع قبل الحرب العالمية الأولى بمدة أن يفقد العثمانيون سيطرتهم على المشرق العربي بسبب سياسة الاتحاديين القومية المتعصبة، وبسبب تماديهم في الجور والتعسف. ففي قصيدته «في سبيل الشرق» التي تحدثنا عنها، وضع قبل اندلاع نيران الحرب بأشهر قليلة سؤالاً منطقياً، ذكياً يقول نصه:

ما عذر طائفة أضاعت مصرها   أن لا تضيع شآمها وعراقها[232]

وهذا هو الذي تحقق فعلاً، فبعد أن فقدت «الدولة العلية العثمانية»[233] مصر جاء بعد مدة دور العراق والشام، ففقدتهما بالأسلوب نفسه تقريباً، وذلكم هو حكم التاريخ العادل، وهو أن الظلم الجائر يفرض القطيعة

والانفصال حتى ولئن جاء ذلك بعون الأجنبي، بل وبإرادته على الرغم من قوة الرابطة الدينية التي لم يلتفت إليها الاتحاديون إلاّ بعد أن أصبحت دولتهم على شفى الانهيار النهائي بسبب سياستهم قصيرة النظر. لكن ذلك لم يكن في متناول إدراك إلاّ قلة من أمثال محمد رضا الشبيبي الذي توقع، كما يقول بنفسه، تمزق «شمل الدولة العثمانية، وانسلاخ الأقطار العربية عنها، وذلك قبل الحرب العامة بعدة سنوات»[234].

يبدو لنا أن الشبيبي لم يكن بوسعه نشر قصيدته «في سبيل الشرق» في مجلة «العرفان» الصيداوية التي خصها بمعظم نتاجاته الفكرية في تلك المرحلة، وذلك بسبب صراحة ما ورد فيها من أفكار تخص حتمية انفصال الأقطار العربية عن الدولة العثمانية، فآثر نشرها في مجلة «الزهور» القاهرية، فإن صحافة مصر لم تكن تخضع لرقابة الاتحاديين.

لم تؤثر وقائع الحرب العالمية الأولى وإفرازاتها كثيراً على النشاط الفكري والسياسي لمحمد رضا الشبيبي، على عكس معظم المفكرين والساسة الذين اختفوا عن الميدان في سنوات الحرب لأسباب مختلفة، وبدوافع متباينة.

هوامش

(1) عرف في بعض الأدبيات بالشيخ رضا، غير أن اسمه مركب من (محمد) و(رضا) على قاعدة خير الأسماء ما حمد وعبد، وهي الأسماء التي شاعت في العهد العثماني، حيث أن جميع إخوانه أسماؤهم مركبة تبدأ بمحمد تيمناً باسم الرسول الكريم محمد (ص).

(2) نسبة إلى مدينة الجزائر، التي تسمى حالياً بـ (الجبايش) التابعة لمحافظة ذي قار.

(3) دليهم: هو الزعيم العام لآل حميد المواجد من بني أسد، أنظر: حمود عبد الأمير الحمادي، الشبيبي الكبير ـ الشيخ محمد جواد. حياته وأدبه، النجف، 1972، ص 101.

(4) أنظر شجرة أسرة الشبيبي في:

شاكر جابر، أنساب العشائر العراقية، الجزء الرابع، من تاريخ الكرادة الشرقية، مخطوط محفوظ في مكتبة شاكر جابر، ص 94.

(5) بني أسد: عشيرة عربية معروفة تسكن العراق في منطقة الجبايش والبطايح، ويمتد سكنها ليصل إلى القرنة، عن العشيرة أنظر:

عباس العزاوي، عشائر العراق، الجزء الرابع، بغداد، 1956، ص 44-45؛ يونس الشيخ إبراهيم السامرائي، القبائل العراقية، الجزء الأول، الطبعة الثانية، بغداد، 1989، ص 22.

(6) الدكتورة سكريد فيستغال هلبوش، مدنية المعدان في الماضي والحاضر، نقله عن الألمانية الدكتور محمود الأمين، ـ «سومر»، بغداد، المجلد الثالث عشر، الجزء الأول والثاني، 1957، ص 83.

(7) «نبذة عن سيرة المرحوم الوالد الشيخ جواد الشبيبي»، مخطوط محفوظ في مكتبة المجمع العلمي العراقي، الورقة رقم3.

(8) «الترجمة الذاتية»، مخطوط مطبوع على الآلة الكاتبة كتب بإشراف الشيخ محمد رضا الشبيبي وموافقته سنة 1964، محفوظ في مكتبة خضر الولي ببغداد، الورقة رقم 1.

(9) مقابلة مع محمد حسين الشبيبي في تاريخ 13 آذار 1992.

(10) الشيخ صادق بن الشيخ محمد بن الشيخ أحمد أطيمش الربعي، من أهل العلم والفضل والتقى، كان من الأدباء الشعراء المعروفين، ولد في الشطرة وتوفي فيها عام 1296 هـ الموافق 1879م. أنظر:

محسن الأمين، أعيان الشيعة، المجلد السابع، بيروت، 1986، ص 367.

(11) يلقب عادة بالشبيبي الكبير.

(12) مقابلة مع محمد حسين الشبيبي في 13 آذار 1992.

(13) حسين علي محفوظ، علامة العراق الأستاذ محمد رضا الشبيبي، ـ مجلة «الرسالة والرواية»، القاهرة، العدد 864، 23 يناير 1950، ص 111.

(14) الدكتور محمد مهدي علام، المصدر السابق، ص 276. قدم حمود الحمادي رسالة ماجستير عن محمد جواد الشبيبي وشعره إلى جامعة عين شمس بالقاهرة نشرها في كتاب مستقل بعنوان «الشبيبي الكبير ـ الشيخ محمد جواد الشبيبي، حياته وأدبه»، بغداد، 1972، 568 صفحة.

(15) جعفر الخليلي، هكذا عرفتهم، الجزء الأول، بغداد، 1963، ص 78.

(16) المصدر نفسه، الجزء الثاني، بيروت وبغداد، 1968، ص 116.

(17) ورد خطأ في وثيقة بريطانية أن ميلاده كان «حوالي سنة 1880» (أنظر: «العراق في الوثائق البريطانية سنة 1936»، اختيار وترجمة وتحرير نجدة فتحي صفوة، من منشورات مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، التسلسل رقم 68، البصرة، 1983، ص 70).

تشير أغلب المصادر إلى أن ولادة الشبيبي كانت في العام 1889م. ومن أجل التأكد أكثر قابلنا السيد أحمد المظفر، ابن أخت المترجم له، وزوج ابنته بتاريخ العاشر من تشرين الثاني سنة 1991 فذكر السنة نفسها. وهي مذكورة أيضاً في أوراق متفرقة في مكتبة الأسرة. يمكن الرجوع حول الموضع إلى:

يوسف عز الدين، شعراء العراق في القرن العشرين، الجزء الأول، بغداد، 1969،

ص 117؛ علي الخاقاني، شعراء الغري أو النجفيات، الجزء التاسع، ص 3؛ خير الدين الزركلي، الأعلام، المجلد السادس، الطبعة الرابعة، بيروت، 1979، ص 128.

(18) كان أيضاً شاعراً، وباحثاً بشر بأفكاره في وقت مبكر. أنظر على سبيل المثال: «العرفان»، مجلة، صيدا ـ بيروت، المجلد الخامس، الجزء الثامن، 23 آب، 1914، ص 306 - 313.

(19) «الترجمة الذاتية»، الورقة رقم 1. يقول الأستاذ محمد حسين الشبيبي إن السبب في إدخال المترجم له في كتاب هذه المرأة وليس في كتاب رجالي، هو أن تلك المرأة كانت جارة لهم، فضلاً عن كونها إمرأة فاضلة.

(20) آل مصّير: هم من أهالي النجف الذين عرفوا بهذه المهنة.

(21) الدكتور علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء الأول، بغداد، 1969، ص 291.

(22) «الترجمة الذاتية»، الورقة رقم 2؛ يوسف عز الدين، المصدر السابق، ص 117.

(23) جعفر الخليلي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 199.

(24) تتناول كل مرحلة من مراحل الدراسة النجفية التقليدية إطاراً وبرنامجاً محدداً حسب ما يلي:

المقدمات : دراسة علوم العربية والمنطق، بدون مقررات للتدريس تلزم الطالب بقراءتها، بل تعتمد على ما يتفق به الأستاذ مع تلاميذه من كتب قديمة.

السطوح : دراسة الفقه والأصول، مع دراسة بعض كتب المنطق والحساب والهندسة والفلسفة والتربية.

الخارج : دراسة لا يلتزم الأستاذ فيها بكتاب واحد، وينال بعدها الطالب الإجازة العلمية.

للمزيد أنظر: ـ

جعفر آل محبوبة، ماضي النجف وحاضرها، الجزء الأول، بغداد، 1958، ص 379.

(25) مقتبس من:

عبد الرزاق الهلالي، دراسات وتراجم عراقية، بيروت، 1972، ص 13.

(26) «نبذة من سيرة المرحوم الوالد الشيخ جواد الشبيبي»، الورقة رقم 3.

(27) المصدر نفسه، الورقة نفسها.

(28) علي الخاقاني، المصدر السابق، الجزء التاسع، ص 3.

(29) عبد الرزاق الهلالي، المصدر السابق، ص 15.

(30) قصي سالم علوان، المصدر السابق، ص 95.

(31) من علماء الفقه والعربية، ومن مدرسي الأدب الكبار في النجف، ألف في العروض، وبرع في الشعر والنثر، توفي سنة 1325 هـ (1907 - 1908 م).
مقابلة مع الدكتور حسين علي محفوظ في 3 شباط 1992.

(32) مهدي الطباطبائي النجفي الملقب بحر العلوم لغزارة علمه، ولد سنة 1212 هـ (1797 - 1798 م). أنظر:
محسن الأمين، المصدر السابق، المجلد الأول، ص 178.

(33) وهو الملقب بالنجفي، من أعلام عصره المعروفين، توفي سنة 1325 هـ (1907 - 1908 م). أنظر:
محسن الأمين، المصدر السابق، المجلد الأول، ص 179.

(34) هادي بن عباس بن علي بن كاشف الغطاء (1872 - 1941 م)، مؤلف عدد من الكتب في الأدب والبلاغة. أنظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، الطبعة الرابعة، المجلد الثامن، بيروت، 1979، ص 58.

(35) من آل حبوبي الحسني النجفي، ولد سنة 1850 وتوفي سنة 1915 للميلاد، قرض الشعر في شبابه، ثم انصرف إلى تدريس الفقه وأصوله، أفتى بالجهاد ضد البريطانيين في بداية الحرب، أنظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، الطبعة الرابعة، المجلد السادس، بيروت 1979، ص 142.

(36) مجتهد ومدرس معروف، من رجالات النجف وفقهائها وأعلامها البارزين، توفي سنة 1334 هـ (1915 - 1916 م). أنظر: جعفر آل محبوبة، ماضي النجف وحاضرها، الجزء الثاني، النجف، 1378 هـ/ 1958 م، ص 116 - 117.

(37) من أسرة آل كاشف الغطاء المعروفة في النجف، كان يعد في عصر تلمذة الشيخ الشبيبي من أفاضل أساتذة النجف ـ مقابلة مع الدكتور حسين علي محفوظ في 3 شباط 1992.

(38) من الفقهاء الأدباء، ومن فضلاء منطقة واسط، درس في النجف، وهو من آل الحي، فيلقب بالحياوي أيضاً. أنظر: محمد هادي الأميني، معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف خلال ألف عام، النجف، 1384 هـ/ 1964م، ص 143.

(39) الهروي (1255 - 1329هـ/ 1839 - 1911 م) فقيه من مجتهدي الإمامية، سكن النجف وتخرج على يده الكثيرون، له تصانيف عديدة في أصول الفقه وغيرها أنظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، المجلد السابع، الطبعة الرابعة، بيروت، 1979، ص 11.

(40) هو الشيخ فتح الله بن محمد جواد الأصفهاني الملقب بشيخ الشريعة، انتهت إليه الرياسة بعد الشيرازي في أواخر عمره، توفي سنة 1339 هـ. (1920 - 1921 م). أنظر: محسن الأمين، المصدر السابق، المجلد الأول، ص 147.

(41) «ديوان الشبيبي»، عنيت بنشره جمعية الرابطة العلمية الأدبية، القاهرة، 1940، ص 185 - 189.

(42) «العراق» (جريدة)، بغداد، العدد 2981، 19 تشرين الثاني 1985. نشرت الجريدة في عددها هذا لقاء أجراه مع الشبيبي خليل الشيخ علي في العام 1958.

(43) أدهم آل جندي، أعلام الأدب والفن، الجزء الثاني، دمشق، 1958، ص 181.

(44) مقابلة مع محمد حسين الشبيبي في 12 اذار 1992.

(45) جعفر الخليلي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 112,109.

(46) اعتمدنا في تحديد صفات الشبيبي على ما رواه لنا عدد ممن رافقوه وراقبوه عن كثب، أو تتلمذوا على يده، أو ما كتبه هؤلاء عنه، منهم الدكتور حسين علي محفوظ وجعفر الخليلي وعبد الرزاق الهلالي بصورة خاصة.

(47) مقابلة مع الدكتور حسين علي محفوظ في 3 شباط 1992. زوجة الشبيبي هي المرحومة شمسة ابنة التاجر السيد محمد أحمد رحمه الله، وقد توفيت قبله يوم 1964/4/17.

(48) أورد لنا جعفر الخليلي نماذج معبرة عن ذلك في الصفحات 132 - 134 من الجزء الثاني من كتابه «هكذا عرفتهم».

(49) جعفر الخليلي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 127.

(50) «مع رجال الفكر. الشيخ محمد رضا الشبيبي»، ـ «الفكر» (مجلة)، بغداد، العدد الثالث، أيلول 1958، ص 62.

(51) جعفر الخليلي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 137.

(52) «الثقافة الجديدة» (مجلة)، بغداد، العدد الرابع، تموز 1969، ص 283.

(53) «العرفان» (مجلة)، صيدا، المجلد الثاني، الجزء الثامن، 5 تشرين الأول 1910، ص 399.

(54) عن ذلك أنظر:
عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، الطبعة الخامسة، بيروت، 1982، ص 127.
(55) «الرابطة» (مجلة)، النجف، العدد السادس، كانون الثاني، 1976، ص 149.
(56) أكد ذلك معظم الذين قابلتهم، منهم حسين جميل ومحمد حسين الشبيبي والدكتور حسين علي محفوظ وغيرهم.
(57) «نبذة عن سيرة المرحوم الوالد الشيخ جواد الشبيبي»، الورقة رقم 3.
(58) «ديوان الشبيبي»، ص 66 - 68.
(59) «الجمهورية» (جريدة)، بغداد، 28 تشرين الثاني 1967.
(60) مقتبس من: «الرابطة»، العدد السادس، كانون الثاني 1976، ص 161.
(61) التعبير للأستاذ حسين جميل، ويقصد به أن المعارضين في مجلس النواب كانوا يلتفون حوله عادة. مقابلة معه بتاريخ 15 تشرين الثاني 1991.
(62) «الفكر»، العدد الثالث، أيلول 1958، ص 62.
(63) جعفر الخليلي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 121 - 122.
(64) المصدر نفسه، ص 137.
(65) أبرز مجلة ظهرت في مرحلة نشوء الصحافة العراقية غير الرسمية في العراق قبل الحرب العالمية الأولى، كانت «مجلة شهرية أدبية علمية تاريخية» كما ورد في صفحة عنوان عددها الأول الصادر في بغداد في تموز سنة 1911. كانت «لغة العرب» أول مجلة عراقية تتبع الأسلوب المنهجي في مقالاتها بالنسبة لتنظيم الهوامش، وتوضيح الغوامض، وفهرسة المواضع والأعلام وما إلى ذلك من ضوابط منهجية كانت كلها جديدة، غير معروفة بالنسبة للوسط الثقافي العراقي، وكان الفضل الأول في ذلك يعود إلى صاحبها، ورئيس تحريرها الأب أنستاس ماري الكرملي (1866 - 1947) الذي كان على علاقة وثيقة بالشبيبي كما تبين ذلك في مكان آخر من هذه الدراسة. للتفصيل عن «لغة العرب» وعن الكرملي أنظر: ـ
فاهم نعمة إدريس، مجلة لغة العرب. دراسة فكرية ـ سياسية، رسالة ماجستير، كلية الآداب ـ جامعة بغداد، 1989، 265 ص من غير المقدمة والملاحق.
(66) «لغة العرب»، الجزء التاسع من السنة الثانية من ربيع الثاني 1331/آذار 1913، ص 369 - 376.
(67) «العراق»، العدد 2981، 19 تشرين الثاني 1985.

(68) المصدر نفسه.

(69) يقول مير بصرى إنه لازم الشبيبي سنين طويلة، وحضر مجالسه، وأنس بزياراته وأحاديثه، وتمتع بصداقته ومودته، مما يضفي على ما قاله عن الشبيبي بعداً أصيلاً.

(70) أورد الكاتب نماذج من شعره تعزيزاً لأحكامه، لم نر داعياً لإيرادها هنا.

(71) «الزمان» (جريدة)، بغداد، 13 كانون الثاني 1962.

(72) «نبذة عن سيرة المرحوم الوالد الشيخ جواد الشبيبي»، الورقتان 3و4.

(73) «العراق»، العدد 2981، 19 تشرين الثاني 1985.

(74) جعفر الخليلي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 114 - 115.

(75) هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوربي الحديث، نقله إلى العربية الدكتورة زينب عصمت راشد والدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1970، ص 41 - 42.

(76) جعفر الخليلي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 140.

(77) عبد الرزاق الهلالي، المصدر السابق، ص 24 - 25.

(78) «الفكر»، العدد الثالث، أيلول 1958، ص 61 - 62.

(79) عبد الرزاق الهلالي، المصدر السابق، ص 16.

(80) جعفر الخليلي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 137.

(81) «ديوان الشبيبي»، القاهرة، 1940، ص 52؛ «الفكر»، العدد الثالث، أيلول 1958 ص 61 - 62.

(82) اسمه الكامل محمد رشيد رضا (1865 - 1935)، من طرابلس، رحل إلى مصر وتتلمذ على يد محمد عبده، له آراء متنورة في الإصلاح الديني والاجتماعي بشر بها في مجلته «المنار»، للأمير شكيب أرسلان كتاب في سيرته. أنظر: «الموسوعة العربية الميسرة»، المجلد الثاني، بيروت، 1980، ص 1660.

(83) الدكتور وميض جمال عمر نظمي، ثورة 1920. الجذور السياسية الفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق، الطبعة الثانية، بغداد، 1985، ص 66.

(84) للتفصيل عن ذلك أنظر في:

طلال مجذوب، إيران من الثورة الدستورية حتى الثورة الإسلامية، بيروت، 1980، ص 120 - 192؛

Ervand Abrahamian, Iran between two revolutions, New Jersey, 1982, PP.81-97; E.G. Brown, The persian revolution of 1905-1909, second imperssion, London, 1966.

(85) علي الخاقاني، المصدر السابق، الجزء العاشر، النجف، 1956، ص 80 - 81.

(86) أنظر على سبيل المثال في:

«الزهور» (جريدة)، بغداد، العدد 149، 15 ذي الحجة 1329؛ «لغة العرب» (مجلة)، بغداد، الجزء السابع عن محرم 1330/ كانون الثاني 1912، ص 273 - 275, 277.

(87) «البلاغ» (مجلة)، بغداد، العدد التاسع، 1975، ص 44.

(88) تعرف الثورة الدستورية عادة بالمشروطية، ولا سيما في الأدبيات الفارسية، وكذلك في المؤلفات العراقية التي وضعها كتاب عاصروا تلك الثورة.

(89) في النص: هو.

(90) عبد الرزاق الهلالي، المصدر السابق، ص 15.

(91) «البلاغ»، العدد السادس، 1973، ص 21.

(92) الدكتور كمال مظهر أحمد، أضواء على قضايا دولية في الشرق الأوسط، بغداد، 1978، ص 292 - 293.

(93) المدرسة السلطانية كانت في الواقع عبارة عن إعدادية متطورة، تؤهل خريجيها لممارسة مهنة التعليم، ولتبوء الوظائف الحكومية، أو الدخول في المدارس العليا في العاصمة استنبول.

(94) فيصل محمد الأرحيم، تطور العراق تحت حكم الاتحاديين 1908 - 1914، الموصل، 1975، ص 128 - 132؛ الدكتور إبراهيم خليل أحمد، تطور التعليم الوطني في العراق 1869 - 1923، البصرة 1982، ص 47 - 54.

(95) الدكتور بدوي أحمد طبانة، معروف الرصافي، دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية، القاهرة، 1947، ص 5 (من المقدمة التي كتبها محمد رضا الشبيبي للكتاب).

(96) مقتبس من:

عبد الرزاق أحمد النصيري، دور المجددين في الحركة الفكرية والسياسية في العراق 1908 - 1932، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1990، ص 110.

(97) الدكتور بدوي أحمد طبانة، المصدر السابق، ص7؛ قصي سالم علوان، المصدر

السابق، ص 216.

(98) توفيق علي برو، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني 1908 - 1914، القاهرة، 1960، ص 202.

(99) جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ترجمة ناصر الدين الأسد والدكتور إحسان عباس، الطبعة السادسة، بيروت، 1982، ص 20.

(100) عبد الرزاق الهلالي، المصدر السابق، ص 15.

(101) الدكتور شبلي شميل (1850 - 1917) طبيب وعالم طبيعي ومصلح اجتماعي لبناني، تأثر بكبار الفلاسفة والعلماء الماديين الأوربيين، دارويني ـ اشتراكي. للتفصيل عنه أنظر في: مكي حبيب المؤمن وعلي عجيل منهل، من طلائع يقظة الأمة العربية، بغداد، 1981، ص 91 - 111؛ «موسوعة الهلال الاشتراكية»، منشورات دار الهلال، الطبعة الأولى، القاهرة، 1968، ص 300 - 301.

(102) يقصد إبراهيم اليازجي (1847 - 1906)، وهو لغوي وصحفي وشاعر لبناني معروف، حرر في مجلتي «الجنان» و«النجاح»، وأصدر مجلات «الطبيب» و«البيان» و«الضياء»، وأتم شرح ديوان المتنبي الذي بدأه والده الشيخ ناصيف اليازجي. أنظر: «الموسوعة العربية الميسرة»، المجلد الثاني، بيروت، 1980، ص 1976.

(103) يقصد بطرس البستاني (1819 - 1883)، وهو عالم لغوي ضليع، وأديب لبناني معروف اتقن عدة لغات شرقية وأوربية، أصدر صحف «نفير سوريا» و«الجنان» و«الجنة» و«الجنينة»، أصدر أول موسوعة باللغة العربية باسم «دائرة المعارف». أنظر: «الموسوعة العربية الميسرة»، المجلد الأول، ص 370 - 371.

(104) «دليل الجمهورية العراقية لسنة 1960. دائرة معارف علمية تاريخية....» صدر تحت إشراف وزارة الإرشاد، بغداد، 1961، ص 554.

(105) جعفر الخليلي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 118.

(106) «ديوان الشبيبي»، ص 5.

(107) المصدر نفسه، ص 5 - 6.

(108) الدكتور عناد غزوان، شاعرية الشيخ محمد رضا الشبيبي، ـ «البلاغ» (مجلة)، بغداد، العدد الخامس، تشرين الثاني 1966، ص 13.

(109) يوسف عز الدين، في الأدب العربي الحديث. بحوث ومقالات، بغداد، 1967، ص 127 - 128.

(110) يقصد الجزيرة العربية.

(111) «ديوان الشبيبي» ص 53.

(112) المصدر نفسه، ص 21.

(113) المصدر نفسه، ص 38,29.

(114) «الزهور» (مجلة)، القاهرة، 25 آذار 1914، ص 166 - 167. وقع الشبيبي في التباس إذ اعتقد أنه نشر قصيدته هذه «لأول مرة في مجلة الزهور المصرية سنة 1331 هـ - 1912م «كما ذكر ذلك في مستهل قصيدته المنشورة ضمن ديوانه. أنظر: «ديوان الشبيبي»، ص 3.

(115) كانت العلاقات الأبوية لاتزال تحتفظ بقوتها الفاعلة، الحاسمة في ترتيب الروابط داخل العشيرة، مما كان يحول دون ظهور تناقضات اجتماعية حادة إلاّ ما ندر.

(116) نص البيت هو:

يا ماء دجلة عذباً في موارده　　لأنـت فـي كبـد الفـلاح يحمـوم
الفقر فيك مذود وهو مفتقر　　والبحر منك مجرد وهو محروم

الديوان، ص 56).

تأتي اليحموم بمعنى الدخان والأسود من كل شيء.

(117) «ديوان الشبيبي»، ص 56.

(118) في النص: بكم.

(119) «ديوان الشبيبي»، ص 109 - 110.

(120) «العرفان»، المجلد الأول، الجزء العاشر، 4 تشرين الأول 1909، ص 479 - 480.

(121) المصدر نفسه، ص 480.

(122) المصدر نفسه، ص 480.

(123) في النص: أين هي فقط، يقتضي المقام إضافة كلمة التربية.

(124) «العرفان»، المجلد الأول، الجزء العاشر، 4 تشرين الأول 1909، ص 480 - 481.

(125) المصدر نفسه، ص 481.

(126) «العرفان»، المجلد الثاني، الجزء السابع، 8 تموز 1910، ص 352.

(127) للتفصيل عن موقف الاتحاديين من اللغة العربية وآدابها أنظر في:

عبد الرزاق الهلالي، تاريخ التعليم في العهد العثماني، بغداد7　1959، ص 235؛
عبد الرزاق أحمد النصيري، المصدر السابق، ص 178 - 185.

(128) في النص: للغته.

(129) إبراهيم مدكور، مجمع اللغة العربية في عيده الخمسين. مع الخالدين، القاهرة، 1981، ص 131.

(130) دانتي اليجيري (1265 - 1321) شاعر، ومفكر إيطالي معروف، يعد باتفاق الآراء المبشر الأول للنهضة الأوربية الحديثة، فقد كان من أثقف مثقفي عصره، وضع اليد بسرعة على الدور الكبير الذي بوسع اللغة القومية أداؤه في التحريك من أجل التغيير. عن ذلك أنظر: «النهضة»، سلسلة الموسوعة الصغيرة، العدد 37، بغداد، 1979، ص 68 - 80.

(131) للتفصيل عن ذلك أنظر:

الدكتور كمال مظهر أحمد، المفكر ومهمات المرحلة في ضوء تجربة الكوميديا الإلهية لدانتي، ـ «آفاق عربية»، (مجلة)، بغداد، العدد الحادي عشر، تشرين الثاني، 1983.

(132) «العرفان»، المجلد الثاني، الجزء السابع، 8 تموز 1910، ص 351.

(133) «الزهور»، 25 آذار 1914، ص 166.

(134) «لغة العرب»، الجزء الثاني عشر عن جمادى الآخرة 1330/ أيار 1912 ص 457 - 464.

(135) يأتي الناموس بمعنى القانون. في «مختار الصحاح/ 680»: «وأهل الكتاب يسمون جبريل عليه السلام الناموس».

(136) «لغة العرب»، الجزء الثاني عشر عن جمادى الآخرة 1330/ أيار 1912، ص 458 - 459.

(137) المصدر نفسه، ص 464.

(138) جورج برنارد شو (Shaw George Bernard) (1856 - 1950) اشتراكي فابي، ومؤلف مسرحي، وأديب ساخر من أكبر أدباء الإنكليز (إيرلندي الأصل)، ترك أربعة وعشرين مجلداً، كتب في الاشتراكية والفقر والعدل والمساواة والدين والموسيقى وغيرها من قضايا العصر الهامة. أوصى أن تحرق جثته بعد الموت، وينثر رمادها على عدد من الحدائق. أنظر: «موسوعة الهلال الاشتراكية»، ص 305 - 324.

(139) رابندرانات طاغور (1861 - 1941) شاعر وفيلسوف هندي، سليل أسرة بنغالية ثرية، مفكر إنساني، درس القانون في إنجلترا، أسهم في الحركة الوطنية الهندية، وتغنى لها وبها شعراً، ركز على التعليم بصورة خاصة، من أكثر أدباء العالم إنتاجاً، منح

جائزة نوبل للأدب سنة 1913. أنظر: «الموسوعة العربية الميسرة»، المجلد الثاني، ص 1147.

(140) «ديوان الشبيبي»، ص 90.

(141) يوسف عز الدين، في الأدب العربي الحديث، ص 145.

(142) في النص: دينكم.

(143) «ديوان الشبيبي»، ص 57. ورد ذلك ضمن قصيدته «على ضفاف دجلة» التي نشرها لأول مرة في جريدة «البرق» البيروتية.

(144) «ديوان الشبيبي»، ص 82.

(145) «اليوم والغد وما بعد الغد» هو عنوان مختصر لأصل عنوان القصيدة.

(146) «العرفان»، المجلد الثالث، الجزء التاسع، 24 أيلول 1911، ص 814 - 816.

(147) عن ذلك بالنسبة لأوربا في عصر النهضة أنظر:

«النهضة»، ص 37 - 38, 52 - 55.

(148) «العرفان»، المجلد الثاني، الجزء السابع، 8 تموز 1910، ص 351.

(149) «العرفان»، المجلد الثالث، الجزء الثالث والعشرون، 22 تشرين الثاني 1911، ص 924.

(150) «المقتطف» (مجلة)، القاهرة، يونيو 1911، ص 554.

(151) عمر أبو النصر، العراق الجديد، بيروت، 1937، ص 228.

(152) يقصد بهم الفلكيين.

(153) في النص المتحفات.

(154) «العرفان»، المجلد الثالث، الجزء الثالث والعشرون، 22 تشرين الثاني 1911، ص 924.

(155) المصدر نفسه، ص 924.

(156) غالباً ما كان يستخدم في كتاباته العلمية مصطلح الكهرباء، والكهربائية، مما يدلل على إعجابه الشديد بالمخترع الجديد الذي أضفى طعماً خاصاً على حياة الإنسان، وساعد كثيراً على تطور حضارته.

(157) «العرفان»، المجلد الثالث، الجزء الثالث والعشرون، 22 تشرين الثاني 1911، ص 924.

(158) «ديوان الشبيبي»، ص 72 - 73.

(159) «المقتطف»، مايو، 1911، ص 553 - 554.

(160) جوردانو برونو (J.Brunno) (1548 - 1600) عالم فلكي إيطالي ثائر، أيد نظرية كوبرنيكوس حول المجموعة الشمسية وطورها، أكد وجود مجموعات شمسية أخرى لا ترى بالعين المجردة، وتوقع وجود الحياة فوقها، أحرق بأمر من الكنيسة. أنظر: «النهضة»، ص 53 - 54, 63.

(161) «العرفان»، المجلد الثاني، الجزء السابع، 8 تموز 1910، ص 349.

(162) في النص: في الثاني.

(163) في النص: في الأول.

(164) «العرفان»، المجلد الثاني، الجزء السابع، 8 تموز 1910، ص 351.

(165) فرانسيس بيكن (F.Bacon) (1561 - 1626) عالم وفيلسوف وأديب بريطاني كبير، صاحب المنهج التجريبي الحديث الذي بدأ به عهد العلم الطبيعي القائم على الملاحظة والتجربة لا على القياس، والمعرفة عنده يجب أن تكون ممكنة التطبيق، مفيدة النتائج. أنظر: «الموسوعة العربية الميسرة»، المجلد الأول، ص 469 - 470. لا شك في أن الشبيبي كان متأثراً بفرانسيس بيكن في آرائه حول النظرية والتطبيق.

(166) رينيه ديكارت (R.Descartes) (1596 - 1650) فيلسوف وعالم رياضي فرنسي شهير، صاحب العديد من النظريات الرياضية الحديثة، ومؤسس مدرسة الهندسة التحليلية، جمع بين الشك والوجود (اليقين)، وهو القائل «أنا أفكر، إذن فأنا موجود»، ومن هذا اليقين انتقل إلى إثبات وجود الله، ومن ثم إثبات وجود العالم، وهو يفصل بين الفكر والمادة اللذين لا يمكن جمعهما إلاّ بإرادة الله. أنظر: «الموسوعة العربية الميسرة»، المجلد الأول، ص 834. أغلب الظن أن الشبيبي كان متأثراً بآرائه في جمعه بين العلم والدين.

(167) غاليلو غاليلي (G.Galilei) (1564 - 1642) عالم فلكي ورياضي وطبيعي إيطالي معروف، وضع أسس العلم التجريبي الحديث، مخترع أول منظار فلكي ساعد على تصحيح أخطاء شائعة، أيد نظرية دوران الأرض حول الشمس، أنظر: «الموسوعة العربية الميسرة»، المجلد الأول، ص 597.

(168) إسحق نيوتن (I.Newton) (1643 - 1727) عالم إنكليزي معروف في الفيزياء والرياضيات، من أساتذة جامعة كمبردج، صاحب قانون الجاذبية العام والعديد من النظريات الضوئية. أنظر: «الموسوعة العربية الميسرة» المجلد الثاني، ص 1872.

(169) «العرفان»، المجلد الثاني، الجزء السابع، 8 تموز 1910، ص 350.

(170) بطليموس (Ptolemaios) (القرن الثاني الميلادي) عالم فلك ورياضيات وفيزياء، وجغرافي ومؤرخ يوناني شهير نشأ في الاسكندرية في الربع الثاني من القرن الثاني الميلادي، صاحب نظريات مهمة عن حركات الكواكب. أنظر: «الموسوعة العربية الميسرة»، المجلد الأول، ص 381.

(171) «المقتطف»، يونيو 1911، ص 554.

(172) «ديوان الشبيبي»، ص 50.

(173) «العرفان»، المجلد الثاني، الجزء الثامن، 5 تشرين الأول 1910، ص 399. في الديوان، ص 196.

(174) «ديوان الشبيبي»، ص 119.

(175) «العرفان»، المجلد الثاني، الجزء الرابع، 11 نيسان 1910، ص 195.

(176) «المقتطف»، يونيو 1911، ص 555 - 556.

(177) «ديوان الشبيبي»، ص 94 - 95.

(178) «لغة العرب»، الجزء السادس عن ذي القعدة وذي الحجة 1329/ كانون الأول 1911، ص 226.

(179) اختاره فاهم نعمة إدريس ثالث محرر في «لغة العرب» بعد الأب أنستاس ماري الكرملي ومعاصره كاظم الدجيلي، فخصه مكانة متميزة في رسالته عن المجلة. للتفصيل أنظر: فاهم نعمة إدريس، المصدر السابق، ص 90 - 96.

(180) بدأ تبادل الرسائل بين الكرملي والشبيبي قبل الحرب العالمية الأولى، واستمر بعدها. تحتفظ «دار صدام للوثائق» بعدد من تلك الرسائل التي تؤشر العلاقة الروحية والعلمية العميقة، والثقة المتبادلة بين القطبين، ترد إشارات إلى جانب منها لاحقاً.

(181) «لغة العرب»، الجزء السادس عن ذي القعدة وذي الحجة 1329/ كانون الأول 1911، ص 217 - 226.

(182) المصدر نفسه، ص 217.

(183) المصدر نفسه، ص 226.

(184) المصدر نفسه، الجزء الأول عن رجب 1330/ حزيران 1912، ص 19.

(185) المصدر نفسه، ص 19 - 24.

(186) لويس ماسينيون (1883 - 1962) مستشرق فرنسي معروف، متخصص في الدراسات الإسلامية، صاحب عدد كبير من المؤلفات، أحد كتاب «دائرة المعارف الإسلامية» البارزين، صاحب مجلتي «العالم الإسلامي»، و«الدراسات الإسلامية». عنه أنظر في: «الموسوعة العربية الميسرة»، المجلد الثاني، ص 1624.

(187) «لغة العرب»، الجزء السابع من السنة الثانية عن صفر سنة 1331/ كانون الثاني 1913، ص 300 - 302.

(188) المصدر نفسه، الجزء التاسع من السنة الثالثة عن ربيع الثاني 1332/ آذار 1914، ص 461.

(189) يقصد ياقوت الحموي (1178 - 1228)، صاحب «معجم البلدان» و«إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب».

(190) «لغة العرب»، الجزء التاسع من السنة الثالثة عن ربيع الثاني 1332/ آذار 1914، ص 461.

(191) المصدر نفسه، ص 461 - 465.

(192) المصدر نفسه، ص 462، الهامتان 1 و2.

(193) للأب أنستاس ماري الكرملي أكثر من تقييم رفيع للشيخ الشبيبي، فلقد كان من أشد المعجبين بأفكاره العصرية، وبلغته الرصينة، وبشاعريته الفريدة. في تعليق له على قصيدة الشبيبي التي كتبها بمناسبة غرق الباخرة تيتنيك، والتي افتتح بها عدد آب 1912 من «لغة العرب» قال الكرملي قولاً لم يقله في أحد من كتاب مجلته:

«قصيدته بديعة غراء، ألفاظها لألىء عذراء، درية المباني، عصرية المعاني، تستنزل كل شاعر في الميدان، وتعجزه عن المجاراة في مثل هذا البيان، كذا فليكن الشعر المتين، وفي مثله ليتنافس المتنافسون». وفي صفحة «عناوين المضامين» سمى الكرملي «تيتنيك» «قصيدة فريدة». أنظر: «لغة العرب»، الجزء الثاني عن شعبان 1330/ آب 1912، ص 41-43 والغلاف الداخلي الأول. القصيدة في «ديوان الشبيبي»، ص 169 - 171.

(194) «لغة العرب» الجزء التاسع من السنة الثانية عن ربيع الثاني 1331/ آذار 1913، ص 371.

(195) جعفر الخليلي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 122.

(196) المصدر نفسه، ص 121.

(197) المصدر نفسه، ص 137.

(198) الدكتور عناد غزوان، شاعرية الشيخ محمد رضا الشبيبي، ص 11.

(199) في النص: فإذا.

(200) «العرفان»، المجلد الثاني، الجزء الرابع، 11 نيسان 1910، ص 195.

(201) «النهضة»، ص 67.

(202) «العرفان»، المجلد الثاني، الجزء الرابع، 11 نيسان 1910، ص 195.

(203) المصدر نفسه، ص 196. لم ترد هذه الأبيات في «ديوان الشبيبي».

(204) «ديوان الشبيبي»، ص 40.

(205) المصدر نفسه، ص 41.

(206) عبد الرزاق أحمد النصيري، المصدر السابق، ص 183.

(207) الدكتور عماد عبد السلام رؤوف، نشأة التنظيمات السياسية في آخر العصر العثماني، ـ «دراسات في التاريخ والآثار» (مجلة)، بغداد، العدد الثاني، 1982، ص 127.

(208) تحسين العسكري، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية، الجزء الأول، بغداد، 1936، ص 31، سليمان فيضي، في غمرة النضال، بغداد، 1952، ص 116.

(209) محمد مهدي البصير، تاريخ القضية العراقية، الطبعة الثانية، لندن، 1990 ، ص 29.

(210) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الصحافة العراقية، الطبعة الثالثة، صيدا، 1971، ص 71-72.

(211) أوردت زاهدة إبراهيم 30 تشرين الأول خطأ، كما أخطأت في تأكيدها على أن مجموع ما صدر منها بلغ 13 عدداً. أنظر: زاهدة إبراهيم، كشاف الجرائد والمجلات العراقية، من منشورات وزارة الأعلام، بغداد، 1976، ص 179؛ زاهدة إبراهيم، دليل الجرائد والمجلات العراقية، دار النشر والمطبوعات الكويتية، 1983، ص 254.

(212) «لغة العرب»، الجزء الخامس من السنة الثالثة من ذي الحجة 1331/ تشرين الأول 1913، ص 269.

(213) العدد الأول من «النهضة» محفوظ في مكتبة المجمع العلمي العراقي.

(214) «لغة العرب»، الجزء السابع من السنة الثالثة عن صفر 1332/ كانون الثاني 1914،

ص 391.

(215) المصدر نفسه، ص 392.

(216) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الصحافة العراقية، ص 72.

(217) توفيق علي برو، المصدر السابق، ص 490.

(218) تحولت بعد ثورة العام 1908 بمدة إلى حزب، وذلك بقرار عن أول مؤتمر للجمعية عقدته بعد انتصار الثورة.

(219) «ديوان الشبيبي»، المقدمة، الصفحة هـ.

(220) في النص: لأن.

(221) دار صدام للمخطوطات، رقم الملف 34727، `عنوان الملف: ملفة محمد رضا الشبيبي، رسالتان من الشبيبي إلى أنستاس الكرملي، الرسالة المؤرخة 20 رجب 1330هـ.

(222) المصدر نفسه، الرسالة المؤرخة 15 شوال 1330هـ.

(223) عن ذلك أنظر:

قصي سالم علوان، المصدر السابق، ص 13.

(224) مصطلح كان يطلق على الأقسام الجنوبية والوسطى من العراق، (ولاية البصرة والأطراف الجنوبية لولاية بغداد)، تمييزاً عن مصطلح عراق العجم.

(225) «الزهور»، 25 آذار 1914، ص 166.

(226) أدهم آل جندي، المصدر السابق، ص 182.

(227) عبد الرزاق الهلالي، دراسات وتراجم عراقية، ص 17.

(228) «دليل المملكة العراقية لسنة 1935 - 1936 المالية»، بغداد، 1935، ص 733.

(229) نجم عبد الله الجبوري، الشبيبي أستاذ القومية، مخطوط محفوظ في المجمع العلمي العراقي، ص 8.

(230) أحمد حامد الشربتي، الشبيبي في حكمه وأمثاله ونماذج من أغراضه الشعرية، بغداد، 1986، ص 5.

(231) «الترجمة الذاتية»، الورقة رقم 2.

(232) «الزهور»، آذار 1914، ص 167. في الديوان ص 4.

(233) هكذا كانت معروفة يومذاك، ولا سيما في الأوساط الرسمية، وكان ذلك قياساً على الباب العالي، وإشارة إلى عظمة الدولة التي كانت حينئذٍ في الواقع مجرد رجل

مريض حسب تعبير القيصر الروسي.

(234) «ديوان الشبيبي»، ص 3.

الفصل الثاني

النشاط الفكري والسياسي لمحمد رضا الشبيبي
من بداية الحرب العالمية الأولى حتى نهاية ثورة العشرين

الفصل الثاني

النشاط الفكري والسياسي لمحمد رضا الشبيبي
من بداية الحرب العالمية الأولى حتى
نهاية ثورة العشرين

تقييم محمد رضا الشبيبي للحرب العالمية الأولى:

احتل العراق مركزاً مهماً في التفكير الاستعماري منذ بدايات توجه الدول الأوربية صوب الشرق الأوسط، حين كان البلد يخضع لسيطرة الدولة العثمانية التي كانت تلك الدول ترنو إلى كل ممتلكاتها الزاخرة بالإمكانات الاقتصادية والسوقية المغرية.

وعند دخول الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى إلى جانب دول الوسط أتت لبريطانيا الفرصة الثمينة التي كانت تتحينها من أجل تحقيق خططها بالنسبة للعراق، فجهزت في السادس من تشرين الثاني سنة 1914 حملتها العسكرية المعروفة على جنوب العراق بعد مرور يوم واحد فقط على إعلان لندن الحرب ضد الباب العالي، واحتلت في اليوم نفسه الفاو لترفع العلم البريطاني محل الهلال العثماني على تلك المدينة[1]، ولتبدأ بذلك مرحلة جديدة يعيشها العراق في ظل الحرب وانعكاساتها على الحياة الاجتماعية

والاقتصادية والسياسية لشعبه عموماً.

جاء تحول العراق في الحرب العالمية الأولى إلى إحدى ساحات الحرب المهمة في ميدان الشرق الأوسط بحكم ارتباطه بالدولة العثمانية[2] التي دخلت الحرب إلى جانب ألمانيا أولاً، وتفكير بريطانيا بحماية مصالحها في الهند، والسيطرة على العراق ثانياً. لذا كان موقف الواعين من العراقيين عموماً ينصب في الرغبة من أجل إبعاد البلاد من ويلات حرب لم تكن لها فيها أي مصلحة من قريب أو بعيد[3].

عبر محمد رضا الشبيبي عن معارضته لدخول الدولة العثمانية الحرب، كما حدد بصورة صحيحة آثارها المدمرة، فهي في نظره «شوهاء فوهاء»، أشعلتها «الرغبة في السيادة والثراء»، وبذلك عبر عن فهم صحيح وعميق لأسباب تلك الحرب ونتائجها التي غابت عن أكثر الشرقيين وعياً إلّا ما ندر، فلم ير فيها حرباً نشبت عن مصرع ولي عهد النمسا، إنما صراع بين القوى الكبرى، ومصالحها الاستعمارية، فأطلق عليها اسم «حرب الأمم»، وكان يقصد بها حرب الدول الكبرى، فقد استخدم «الأمم الكبرى» بهذا المعنى[4]. ففي قصيدة له نظمها في ربيع الثاني سنة 1333 للهجرة، الموافق لشهر شباط سنة 1915 للميلاد[5] حلل الشبيبي أسباب الحرب، وأهدافها بدقة تنم عن بعد نظر سياسي، وعن اطّلاع كاف على طبيعة العلاقات الدولية يومذاك. فهي حرب ليست «ابنة آنها»، ولا هي «نشأت عن قتل ولي العهد»، إنها نتيجة تخطيط من «الأمم الكبرى» التي «عبأت الجندا»، وجعلت «الدنيا مكرا»، وهي حرب شاملة، لا منجى لأحد منها «فلا حرها يطفا، ولا هو يتقى» ولا «نارها كانت سلاماً، ولا بردا»، وخرابها «سيغدو الغرب مهد ظهوره» كما «كان للعمران قبلئذٍ مهدا». وهو يتحسر بحرارة على ضحايا الحرب، وهم «شباب من البيض الزواهر» ممن ليس «لهم من العمر إلاّ عشرين» عاماً، يمشون «ذلل

الأعناق»، عارفين أنهم يدفع «بهم للموت، أو بهم يفدى»، فدى «لأكاليل الملوك» و«طالبي الفتح، وحارسي المجد». ومنذ ذلك الوقت المبكر توقع الشبيبي أن حرباً هذه طبيعتها سوف تؤدي إلى أن «يصبح شعب شامخاً أنف عزه» وآخر «يصبح صاغراً دون خدا»(6).

إن ما ورد في قصيدة «طلائع الحرب» يعبر عن وعي نادر بالنسبة لزمانه، فقلما أدرك مفكر عربي كنه حرب استعمارية عالمية من حيث الدوافع، وتوقع نتائجها منذ البداية مثل الشبيبي. وحتماً أنه عبر عن أفكار مشابهة، وربما أعمق منها أيضاً في مجالسه الخاصة، وفي مجالس النجف العامة التي لم يسعفنا الحظ أن نعرف تفصيلاتها، فلم يبق على قيد الحياة من روادها من كان بوسعنا مقابلته.

لم يقتصر موقف محمد رضا الشبيبي من أحداث الحرب العالمية الأولى على الجانب الفكري وحده، بل أنه تبنى أيضاً مواقف عملية مع اكتواء وطنه بنارها بصورة مباشرة.

مواقف محمد رضا الشبيبي من وقائع الحرب وإفرازاتها داخل العراق حتى أواسط العام 1916:

لم يكن بوسع شخص بمستوى محمد رضا الشبيبي الفكري والاجتماعي أن يبقى بعيداً عن أحداث كتلك التي جلبتها الحرب العالمية الأولى معها إلى العراق بعد أن تحول إلى واحد من أهم ميادينها في الشرق الأوسط. كان الشبيبي من بين الشباب العراقيين الذين أدخلهم العثمانيون في مدرسة ضباط الاحتياط التي أنشأتها رئاسة أركان الجيش في بغداد أثناء استعدادات الباب العالي للدخول في الحرب(7). أغلب الظن أن ذلك كان في أيلول 1914، فقد ورد في رسالة بعثها محمد باقر الشبيبي إلى الأب أنستاس ماري الكرملي بتاريخ السابع عشر من أيلول ذلك العام أن أخاه محمد رضا «ممن

شملهم (البلاء الحسن)، أي أنه مطلوب من قبل الحكومة العسكرية شأن سائر الطلاب»[8].

لم يكن الشبيبي مرتاحاً من هذا الإجراء، خصوصاً وأن التدريس في المدرسة المذكورة كان يجري باللغة التركية، وأن أساتذتها الذين كان جلّهم من الضباط الترك، كلهم تصرفوا بأسلوب خشن مع الطلاب[9]. تزامن ذلك مع دخول الدولة العثمانية الحرب، ومع تقدم القوات البريطانية في الجنوب، واحتلال البصرة يوم الثاني والعشرين من تشرين الثاني 1914، ومن ثم التقدم شمالاً، مما أثار حفيظة العراقيين باعتباره خطراً يهدد تقاليدهم، ومقدساتهم، الأمر الذي دفع قطاعاً واسعاً من طلائعهم إلى الانتقال إلى خندق العثمانيين، وأعلن العلماء الأعلام الجهاد لردع الغزاة[10].

استجاب الشبيبي للدعوة بحماس، خصوصاً أن الذين أصدروا فتاوى الجهاد كانوا ممن نهل من أفكارهم، أو تتلمذ على أيديهم بصورة مباشرة[11]، كما رأى في صد البريطانيين في جنوب العراق حماية للحجاز والشام[12]. إنه عدّ الأمر في كل الأحوال فرصة مؤاتية لتلبية ما رأى فيه واجباً[13]، وللتخلص من مدرسة ضباط الاحتياط التي كان يرى فيها معتقلاً، فأدى دوراً كبيراً في إقناع القيمين على شؤون الدولة في العراق لإعفاء الشبان العراقيين من الدراسة في تلك المدرسة. يقول الهلالي عن ذلك:

«فقد تسنى للشيخ الشبيبي الاتصال بالوالي سليمان نظيف بك. . . واقترح عليه. . . أن يلتحق هؤلاء الطلبة بفرق المجاهدين المتطوعين في تلك الحرب، فقبل اقتراحه هذا لوجاهته»[14].

توالى تقدم القوات البريطانية التي دخلت القرنة يوم التاسع من كانون الأول 1914[15]، كما نقلت فعالياتها إلى داخل أراضي عربستان في إيران ضمن مخطط دقيق لضمان سلامة الجناح الأيمن للقوات المتقدمة شمالاً داخل

الأراضي العراقية، فضلاً عن حماية مصالح بريطانيا النفطية[16]. عقد ذلك مهمة العثمانيين، وجعلها متشعبة، فمن جهة كان عليهم تحشيد قواهم لوقف الزحف البريطاني، وتعزيز تلك القوى بمتطوعين عراقيين، ومن جهة أخرى كان عليهم الحيلولة دون نجاح البريطانيين في فتح ثغرات يتغلغلون من خلالها للنيل منهم عبر الأراضي الإيرانية. تطلب ذلك من العثمانيين الاتصال بالعشائر الكردية القاطنة في تلك المناطق لكسب تأييدها، أو على الأقل لضمان جانبها، خصوصاً وأنهم نجحوا في حشد متطوعين كرد، قدرت وثائق وزارة الحربية البريطانية عددهم بحوالي ثلاثة آلاف متطوع[17] تجمعوا مع حوالي اثني عشر ألف متطوع عربي في الشعيبة لصد البريطانيين[18].

كان محمد رضا الشبيبي أبرز وجه وقع اختيار العثمانيين عليه للالتحاق «ببعثة عسكرية مرسلة إلى عشائر الأكراد في الجنوب الشرقي من العراق لمنع الإنكليز وأعدائهم من التغلغل، أو التسلل إلى تلك الجهة من منطقة البصرة، أو من ناحية الأهواز»[19]. لم يرد ذكر في أي من المصادر، والمراجع التي بين أيدينا لتاريخ هذا الاختيار وتأليف البعثة، لكن يبدو واضحاً من قصيدته التي قالها أثناء البعثة أنه كان بعد احتلال البريطانيين للبصرة، وبالتحديد في أواخر العام 1914، فقد كتب تعليقاً في صدر قصيدته تلك يقول فيه «اتفقت إثر إعلان الحرب العامة سنة 1333 هـ ـ 1914م، وكان في بعثة عسكرية على حدود العراق الشرقية»[20]. ويبدو من مضمون القصيدة نفسها أن البعثة تزامنت مع عز الشتاء.

اتجهت البعثة، التي ضمت إلى جانب الشبيبي عدداً من الضباط ورجال الدين، عن طريق مدينة بدرة إلى المنطقة الجبلية الواقعة شرقي العراق، وهناك اجتمع الشبيبي، كما يروى ذلك نفسه، بـ «زعيم الأكراد الذي استجاب إلى الطلب، وتعهد بأن يقف سداً منيعاً دون تسرب البريطانيين»[21].

عند وصفه لمهمته تلك يتحدث الشبيبي بلغة المؤرخ، الباحث عن المنطقة التي زارها، فيقول عنها:

«وقد تم الاجتماع بهذا الأمير الكردي في مخيم له على ضفاف واد عريض يسمىٰ (باكسا)، وكانت ضفافه خصبة مزدهرة، وهذا الوادي و(وادي بادرايا[22]) الذي قبله ينحدران من سفوح الجبال الشرقية، أو الكردية المذكورة، ويمران في السهول حتى مصبهما في نهر دجلة، وهما تابعان إدارياً للواء العمارة. . . وقد سرنا على ضفاف الواديين من سفوح الجبال حتى السهول المنتهية بشواطىء دجلة، ولا تخلو كتب البلدانيين من ذكر (بادرايا وباكسايا)، ومن ذلك معجم البلدان لياقوت»[23].

كما أنه يصف المنطقة وصفاً شاعرياً جميلاً، ويرسم بريشة فنان عبقري شواهق جبالها المكللة بالثلج «كما كللت هام الجبابر تيجان»، وذلك في قصيدة مطولة اختار لها عنواناً مناسباً هو «حلوان بعد العراق»[24]، فإن حلوان هو الاسم التاريخي للمنطقة، ولمدينتها الشهيرة بالاسم نفسه التي كانت تقع بين قصر شيرين وكرند، في المحل المسمى الآن سربل (سه ربول) زهاب (زه هاو)[25].

بعد أن مكث الشبيبي مدة قصيرة في تلك المنطقة تلقى برقية تدعوه إلى مرافقة القيادة العامة للقوات التركية المكلفة باسترداد البصرة، وكانت تلك القيادة بمن معها من قوات عسكرية قد وصلت إلى الناصرية، فما كان على الشبيبي إلاّ الالتحاق بها بالرغم من بعد المسافة وسوء الأحوال، حيث كانت أغلب مناطق العراق الوسطى والجنوبية مغمورة بالمياه في فيضان قلما شهد العراق مثيلاً له، بحيث «أصبحت اليابسة آنذاك وكأنها بحر لا ساحل له»، وقد اضطر الشبيبي أن يخوض الماء على ظهر جواده حتى وصل إلى مدينة الكوت، ليواصل رحلته للالتحاق بمقر قيادة الجيش التركي وقائدها سليمان العسكري،

وكانت على شاطىء الفرات في الناصرية على أهبة الحركة إلى الشعيبة عن طريق هور الحمار[26].

عند وصول الشبيبي إلى مدينة الناصرية استقبله الأتراك في زورق القائد العام، لتبدأ بعده رحلة القائد التركي سليمان العسكري وقواته التي تحملها السفن والزوارق البخارية منحدرة إلى سوق الشيوخ، ومنها إلى منطقة الأهوار والبطائح المشهورة.

ومن الجدير بالإشارة أن تلك السفن والزوارق قد اجتازت المناطق التي أشرنا إليها بمحاذاة سدود زراعية أقامها الفلاحون، وقد توهم الأتراك «لسوء فهمهم وتقديرهم للأمور» حسب تعبير الشبيبي، بأن الفلاحين قد أقاموا تلك السدود لسد الطريق بوجههم، وعرقلة تحركهم، وقد دفعهم «هوسهم وعصبيتهم» إلى التهيؤ للاشتباك بالسلاح مع أولئك الفلاحين. بادر الشبيبي في تلك اللحظات إلى معالجة سوء الفهم بأعصاب هادئة، فذهب إلى الفلاحين طالباً منهم بلطف أن يخلوا الطريق للزوارق التركية بعد أن أفهمهم بأن هذا الجيش «ذاهب للدفاع عن العراق، ورد الغزاة البريطانيين، وتحرير البصرة منهم، وأن القائد العام للجيش ضمن هذه القوة العسكرية». وعندها فقط استجاب الفلاحون وفتحوا الطريق[27]، وانحدرت السفن في طريقها إلى ساحل البطائح، ومنه إلى معسكر النخيلة[28] حيث كانت هناك قوات تركية، وفرق المجاهدين أو المتطوعين العراقيين، استعداداً للهجوم الشامل الذي أعدت له القيادة العثمانية لطرد البريطانيين من المناطق الجنوبية التي احتلوها، ولا سيما من البصرة[29].

منذ تلك اللحظة، وحتى نهاية معركة الشعيبة في أواسط نيسان سنة 1915 رافق محمد رضا الشبيبي القيادة العثمانية المشرفة على الهجوم، وشخص القائد سليمان العسكري، لينتقل بعد ذلك إلى الناصرية بصورة مؤقتة[30]. ومرة

أخرى يسجل لنا الشبيبي ملاحظات مركزة، ومهمة تنم عن دقة الترصد والمتابعة، بعضها غير معروفة، مما يجعل من تلك الملاحظات مصدراً أصيلاً نادراً يساعد على توسيع معلوماتنا عن وقائع معركة الشعيبة، فضلاً عن أنها تؤيد معظم المعلومات الأخرى المنشورة عنها حتى الآن، سوى ما يتعلق منها بعدد المهاجمين المتطوعين العراقيين الذين يقدرهم الشبيبي بثلاثين ألفاً، وهو رقم مبالغ فيه في حالة مقارنته بالأرقام الواردة في المصادر العراقية والبريطانية[31].

يتحدث لنا الشبيبي في ترجمته الذاتية[32] عن وجود ضباط ألمان مع سليمان العسكري في قيادة القوات المحتشدة، إذ يقول: «ولم يخل مركز القيادة يومئذٍ من ضباط ألمان»، ويصف وضعهم قائلاً إنهم كانوا «يغلب عليهم ضرب من الوجوم والحيرة».

يحدد الشبيبي، في الوقت نفسه، النواقص الكبيرة التي كان يعاني منها الجيش التركي وقيادته. فعن سوء التموين، وهو عنصر أساس في التحرك العسكري، يقول «وكانت بعض الزوارق البخارية المذكورة تقطر سفناً شراعية موسوقة بخبز عفن، مسود تعافه النفس. وحسبك هذا دليلاً على حالة المؤن والتموين».

وعلى الرغم من أن محمد رضا الشبيبي كان دوماً رجل قلم وفكر، لا رجل سيف وبندقية، إلاّ أنه ترك لنا وصفاً دقيقاً للوضع النفسي للقائد العثماني سليمان العسكري، ولأخطائه التكتيكية والسوقية، وحدد لنا السبب الحقيقي لانتحاره، وهو موضوع لم يتطرق إليه أحد على حدّ علمنا. وقد آثرنا أن ننقل من ترجمته الذاتية حرفياً ما سجله بخصوص هذه القضايا نظراً لأهميته التاريخية، ولا سيما بالنسبة لمعركة الشعيبة ونتائجها، وهي، كما لا يخفى، من المواقع المهمة التي شهدتها الساحة العراقية في سنوات الحرب العالمية

الأولى، كما أن لها مغزى كبيراً بالنسبة لتاريخ العراق المعاصر باعتبارها أول تصد عملي أبداه العراقيون لوقف زحف الغزاة البريطانيين، كما وشهدت الشعيبة أيضاً أول صورة للنضال العربي ـ الكردي المشترك ضد الاستعمار[33]. يقول الشبيبي:

«وكان القائد العام سليمان العسكري قد أمر بحشد الجيش فعلاً في الخطوط الأمامية من ميدان الشعيبة وذلك في خطة مرتجلة، غير مسبوقة بتبصر وروية. وأمر بمهاجمة معاقل البريطانيين فيها، ولم يعلم بحصانتها، ومناعتها إلّا بعد فوات الوقت. وقد أسفر الهجوم عن خيبة أمل مريرة، وتراجع الجيش بخسائر فادحة[34]. ومن ثم انتحر القائد العام في مأساة معروفة. وكان اليأس من نجاحه في إدارة رحى المعركة سبباً في انتحاره. ولو بقي هذا القائد حيّاً لأسر فيمن أسر من ضباط وجنود في تلك المعركة الضارية. فإن الجيش البريطاني شن هجوماً مقابلاً طوق فيه ذلك الميدان. أما المجاهدون، أو الذين سموا كذلك من أفراد القبائل، فكانوا، فيما شاهدناه، أسرع من غيرهم إلى الهزيمة، وقد طورد المنهزمون بسيارات مصفحة ظهرت لأول مرة في حرب العراق، حتى قاربت قاعدة الجيش التركي في النخيلة، وكانت تطلق نيرانها الحامية في أقفية المتراجعين من أفراد الجيش والمجاهدين... وكان أمير اللواء سليمان العسكري يعتمد في ميدان الشعيبة على قائد باسل مثله اسمه محمد بك[35] عهد إليه بإدارة رحى المعركة، وقيادة الهجوم في الخطوط الأمامية، الهجوم الذي استمر يومين بدون انقطاع، وبدون جدوى أيضاً، فاستدعاه سليمان العسكري من خط النار والحرب الدائرة بعنف، وسأله عن مصير الهجوم، فكان الجواب، وكنت[36] اسمع، إن معاقل العدو في غاية المنعة ومنذ تلك اللحظة قرر القائد العام سليمان العسكري الكف عن مواصلة الهجوم، وأمر تحت جنح الظلام بالتقهقر إلى قاعدة الجيش في غابة البرجسية الواقعة في ضواحي مدينة الزبير، والغابة كلها من شجر الأثل والطرفاء»[37].

وبأسلوب مقارب من ذلك يتحدث الشبيبي عن واقعة الشعيبة في ديوانه، فيرى فيها[38] «أشهر أيام الحرب العراقية، إن لم يكن أعظمها، عند العراقيين»، فقد كانت «مناجزة شديدة هزم في آخرها العثمانيون، وتركوا نصف ذلك الجيش بين قتيل وجريح وأسير وفقيد»[39]. وقد جسد لنا وقائع تلك الموقعة في قصيدة سماها «يوم الشعيبة»[40]، تحدث فيها عن معاناة الجيش العثماني الذي «أقام ثلاثاً[41] في خنادقها خالي الحقائب من ماء، ومن زاد» رغم موفور «ماء الفراتين وحبهما». وهو يبلغ الذروة حين يحدد سبب ذلك الخلل، فإن «أقواتنا في بطون الذر[42] أكثرها، لا في بطون صعاليك وأجناد»[43].

لا شك في أن دوافع وطنية، ودينية صرفة دفعت محمد رضا الشبيبي إلى تبني ذلك الموقف النشط، الذي اتسم بالجرأة، في غضون الأشهر الأولى من امتداد لهيب نار الحرب إلى أرض وطنه بصورة مباشرة. إن إدراك الشبيبي لحقيقة أفول نجم العثمانيين منذ اليوم الأول من تورط دولتهم في أوار الحرب يضفي بعداً آخر مهماً على موقفه ذلك، فقل من يقف إلى جانب المهزوم إلاّ إذا كان ذلك في سبيل مبدأ وفكر. في تقديمه لقصيدته «الوداع» يقول الشبيبي ما نصه:

«نظمت إثر نشوب الحرب بين العثمانيين والإنجليز في العراق سنة 1333 هـ/ 1914م، ويقصد بها وداع الدولة العثمانية»[44].

وما أروع الشبيبي، وما أبعد منه نظراً حين يتوجه إلى العثمانيين في قصيدته تلك ليوجز لهم خطاياهم التي لا تستغفر بحق العراق، وما سيجنونه منها، فهو القائل فيها:

ما أسفتم هضم العراق ولكن   هجتم للعراق أسداً جياعا

راح مـن يقتضـي بتـرك التقـاضـي وأتـى مـن يكيـل بـالصـاع صـاعـا
أنـــا ذا لا أقـــول أكثـــر ممـــن قــال: هــذا بنــاء مجــد تــداعــى
لســـواكـــم زاد العـــراق أتـــاه ونمـــى غلـــة وذر ارتفـــاعـــا
قُــدتمــوه هــديــة مــا استبيعــت مــن سجـايـا الأعـلاق إلاّ تبـاعـا

. . . .

إنْ يسـوءنـا تـرك الـدفـاع فـأنتـم معشـر تحسنـون عنـا الـدفـاعـا
أرأيتـم تلـك القلـوب اللـواتـي سخـرت بـالقـلاع كـانـت قـلاعـا؟
إن ذاك السمـــاع صـــار عيـــانـــا وسيغـــدو هـــذا العيـــان سمـــاعـــا
مـــا أظـــن الـــدنيـــا تضيـــق بقـــوم شحنوا قطرها صدورا وِساعا[45]

حقاً أن ما قاله الشبيبي هنا لهو درس بليغ من دروس التاريخ، صاغه في ثوب من درر الكلم، ورفيع الأدب، معمد بحب للوطن، وحرص عليه ما بعدهما من حب وحرص.

لا تفيد العبر الطغاة، فإن الاتحاديين رغم كل ما جلبوه من مآس على أنفسهم وغيرهم لم يتعظوا، واستمروا على نهج سياستهم المتعصبة الهوجاء حتى في الظروف الحرجة التي استجدت مع نشوب الحرب، مما خيب ما ظهر من بصيص من الأمل في نفوس أبعد الناس نظراً من أمثال محمد رضا الشبيبي. احتك العراقيون أنفسهم منذ أيام الشعيبة، وبعدها مباشرة بهذا النهج الذي بدأ يتسم بقدر أكبر من التعالي، والشدة حتى من السابق بحجة ضرورة حماية أمن الدولة، وجبهتها الخلفية[46]. وقد امتدت آثار هذه السياسة إلى مدينة النجف بقوة، مع العلم أن علماءها الأعلام كانوا سباقين في إصدار الفتاوى لتأييد العثمانيين ضد البريطانيين. يصف لنا الشيخ جعفر الشيخ باقر آل محبوبة، وهو شاهد عيان في ذلك، أوضاع النجف في تلك الأيام هكذا:

«بعد مرور شهر على حادثة الشعيبة بعثت الحكومة العثمانية

بعثاً مؤلفاً من ألف من المشاة والفرسان بقيادة عزت بك إلى النجف للقبض على المنهزمين من الجندية، وكان قائمقام النجف يومئذٍ بهجت بك... فظاً غليظاً، سيء الإدارة، متهوراً، خرق السياسة، معدوم الكياسة، غير ملتزم بدين، ولا يركن إلى مذهب، وقد ضغط على النجفيين حتى كاد أن يستأصل أموالهم بتحميلهم الضرائب الباهظة، وساق الرجال، وشردهم بلا جريمة، وتعدى كثيراً على الأشراف، ومس ببعض الكرامات المقدسة، وجار في أعماله كلها...»[47].

إذا كان عشر معشار هذا الكلام غير المنتهي صحيحاً فإنه كان يكفي لإثارة حفيظة أي مفكر وطني من طينة محمد رضا الشبيبي الذي راقب شخصياً تصرفات المسؤولين الاتحاديين، وسجل عنها ملاحظات دقيقة ذات أهمية تاريخية خاصة باعتبارها مصدراً من مصادر دراسة التطورات السياسية في العراق في تلك الحقبة. فإنه يصف لنا الانتفاضة[48] التي شهدتها النجف في أواخر أيار سنة 1915[49] كرد فعل على سياسة الاتحاديين الآنفة الذكر بصورة مركزة، ودقيقة مع تواريخها، فيقول عنها:

«انتشرت في النجف في أخريات جمادى الثانية سنة 1333هـ (أيار) 1915م، أو لمرور شهر على واقعة الشعيبة رقاع تحض على مناهضة الحكومة العثمانية، فاهتم لها أولياء الأمور في بغداد، وجردوا إلى النجف بعثاً مؤلفاً من ألف من المشاة والفرسان بقيادة عزت بك، ففر المشاغبون عند وصوله إلى السواد، وهم عصابة يتألف معظمها من البلط (الفارين من الجندية)، وفي الهزيع الأخير من ليلة السبت 8 رجب سنة 1333 هـ[50] 1915م، عادوا فنفذوا إلى البلدة من السور وانضم إليهم طائفة من البلديين، فنشب في الصباح الثاني بينهم وبين الحامية العثمانية قتال شديد دام إلى عصر الاثنين 10 رجب[51] سنة

1333 هـ. وفيه أذعنت الحامية، وجردت من السلاح بعد فقدان جماعة منها، فيهم بعض الضباط، وطلب القائد، والقائمقام بهيج بك والمستخدمون الأمان، فأخذه لهم، وأخرجهم به خازن المشهد وبعض الأماثل والصدور، ثم أضرمت النار في دور الحكومة، ونهبت أمتعة المستخدمين، وتسلم النجفيون منذ ذلك اليوم أزمة الحكم في البلدة، وما كفى ذلك حتى صاروا يعملون على تقويض أركان الحكومة العثمانية من العراق»[52].

أغلب الظن أن هذه المعلومات تحولت إلى رافد مهم للذين كتبوا عن انتفاضة النجف[53] التي قيمها الشبيبي، وحدد أهميتها بعقلية المؤرخ حين قال عنها إنها كانت «من أهم حوادث العراق الأخيرة... على العثمانيين التي انتهت بطردهم من النجف، وبسقوط هيبتهم، وضعف شأنهم في عامة البلاد، لا سيما في الفرات، ولم يقتصر تأثيرها من هذا القبيل على القطر العراقي حتى تجاوز إلى غيره من الأقطار»[54].

تبدو موضوعية محمد رضا الشبيبي في موقفه من أعمال السلب والنهب التي اقترفها القائمون بالانتفاضة في النجف، فقد عدها، وكان على حق في ذلك، غدراً، وسمى مرتكبيها همجاً «لم يزيدوا النجف إلاّ سوءاً»، وانتقد بشدة الحكومة التي أقاموها لأنها «لم ترجع إلى قانون أو شرع»، ولأنها لم «تتقيد بعهد أو ميثاق»[55].

لكن ذلك لم يمنع الشبيبي من أن يقول قصيدة لمناسبة اندلاع انتفاضة النجف اختار لها عنواناً معبراً هو «ثورة على الأتراك أو شكوى وعتاب»، فقد أدرك مفكرنا بصورة جيدة أن ما حدث لم يكن سوى ردّ فعل مشروع على ظلم الاتحاديين، وسياستهم المتعصبة، الهوجاء التي أساؤوا بها «التعامل مع العراقيين»[56]. وقد تجلى هذا في كل ما سجله عن الانتفاضة، كما في ثنايا رائعته «ثورة على الأتراك»[57] الذين قربوا بسوء تصرفهم السيف، وفرضوه أن يكون حكماً لأنّ «لا المنطق الفصل من قوم ولا جدل» ينتظر.

جعل عظم الخطر الاتي من الغرب من الشبيبي أن يبذل، مع ذلك، ما في وسعه لرأب الصدع بين العرب والترك، فهو في قصيدته الجديدة ليس ثائراً على الأتراك بقدر ما هو مشتك منهم، ومعاتب لهم[58]، فحتى بعد أحداث النجف «يعز عليه أن يؤنبهم»، لكنه يعلم، والألم يحز في نفسه، أن عتابه يأتي «في حين لا ينفع التأنيب والعذل»، إلاّ أنه يحاول، رغم ذلك، «ومن أجل أعينهم»، أن يصفح «عن الماضي»، ويذكرهم «بأيام العرب الأول»، ويستحلفهم الله «أن لا يجرحوا أكبادنا» ، ويدعوا «جراح برقة والبلقان تندمل»، وهذه إشارة رائعة منه إلى ضياع الاتحاديين لليبيا والبلقان بسبب السياسة القصيرة النظر ذاتها التي لم يتخلوا عنها بالنسبة لمن تبقى من شعوب مغلوبة على أمرها داخل الأمبراطورية العثمانية.

إن ما ورد في ثنايا أبيات «ثورة على الأتراك» تنم بوضوح عن إدراك مفكر، ومؤرخ ثاقب النظر، يرى الحاضر، ويتوقع المستقبل، ويحدد للحالتين الأسباب والدوافع بدقة. يا ترى من يضاهي الشبيبي في وصفه للاتحاديين شعراً، فهو يجد فيهم «حزباً على خطوات الوهم يتكل»، ضيعوا «الفرص العظمى التي سنحت»، إنهم أناس لا يريدون العرب «عند المغانم»، بينما يحملونهم «من المغارم ثقلاً ليس يحتمل»، إذ «وخز النحل حظهم» وحظ غيرهم «الأريُ[59] والعسل»، فيسألهم، وهو على حق في سؤاله الذي هو درس بليغ من دروس التاريخ لم يتعلمه الاتحاديون، ومن هم مثل الاتحاديين:

لأي شـيء تـراهـم يـؤثـرونكـم   والقوم فيكم وفي أعدائكم همل[60]

إن ما ورد في هذه القصيدة هو في الواقع محاضرة تاريخية موثقة، رجع إليها الآخرون عندما كتبوا عن أحداث تلك المرحلة، وعن سياسة الاتحاديين، منهم المحقق المعروف، المهتم بتاريخ النجف تحديداً الشيخ جعفر الشيخ باقر آل محبوبة في كتابه المصدر «ماضي النجف وحاضرها»[61].

لم يستفد الاتحاديون من نصائح العقلاء لأنهم كانوا يرون أنفسهم أعقل الناس طراً، ولم يتعظوا من تجارب تاريخهم لأنهم كانوا يعدون أنفسهم فوق التجارب التي كانوا يلقون تبعتها على كاهل غيرهم بكل بساطة. لذا لا غرو أن تكررت أحداث النجف في كربلاء أولاً في منتصف شعبان سنة 1333هـ/ أواخر حزيران ـ أوائل تموز 1915[62]، و«كارثة الحلة»[63] في منتصف شوال/ أواخر كانون الأول من السنة المذكورة، وحادثة كربلاء الثانية في السابع من رجب 1334/ الحادي عشر من أيار 1916 التي «هلك فيها خلق كثير، وأشرفت البلدة على الخراب»[64].

أثارت إجراءات الاتحاديين تجاه هذه الوقائع الإشمئزاز في نفوس العراقيين، وبصورة خاصة في صفوف المثقفين النجفيين الذين كان لهم دور مشهور في إثارتها[65]. إن جانباً من تلك الإجراءات اتخذ طابعاً شوفينياً مقيتاً. فعندما ثار أهل الحلة أرسل الاتحاديون عاكف بك على رأس قوة كبيرة عسكرت قرب المدينة، ودعا زعماءها إلى معسكره بحجة مفاوضتهم، إلاّ أنه احتجزهم في معسكره، ثم سلط نار مدفعيته الثقيلة على ثلاث محلات فيها «فجعلها خراباً»، ثم شنق من زعمائها المحتجزين والمأسورين سبعة عشر زعيماً، ثم «جمع عدداً كبيراً من النساء، وساقهن سبايا إلى الأناضول، مما كان له أثره الكبير في نفوس العراقيين، والفراتيين منهم بصورة خاصة»[66].

تحدث الشيخ الشبيبي بدوره عن هذه الأحداث، ومرة أخرى بدقة المؤرخ[67]، وأن ما كتبه هو عنها تحول إلى مصدر أساس للآخرين الذين تحدثوا عن تلك الأحداث، فقد أعادوا حتى عباراته الوصفية عنها بحذافيرها[68].

أبعدت هذه الأحداث، وغيرها، الشيخ الشبيبي عن العثمانيين أكثر فأكثر، فقد اقتنع الرجل أن الاتحاديين ركبوا رؤوسهم، ولا يعيرون الدين

والجوار والتاريخ والمجتمع، ومآسي الماضي والحاضر أي اهتمام. لكن ذلك لم يدفعه إلى الخندق المقابل، فالرجل لم يكن من النوع الذي يبدل محتلاً بمحتل، خصوصاً وأنه كان من أوائل المفكرين العراقيين الذين فهموا حقيقة البريطانيين باعتبارهم محتلين يختلفون عن العثمانيين في تطورهم الحضاري، إلاّ أنهم يختلفون عن العراقيين في دينهم وعاداتهم وتقاليدهم. لكن ذلك لا ينفي إعجابه الشديد بتقدمهم في جميع الميادين، ورغبته للاستفادة من ذلك من أجل وطنه العراق. أضفت هذه العوامل الحساسة قدراً من التردد على مواقف محمد رضا الشبيبي على مدى حقبة وجيزة يمكن تأشير بداياتها بأواسط العام 1916.

مرحلة من القلق الفكري في حياة محمد رضا الشبيبي

كان الشيخ الشبيبي من أشد المعجبين بحضارة الغرب، ولا سيما بعلمائه، وبتقدمه العلمي الكبير، الأمر الذي لاحظناه بوضوح في مباحث الفصل الأول من هذه الرسالة. وكان أمراً طبيعياً أن يزداد إعجابه هذا بعد اطلاعه المباشر على أسباب الحضارة الحديثة، والتقنية العالية التي جلبها البريطانيون معهم إلى العراق لأول مرة، والتي ضمنت لهم انتصارات كاسحة على العثمانيين سواء داخل العراق، أو خارجه، مما تحول إلى الموضوع الأول في مجالس المفكرين والساسة. أضف إلى ذلك أن الإدارة التي أقامها البريطانيون كانت تختلف من أوجه عدة عن إدارة الاتحاديين، فبغض النظر عن كونها إدارة احتلال، إلاّ أنها كانت تمثل، في كل الأحوال، أسلوباً أرقى في التنظيم، والتعامل قياساً بما درجه العراقيون الذين سئموا إدارة الاتحاديين في أواخر أيامها إلى درجة غدوا معها لا يطيقونها مطلقاً. وفي خضم الجوع، والسلب والنهب الذي لازم العهد الاتحادي في سنوات الحرب بصورة لم

يسبق لها مثيل، تصرف البريطانيون بأسلوب لم ينجم فقط عن اختلاف مستواهم الحضاري، بل أيضاً لأنهم كانوا يريدون بذلك خطب ود العراقيين، وتشويه سمعة العثمانيين في نظرهم.

كان من شأن هذه الأمور أن تحدث رجة نفسية في أعماق العراقيين، فقد كانت بمثابة «سوط شديد أيقظ الأفكار، وولد جريان حركة فكرية لم تكن موجودة من قبل «حسب التعبير الموفق لمجلة «الصحيفة» البغدادية في عددها الصادر يوم الثالث عشر من أيار سنة 1927[69]. يتحدث الدكتور الوردي عن جانب آخر من الموضوع في دراسته الاجتماعية لتاريخ العراق الحديث، وهو شاهد عيان في الوقت نفسه، فيقول:

«إني أدركت في طفولتي عهد الاحتلال، وكنت أسمع الناس يتحدثون عنه، ويقارنون بينه وبين العهد التركي. . . لست أريد أن أدافع عن عهد الاحتلال، فهو لم يكن خالياً من المظالم والمثالب، كما سنأتي إليه، ولكن الذي أعرفه معرفة وثيقة أن الأتراك هم الذين لجأوا إلى المصادرة والنهب، أما الإنكليز فكانوا على العكس من ذلك يشترون الحبوب وغيرها من المواد المحلية بأسعارها السائدة في السوق، ويدفعون أثمانها نقداً. . .»[70].

وفي مكان آخر من الدراسة ذاتها يقول الوردي بهذا الخصوص:

«يمكن القول إن معظم العراقيين، ولا سيما أهل المدن منهم، استقبلوا الاحتلال الإنكليزي عند أول دخوله عليهم بالابتهاج والترحيب، وذلك لشدة ما عانوه من الحكومة التركية خلال فترة الحرب من مشاق وبلايا وآلام. حدثني أحد المسنين عن تلك الأيام فقال: إننا كنا في بداية الحرب نجتمع في المسجد ندعو الله أن ينصر المسلمين على الكفار، فقد كنا حينذاك تحت تأثير حركة الجهاد التي كانت في أبانها، ولكننا في أواخر الحرب صرنا ندعو الله أن يهلك الأتراك، وينصر الإنكليز عليهم استناداً إلى القول المأثور: الكفر يدوم

والظلم لا يدوم»[71].

في الوقت الذي كان الاتحاديون يمارسون فيه صورة متخلفة من الاضطهاد القومي، كان الحلفاء ينثرون الوعود والعهود للعرب وغيرهم من أبناء شعوب الامبراطورية العثمانية بأسلوب مدروس، وذكي من أجل كسبهم إلى جانبهم. يقول رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج[72] بهذا الخصوص: «وجد أن بالإمكان نسف قدرات العدو عن طريق استغلال تذمر الأمم الخاضعة له. فمئات السنين من النير جعلت تعايش العرب تحت حكم الأتراك مستحيلاً»، فحرك الحلفاء مثل هذه الأمم متعهدين «منحها الاستقلال لقاء ذلك»[73].

وفي مناسبة أخرى أوضح لويد جورج الشيء نفسه بأسلوب أشمل حين أكد أن الدعاية في الحرب «أدت دوراً أكبر من أي وقت مضى. فعلى سبيل المثال أن التصريحات العلنية للحلفاء عن نواياهم حول تحرير الشعوب المضطهدة الرازحة تحت سيطرة الأمبراطوريات المعادية تركيا وألمانيا والنمسا، ومنحها حق المصير. كانت هذه التصريحات تستهدف إعطاء انطباع معين لا في بلدان الحلفاء فحسب، بل وكذلك في البلدان المحايدة، وبصورة خاصة في معسكر العدو... إننا كنا نعلم أن الإعلان عن التحرير باعتباره، واحداً من أهدافنا الحربية سوف يساعد على تصديع وحدة البلدان المعادية، ونحن لم نخطىء في ذلك»[74].

تتوفر شواهد محددة في هذا السياق تخص العراق بالأساس. ففي الثاني والعشرين من تشرين الثاني عام 1914، أي يوم احتلال البصرة، أصدر السير بيرسي كوكس بياناً بالعربية أكد فيه «زوال الإدارة التركية»، وعدم وجود عداء بين البريطانيين وأهل العراق الذين، كما قال: «يعتلج في نفوسنا عسانا في أن نوفق نثبت لهم أننا حماتهم وأصدقاؤهم»، كما وعدهم

«بالحرية والعدالة»[75].

وبعد احتلال بغداد في الحادي عشر من آذار سنة 1917، الحدث التاريخي الكبير محلياً وعالمياً، تلى الجنرال مود بيانه المعروف في التاسع عشر منه، والذي توجه فيه إلى البغداديين قائلاً لهم إن البريطانيين «جاؤوا محررين لا فاتحين»، وأن أمنية حكومتهم «هي أن تحقق ما تطمح إليه نفوس فلاسفتكم وكتابكم مرة أخرى، ولسوف يسعد أهالي بغداد حالهم، ويتمتعون بالغنى المادي والمالي بفضل نظامات توافق قوانينهم المقدسة، وأطماحهم القومية والفكرية. لقد طرد العرب من الحجاز الأتراك والجرمان الذين بغوا عليهم، وقد نادوا بعظمة الشريف حسين ملكاً عليهم، وعظمته يحكم بالاستقلال والحرية، وهو متحالف مع الأمم التي تحارب دولتي تركيا وجرمانيا. . . كثيرون هم أشراف العرب الذين راحوا ضحية في سبيل الحرية على أيدي أولئك الحكام الغرباء، الأتراك الذين ظلموهم»[76].

في الخامس من كانون الثاني من عام 1918 أعلن لويد جورج في خطابه الشهير في قاعة ويستمنستر أمام ممثلي النقابات العمالية عن «الاعتراف بالظروف القومية الخاصة» لكل من «شبه الجزيرة وأرمينيا وميسوبوتاميا (بلاد ما بين النهرين) وسوريا»[77]. أضفى التصريح البريطاني ـ الفرنسي في الثامن من تشرين الثاني من العام نفسه، وبالمضمون ذاته تقريباً[78]، أضفى بعداً جديداً على وعود الحلفاء المتكررة للعرب باعتباره تعهداً دولياً، فضلاً عن أن صدوره بعد أن تم انتصار الحلفاء كان يعني أنه ليس «من مقتضيات ربح الحرب» «فقوبل لهذا السبب بالتصديق» حسب تعبير المس بيل[79]. كما أحدثت بنود الرئيس الأمريكي ولسن الأربعة عشر صدى واسعاً بين شعوب المنطقة، بما في ذلك الشعب العراقي، ولا سيما أن بندها الثاني عشر كان يتعلق بمصير الشعوب غير التركية الداخلة في الأمبراطورية العثمانية[80].

انتشرت أنباء هذه الوعود، والعهود بين المثقفين العراقيين على نطاق واسع، فعلقوا عليها آمالاً كبيرة، مما أبعدهم عن الاتحاديين أكثر فأكثر، وكان الشبيبي أحد هؤلاء المثقفين. فإن جريدة «العرب»، التي أصدرها البريطانيون في بغداد، والتي زينت صدرها منذ عددها الأول في الرابع من تموز 1917 بعبارة «عربية المبدأ والغرض، ينشئها في بغداد عرب للعرب» نشرت أهم جوانبها، وعلقت عليها بأسلوب من شأنه أن يدغدغ عواطف المثقفين القومية الجياشة[81]. وكان البريطانيون يرومون من وراء ذلك، وغير ذلك، أن يشوهوا سمعة العثمانيين نهائياً في نظر العراقيين، فإنّ «هؤلاء الأتراك الظالمين» قلبوا في بلاد الرافدين «النعيم بؤساً، والسعادة شقاء، والخصب جدباً، والعمران خراباً»[82].

تفاعل مع هذه الأمور صدى تطور الأحداث على صعيد الوطن العربي، ولا سيما ما قام به القطب الاتحادي جمال باشا[83] في سوريا ضد كوكبة من الزعماء الوطنيين الذين شنقهم علناً في دمشق وبيروت يوم السادس من أيار 1916[84]. مثلت جماعات أخرى كثيرة من القوميين العرب أمام المحاكم العسكرية التي ألفها جمال باشا، واتهم معظمهم بالخيانة العظمى على أساس اتصالهم بالبريطانيين والفرنسيين، والتحريض على الثورة. وفي مجرى التحقيق تعرض المتهمون للتعذيب والتهديد، وتجاهل القضاة جميع قواعد المرافعات، مسترشدين بتعاليم جمال باشا حصراً، فتوالت عمليات إعدام قادة المنظمات العربية السرية، وغيرهم من الشخصيات المرموقة، فقد بلغ مجموع الذين شنقوا حتى أواسط العام 1916 أكثر من 800 شخصية[85].

استحق جمال باشا على فعلته الشنعاء هذه لقب السفاح الذي منحته العرب إياه تعبيراً عن حقد مشروع زاد من فورة مشاعر المثقفين العراقيين الذين تأثروا حتى أكثر من ذلك بقيام الشريف حسين منذ أواسط العام 1916 ضد

الاتحاديين من أجل استقلال العرب، ويتعاون مكشوف مع البريطانيين خصوصاً والحلفاء عموماً، الأمر الذي استغله الأعلام البريطاني في العراق على نطاق واسع من أجل كسب عطف أهله[86].

كان أمراً طبيعياً أن تترك هذه الأحداث والتطورات، مع إفرازاتها، تأثيراً مباشراً في شخص مثل محمد رضا الشبيبي. فإن معظم الذين أعدمهم جمال باشا في بلاد الشام كانوا معروفين لديه، كما كان لدى معظم المثقفين العراقيين، منهم عضو مجلس المبعوثان العثماني عبد الحميد الزهراوي الذي أصبح علماً معروفاً على نطاق واسع بعد أن ترأس المؤتمر العربي الأول في باريس سنة 1913[87]. وكان بين ضحايا جمال باشا السفاح مفكرون تأثر بهم الشبيبي، منهم، على سبيل المثال، الدكتور شبلي شميل الذي صدر عليه حكم الموت غيابياً[88].

ومن المفيد أن نشير إلى أن الاتحاديين كانوا يحاولون نشر أخبار إجراءات جمال باشا على أوسع نطاق ممكن، فلم تمض سوى ساعتين على مجزرة السادس من أيار 1916 حتى كان عدد خاص من جريدة «الشرق» يوزع مجاناً، وقد اشتمل على إعلان التهم والمحاكمات والأحكام والتنفيذ جملة واحدة، ووصف التهم بأنها «خيانة واشتراك في نشاط يرمي إلى فصل سوريا وفلسطين والعراق عن السلطة العثمانية، ووضعها في دولة مستقلة»[89].

ومن الضروري أن نشير إلى أن الشيخ الشبيبي خص شهداء بلاد الشام واحدة من أفضل قصائده في الرثاء، اختار لها عنوان «رثاء الشهداء» التي ألقيت فيما بعد في حفل تأبيني أقيم خصيصاً في ساحة المرجة بدمشق[90].

ثم إن جمال باشا نفسه كان معروفاً لدى المثقفين النجفيين بصورة جيدة، فحين عيّن والياً على العراق في أواسط العام 1911 زار مدينتهم خصيصاً، مع العلم أن العراقيين لم يرتاحوا من تعيينه خلفاً للوالي ناظم باشا

«الذي أطبقت شهرته آفاق العراق». أضف إلى ذلك أن جمال باشا لجأ إلى إجراءات مركزية أثار بها حفيظة قطاع واسع من أهل العراق، ولا سيما العشائر المتنقلة في الفرات الأوسط[91].

لم يكن تأثير الثورة العربية، وموقف أشراف مكة، وقيادتهم لها على الشبيبي أقل من تأثير الأحداث الأخرى دون شك، فلقد كان من المعجبين بهم، كما كان لانضمام معظم الضباط العراقيين إليهم صداه الملموس بين المثقفين[92].

في خضم هذه الأحداث، والتطورات المتشابكة، والمتناقضة في عين الوقت أصبح الشبيبي في وضع نفسي قلق ودع خلاله آخر وشائجه بالعثمانيين، واختبر البريطانيين عن كثب لينتقل إلى الخندق المعادي لهم بسرعة، وكل ذلك في غمرة النضال من أجل الوطن، مع إنكار للذات واضحة المعالم.

يبدو القلق هذا واضحاً في موقف الشبيبي من معركة سلمان باك التي انتهت باندحار البريطانيين في أواخر تشرين الثاني 1916، وحصارهم في الكوت الذي ترك صدى واسعاً في الداخل والخارج[93]. فقبل كل شيء أنه خلد ذكرى المعركة في قصيدة رائية وصفية مقارنة سماها «يوم المدائن وتل السور»، لم يمجد فيها العثمانيين، بل حمل القارىء إلى مشاهد في صدر الإسلام يرى فيها فيلق سعد «كل فيه همام، وكل فيه ليث»[94]. وفي ثنايا أبيات القصيدة ذاتها يدين الشبيبي الحاضر بحس شاعري مرهف لأن السياسة فيه «بهتان وزور»، فلم يبق فوق البسيطة «من إنس ومن بشر»، إذ تحول الجميع إلى «وحوش ويعافير[95] متعادية»، وذلك في إشارة معبرة منه إلى الحرب وما جرته على البشرية.

سجل لنا الشبيبي في ديباجة تقديم قصيدته حقائق تاريخية محددة عن وقائع معركة المدائن، فيها معلومات مركزة تصلح مصدراً لدراسة الموضوع،

منها حديثه عن هجوم البريطانيين «العام العنيف» بعد «تمهيد هائل بالمدفعية لم يسمع البغداديون مثله. . . . فاشتد الأمر على الناس، وكثرت الأراجيف. . . »[96].

تحت ضغط العوامل التي تطرقنا إليها طرح الشبيبي على نفسه في هذه المرحلة الحافلة بالأحداث المتناقضة السؤال ذاته الذي طرحه جميع نظرائه العراقيين: هل بالإمكان تحقيق حلم الاستقلال بمساعدة الحلفاء؟ إن تحديد الموقف يومذاك كان يعتمد أساساً على جواب هذا السؤال الملحّ.

تؤكد بعض الحقائق المتوفرة أن الشيخ الشبيبي لم ينتقل إلى الخندق المعادي للبريطانيين مباشرة، ولو أنه كان أسرع إليه من غيره من المفكرين، ولا عتب على أحد في ذلك عاش مثل ظرفهم على ما نعتقد، ونتصور. لقد أبهر تقدم البريطانيين جميع المثقفين، فرحب بمقدمهم عدد من أبرزهم عن قناعة، يحدوهم أمل كبير في تحقيق الاستقلال السياسي، والتطور الاقتصادي والاجتماعي لبلدهم بمساعدتهم، منهم على سبيل المثال، الألوسي[97] والزهاوي ومحمد مهدي البصير والشيخ كاظم الدجيلي وعبد الحسين الأزري وشكري الفضلي[98] وعطا أمين[99] وغيرهم ممن وقفوا بدورهم إلى جانب العثمانيين في بداية الحرب[100]. وقد عد العديد من هؤلاء، وغيرهم الاتصال بالبريطانيين وسيلة لضمان الاتصال بالملك حسين في الحجاز، مما يبدو واضحاً من ملاحظة سجلها رونالد ستورس بهذا الخصوص[101]. وكان الشبيبي شخصياً على علاقات ودّ مع معظم هؤلاء المثقفين، وغيرهم ممن كانوا على اتصال أوثق بالبريطانيين مثل الأب أنستاس ماري الكرملي الذي كان الشبيبي يكن احتراماً كبيراً له بسبب خدماته الجليلة لـ «لغة العرب»[102]، ودور مجلته المتميز في «تطوير الوعي الثقافي والسياسي لدى العراقيين»[103]. وكما لاحظنا فإنّ الشبيبي كان يراسل الكرملي قبل الحرب، وأثناءها، وكذلك بعدها[104].

بذل البريطانيون من جانبهم جهوداً حثيثة لكسب ودّ أبرز المثقفين العراقيين، وقد ركزوا في ذلك بصورة خاصة على الشخصيات العراقية التي تعرضت للاضطهاد على أيدي الاتحاديين[105]، أو من تعرض للاتحاديين بالنقد اللاذع من أمثال الشبيبي. لجأ البريطانيون إلى شتى أساليب الإغراء، والإقناع من أجل تحقيق مأربهم هذا[106]. إنهم طلبوا من الأب الكرملي إعداد قائمة بأسماء عدد من المثقفين المعروفين ممن يمكن الاعتماد عليهم والاستفادة من جهودهم[107].

كان أمراً طبيعياً، ومتوقعاً أن يتردد اسم محمد رضا الشبيبي في الاتصالات التي جرت بهذا الصدد، وذلك باعتباره شاعراً ومثقفاً بارزاً، وشخصية اجتماعية نشطة، ولميوله المعادية للاتحاديين على وجه الخصوص. ويبدو واضحاً من بعض الحقائق أن البريطانيين عرفوا الشيخ الشبيبي في وقت مبكر من احتلالهم للعراق. ففي إحدى رسائلها التي بعثتها المس بيل إلى والدها من بغداد ذكرت بأنها عرفت الشبيبي، والتقته في العام 1918، وهي تشير بالمناسبة إلى أنه «رجل ممتع جداً»[108]، و«معروف وصاحب قلم متألق، فإذا تعاون معنا بصدق، مجازفاً بأن يعده المتهورون رجل الإنكليز، فإنه يكون مفيداً»[109]. لذا لا غرو أن ورد اسمه ضمن القائمة التي قدمها هبة الدين الحسيني[110] إلى الأب الكرملي بعد احتلال بغداد بشهر ونيف[111]. كما أوصى الكابتن مارشال، الحاكم السياسي للنجف، بتعيين الشبيبي مراسلاً لجريدة «العرب»[112]. ووردت إشارة واحدة إلى أن الشبيبي عمل محرراً في مجلة «دار السلام»[113]، وذلك ضمن رسالة بعثها رزوق عيسى إلى الكرملي في أواسط تشرين الثاني سنة 1918[114].

لم نعثر في أعداد جريدة «العرب»، وما توفر لنا الاطلاع عليها من أعداد مجلة «دار السلام» على مقالة، أو قصيدة مذيلة باسم محمد رضا الشبيبي

الصريح. صحيح أن عدداً من المثقفين نشروا نتاجاتهم فيهما بأسماء مستعارة مثل ابن العراق وابن الفراتين وابن ماء السماء وابن جلا وابن بابل وابن النجف وابن ذي الكنيتين وابن العدل ومطالع وغيرها، وكان ذلك بالأساس بسبب خوفهم من إمكانية عودة الاتحاديين كما حدث في الكوت وكركوك، فما أن اختفى الأمل في عودتهم حتى بدأت أسماء بعضهم[115] تظهر صريحة[116]. كما لم يشر الحسني إلى اسم الشبيبي بين أسماء الكتاب الذين قال عنهم إنهم كانوا ينشرون نتاجاتهم في صحافة تلك المرحلة بأسماء مستعارة[117].

إننا لسنا بصدد إدانة أحد بسبب نشره في «العرب» و«دار السلام»، فإن الحكم في مثل هذا الأمر يجب أن يعتمد أولاً، وقبل كل شيء على ما ينشره الكاتب، لا على المكان الذي ينشر فيه، الأمر الذي أكد عليه العديد من الزعماء الثوريين المعروفين في العالم. ثم إن ما نشرته «العرب» في تلك الأيام كانت تلتقي في نهاية المطاف مع مصالح العرب والعراقيين إلى حد كبير لأسباب معروفة، فإنها كانت تحاول فضح سياسة الاتحاديين بشتى السبل، وإن تبين «رزء الترك»[118]، وخروجهم على الإسلام[119] وما شابه من أمور كانت متداولة في أوساط المثقفين العراقيين أصلاً. كما أشادت «العرب» بدور العرب الحضاري باستمرار، وأكدت ضرورة مراعاة حقوقهم، وأطنبت كثيراً في وصف «الثورة العربية في الحجاز»، وتحدثت بإسهاب عن انتصارات القوات العربية في الجزيرة وبلاد الشام، وقضايا أخرى كانت تهم المثقف العراقي بصورة خاصة[120]. يقول الحسني «إن جريدة العرب هذه كانت تبشر بالفكرة العربية، وتذيع فضل البيت الهاشمي، وتدعو لتأييده»[121].

أما «دار السلام» فإنها أعلنت عن نفسها أنها «مجلة نصف شهرية تبحث في العلم والأدب والاجتماع والتاريخ، وتعني بشؤون العراق الخاصة»[122]، وكان هذا ينطبق فعلاً على مضامين المجلة إلى حدّ كبير بفضل محرريها،

ولاسيما بفضل الأب انستاس ماري الكرملي الذي كان يشرف على إصدارها. وكان ينشر فيها كل من الزهاوي ومحمد مهدي البصير والشيخ علي الشرقي وسلمان الشيخ داود وإبراهيم صالح شكر وعطا أمين وعلي ظريف الأعظمي ورافائيل بطي وغيرهم بأسمائهم الصريحة، ولا شائبة تشوب مواقف هؤلاء، أو تمس عراقيتهم في إطار الاجتهاد والقناعة[123].

تسنى للباحث الاطلاع على عدد واحد من المجلد الثاني، وستة وعشرين عدداً من المجلد الثالث، وأحد عشر عدداً من المجلد الرابع من «دار السلام» للأعوام 1919 و1920 و1921 فوجدها درة في تاج الصحافة العراقية، حافلة بمقالات علمية موضوعية، وبأندر الأخبار العالمية من سياسية وعلمية. أما حرصها على العربية فما بعدها حرص، فقد أدت دوراً بارزاً في تجاوز آثار «جناية إفساد الترك للتركيب العربي» القويم[124]، وأدانت دون أدنى تردد كل مصدر يشوه لغة الضاد عربياً كان أم أجنبياً[125]، بل صححت أخطاء لغوية، ليس من السهل إدراكها، وردت في «مجلة المجمع العلمي العربي» السوري الرفيع المستوى[126]، ونحتت مصطلحات علمية عربية جميلة لتعابير غير معروفة[127]، وطرحت بصددها، وبصدد الترجمة من اللغات الغربية عموماً، فكرة صحيحة تقضي بضرورة نقل «العبارات معنى لا مبنى أحياناً للحصول على المطلوب»[128].

حقاً أن صاحب «دار السلام» كان «يلتهب غيرة على من لا يراعي أحكام العربية، أو يخالف أصولها النحوية واللغوية»[129].

أولت «دار السلام» تاريخ العرب جانباً من اهتمامها أيضاً، فقد نشر فيها كل من علي ظريف الأعظمي وعلي الشرقي باسم مستعار هو (غرافي)، فضلاً عن الكرملي نفسه وغيرهم مقالات تاريخية مفيدة[130] تشيد ببعضها أوساط معنية مختلفة حتى وقتنا الحاضر، بما في ذلك صحافتنا اليومية[131].

أما من وجهة نظر سياسية بحتة فإننا لم نجد في مواد الثمانية والثلاثين عدداً من أعداد «دار السلام» ما يشوبها من شائبة، أو قولاً ينتقص قدراً ما من رفعتها، وشأنها. إن العكس هو الصحيح تماماً، إذ لم نعثر في طياتها على كلمة واحدة في ثناء البريطانيين واحتلالهم علناً، أو ضمناً، بل أدانت بعض تصرفات سلطات الاحتلال جهاراً[132]، وتحدثت عن «مآرب الإنكليز الاستعمارية في الشرق»[133]، وأطلقت على عدوهم اللدود يومذاك مصطفى كمال أتاتورك لقب «البطل الصنديد»[134]، وأوضحت للقراء «سموّ قصده[135] في ما يبغيه من خدمة وطنه وقومه»[136].

وتعد «دار السلام» أول مصدر عراقي، ولربما عربي أيضاً، كشف أسراراً مهمة عن علاقات الرئيس الأمريكي ودروولسن (1856 - 1924) بالصهيونية العالمية[137] في وقت كان جميع زعماء العرب دون استثناء يرون فيه مسيحاً منقذاً لشعوبهم وأوطانهم. نشرت «دار السلام» خطاب حاخام نيويورك الذي صرح فيه «للمرة الأولى بوعد رسمي وعده الرئيس ولسن للصهيونيين في سنة 1917 على إثر دخول الولايات المتحدة الحرب العامة، فقد بعث متصدر الولايات الأمريكية إلى الدكتور ويز (حاخام نيويورك) برسالة يقول له فيها: حتى تضع الحرب أوزارها لن تعاد بلادان إلى أيدي المسلمين، وهما أرمينيا النصرانية وفلسطين. . .»[138].

والأهم من كل ذلك، على ما نعتقد، هو أن «دار السلام» لم تنطق بكلمة واحدة ضد ثورة العشرين، والقائمين على أمرها في عزّ أيامها[139]. سوى أنها أبدت لمناسبتها رأياً فيه قدر غير قليل من الحق مفاده «أن خير وسيلة للنجاح هي تتبع العلوم، والتحلي بمكارم الأخلاق، وتنشيط الزراعة والصناعة. . .»[140].

من المفيد أن نورد بهذه المناسبة ما ذكره إبراهيم الوائلي في كتابه «ثورة

العشرين في الشعر العراقي» عن أن بعض الشعراء الذين نشروا نتاجاتهم في «العرب» و«دار السلام» شاركوا في الإعداد لثورة العشرين، ووقفوا إلى جانبها[141]، وهذا بحدّ ذاته يجعل رأي المتخصص في الصحافة العراقية منير بكر التكريتي مقبولاً حين يقول عن كتّاب «العرب» و«دار السلام» أنهم «اندفعوا بكتاباتهم نكاية بالعثمانيين جرياً وراء المثل القائل عدو عدوي صديقي»[142].

وأخيراً فإنّ «دارْ السلام» كانت في واقع أمرها بديلاً عن مجلة «لغة العرب» في فترة توقفها عن الصدور من جميع الأوجه، شكلاً ومضموناً وهدفاً، تلك المجلة التي توصل المتخصص في دراستها إلى استنتاج رئيس مفاده أنها «لم تنشأ لمقاصد شخصية أو سياسية معينة» بل كانت «وليدة مبدأ سام جاهدت في سبيله، وكان هدفها مسماها»[143]. نضيف على ذلك ونقول إن النشر في «لغة العرب»، كما في «دار السلام» تحديداً كان يشرّف الكاتب أيّاً كان ذلك الكاتب.

مع ذلك يتوفر دليل آخر له أهميته، يرجح بدوره ما ذهبنا إليه بخصوص احتمال عدم قيام الشبيبي بنشر نتاجاته في «العرب» و«دار السلام»، وهو أنه لم يسهم في تحرير مجلة «لغة العرب»، إثر استئناف صدورها بعد انتهاء الحرب بمدة[144] على الرغم من أنه كان أحد كتابها البارزين قبل الحرب كما لاحظنا ذلك في حينه. لا يستبعد أن يكون موقف الشبيبي نابعاً من تخوفه من الأقاويل غير الواعية التي أثيرت حول الذين اشتركوا في تحرير صحافة تلك المرحلة، وتعاونوا مع الأب انستاس ماري الكرملي في ذلك المجال الذي كان يؤلف المنفذ الوحيد للمثقفين لنشر أفكارهم بعد أن توقفت جميع الجرائد والمجلات عن الصدور مع نشوب نيران الحرب العالمية الأولى. أما الشبيبي نفسه فقد ربط سبب توقفه عن النشر في «لغة العرب» بالحرب وما خلفت من نتائج

وذلك ضمن رسالة بعثها إلى الكرملي الذي كان يود، على ما يبدو، أن يتحف الشبيبي مجلته بنتاجاته الفكرية والأدبية[145].

وبعد فإن كان الشبيبي قد نشر في «العرب» و«دار السلام» باسمه الصريح أو باسم مستعار دون أن يشير إلى ذلك في ترجمته الذاتية، والمقابلات العديدة التي أجريت معه فإن ذلك يعد نقطة تسجل عليه، ولو أننا نشك في ذلك لأن الشبيبي لم تنقصه الجرأة أو الصراحة في يوم من الأيام[145]. والحقيقة الأخيرة التي تؤيد توقعنا هذا هي أنه لم يشر في ديوانه إلى أنه نشر أيّاً من قصائده في «العرب» و«دار السلام» في حين أنه سجل في ديوانه اسم كل جريدة أو مجلة نشر فيها أيّاً من قصائد ديوانه، بما في ذلك قصيدته الحكمية «هم عليّ ثقيل هذه الكتب» التي نشرها في جريدة «العراق» في العام 1922[146]، كما نشر فيها أيضاً مقالته التاريخية «القرامطة والأخوان» باسمه الصريح[147]، وقد صدرت «العراق» يوم (حزيران 1920 لتحل محل جريدة «العرب» التي نشرت في آخر عدد لها الخبر التالي:

«يصدر غداً العدد الأول من جريدة «العراق»، وهي جريدة يومية تبحث في السياسة والأدب والاقتصاد. . . وهذا العدد من جريدة «العرب» هو العدد الأخير، فنودع قراءنا، ونشكرهم على إقبالهم على مطالعتها، ومؤازرتهم إياها منذ صدورها إلى الآن»[148].

أما «دار السلام» فقد كتبت لمناسبة صدور «بزوغ العراق» كلمة قالت فيها: «ما احتجبت شمس» العرب «وراء أفق الصحافة إلاّ وطلع في سمائها نجم العراق «. . . ولما كنا نعهد في حضرة صاحبها الكفاءة وحبه للعلم وصدق وطنيته، فأملنا أن لا يقبل بين كتابها إلاّ من سما فكره، وجاد قلمه حتى تكون تلك الصحيفة وسيلة لخدمة اللغة والوطن والآداب، ونشر المعارف، وأن تكون من المنشورات التي تزين جيد الوطن، وتنوه بفضله»[149].

ومن المفيد أن نشير إلى أن صاحب «العراق» ومديرها المسؤول رزوق داود غنام[150] كان يعمل في قسمي الإدارة والتحرير في جريدة «العرب» حتى يومها الأخير[151]، وكل ذلك يعني أن «لغة العرب» و«العرب» و«دار السلام» كانت تمثل وجهاً واحداً لعملة رصينة في تاريخ الصحافة العراقية.

اهتمت «دار السلام» بتحركات محمد رضا الشبيبي باعتباره واحداً من أبرز الشخصيات العراقية السياسية والاجتماعية والأدبية في تلك المرحلة[152]، وقد قالت عنه أن الناس «ألفوا إنشاءه الساحر، وأبياته التي تزري بالدرر، بل بالدراري»[153].

إن مرحلة القلق الفكري في حياة محمد رضا الشبيبي كانت قصيرة الأمد، انتهت بسرعة بحكم عوامل محددة وذلك في خضم عمله الوطني الذي لم يتخل عنه في تلك المرحلة، كما قبلها، وكما بعدها. ومما يسجل للشبيبي هنا بصورة خاصة هو أنه يعد فعلاً واحداً من أوائل المثقفين العرب القليلين الذين أدركوا حقيقة نيات الحلفاء الأمر الذي تجلى بوضوح في أطول قصيدة معروفة له[154] نظمها في تشرين الأول سنة 1918 «حينما أذاع الإنكليز في العراق أنهم، لا العرب، أخذوا دمشق»، والتي دعيت في محافل الأدب بالقصيدة الباكية، مع أن صاحبها اختار لها عنوان «دمشق وبغداد»[155]. إننا نرى الشيخ الشبيبي في «قصيدته الباكية» هذه غير واثق صراحة بالمحتلين وعهودهم، ووعودهم، ويريد من أبناء جلدته أن لا يتوقعوا مما يقولون عن الإصلاح سوى «برق جوانب وعده إيعاد»، بل أنه يشك في مشاريعهم، ويخشى أن تكون شركاً «به شرف العراق يصاد»[156].

وينبغي علينا أن ننظر من الزاوية ذاتها إلى قصيدته «الشرق الناهض» التي نظمها إثر انتفاضة الدروز على الحكم الفرنسي في أواخر العام 1918[157]، والتي دعا فيها «أمم الشرق» صراحة إلى «الجهاد أجمعاً»[158].

ثم إن شكوك الشبيبي لم تكن بنت يومها، وهذا مهم بحدّ ذاته، أنه التقى قبل الحرب صديقاً «ممن تسكن إليه النفس» كان يعيش في أوربا، فنظم قصيدة بالمناسبة انتقد فيها بشدة سياسة الغرب التي رأى فيها «خداعاً وكذباً، وافتراقاً وقسوة وظلماً» فتساءل «أهذا العالم المتمدن؟»[159]. كان أمراً طبيعياً، إذن، أن يطرأ تحول سريع في فكر الشبيبي ومواقفه باتجاه معاداة المحتل الجديد.

النشاط الفكري والسياسي لمحمد رضا الشبيبي قبيل ثورة العشرين ودوره في الإعداد لها:

أصيب المثقفون الثوريون العراقيون، ومنهم محمد رضا الشبيبي، بخيبة أمل كبيرة حين وقفوا بسرعة على حقيقة وعود البريطانيين والحلفاء، وعهودهم التي سرعان ما تبين أنها كانت دون مستوى الطموح، والتوقع إلى حد كبير. انعكس ذلك على تصرفات المسؤولين البريطانيين في العراق بسرعة. ومن أجل التوضيح فقط نشير إلى أن الجنرال مود احتج على ما ورد في بيانه الذي نشره بعد احتلال بغداد لأنه يؤدي، كما أكد، إلى خلق «بلبلة في أذهان العرب حول نيات بريطانيا المقبلة، ويثير آمالهم ومطامحهم في وقت يجب أن تكون سلطة الجيش البريطاني هي العليا، والمطلقة في المناطق المحتلة»[160].

كانت شكوك الجنرال مود في محلها تماماً، فلم يمر سوى أقل من عام عليها حين كشفت السلطة السوفيتية الجديدة في روسيا جميع المعاهدات، والاتفاقيات السرية التي كانت روسيا القيصرية طرفاً فيها مع الدول الكبرى الأخرى، بما في ذلك معاهدة «سايكس ـ بيكو» السرية. أعادت الصحف العالمية نشر نص مواد سايكس ـ بيكو ضمن نصوص المعاهدات السرية الأخرى، مما أثار ضجة سياسية كبيرة على صعيد الشرق والغرب، حتى أن وزير الخارجية الفرنسي اضطر إلى تقديم إيضاح حول الموضوع إلى برلمان بلاده[161]. وسرعان ما تبين إن التصريح البريطاني ـ الفرنسي المشترك في

الثامن من تشرين الثاني 1918 لم يكن في الواقع سوى مناورة استهدفت امتصاص الأثر الكبير الذي أحدثته بنود الرئيس ولسن الأربعة عشر بين شعوب المنطقة. يقول لونكريك إن التصريح أفزع ولسن الحاكم المدني البريطاني وكالة والذي أعلن عنه أنه «غير ملائم بصفة مطلقة لأن يكون أساساً لإيجاد حكومة في العراق... وراح يشدد القول بأنه لا يوجد شيء سوى إيجاد إدارة بريطانية صارمة»(162).

انتشرت هذه الأخبار بين المثقفين والزعماء العرب بسرعة، فكان ردّ فعلهم قوياً عليها، أنها كانت، في الواقع، الصدمة الكبرى الأولى التي نبهتهم إلى الوجه الحقيقي للحلفاء، ودفعتهم إلى سلوك طريق جديد في النضال من أجل الاستقلال. تتوفر شواهد تاريخية مقنعة حول هذا الموضوع. فإنّ «جمعية العهد ـ فرع الموصل»(163) قيّمت في إحدى وثائقها، التي يعود تاريخها إلى الثامن من تشرين الثاني سنة 1919، سياسية بريطانيا وفرنسا وحتى الولايات المتحدة الأمريكية بصورة صحيحة، وذلك بعد «أن كشف الحلفاء عن مكنوناتهم، وأسفروا عن مكرهم وخداعهم»(164). والأبلغ من ذلك هو أن «مكتب الثورة» الذي أدى دوراً أساسياً في تهيئة الظروف لتفجير ثورة العشرين قد دشن أعماله في النجف بعد فضح بنود معاهدة سايكس ـ بيكو بالتحديد، كما يؤكد ذلك محمد علي كمال الدين، وهو أحد مؤسسي المكتب(165). لم يكن وقع وعد بلفور على مثقفي النجف أقل من ذلك، حالهم في ذلك حال معظم مثقفي العراق يومذاك. يقول الأسدي بهذا الخصوص:

«وفي 1917/11/2 صدر وعد بلفور لليهود، فأقلق العراق، وهزّ البلاد من أقصاها إلى أقصاها. وكانت النجف من بين المدن الناقمة المتحرقة، فاهتز الرأي العام فيها أيما اهتزاز. وقد أنضجت هذه الهزة العنيفة الفكرة التي كانت تدور في رؤوس بعض رجال النجف من حملة المبادىء الإسلامية في السياسة

حول وجوب تأسيس حزب أو جمعية تعمل ضد الإنكليز. . .»[166].

أثارت في الوقت نفسه تصرفات المسؤولين البريطانيين، والعديد من موظفي مؤسسات الاحتلال حفيظة العراقيين عموماً، والمثقفين منهم خصوصاً. في مبحثه الخاص بأسباب ثورة العشرين يتحدث الوردي، وهو أكثر المؤلفين العراقيين تحفظاً عن حق في هذا المضمار، يتحدث عن «رعونة بعض الحكام» البريطانيين في العراق ممن «كانوا على درجة غير قليلة من الرعونة والفظاظة» والذين كان العراقيون «في نظرهم متوحشين» يحتاجون «إلى أن يحكمهم البريطانيون مائة سنة على الأقل لكي يتعلموا كيف يحكمون أنفسهم»[167].

دفع كل ذلك، وغير ذلك، العراقيين إلى حمل السلاح ضد البريطانيين وبدوافع شتى. كانت النجف، مسقط رأس الشبيبي، وقبلته في العلم والفكر، رائدة في ذلك، فقد شهدت انتفاضة عارمة في أواخر سنة 1917 وأوائل سنة 1918، قتل على أثرها حاكمها الكابتن مارشال، وانتهت بفرض حصار صارم على المدينة دام أكثر من أربعين يوماً، وبإعدام أحد عشر من مواطنيها، ونفي مائة وسبعين آخرين منهم[168].

عاصر الشبيبي انتفاضة النجف، وراقب أحداثها عن كثب، وسجل مشاهداته، وملاحظاته عنها، نشرت فيما بعد تحت عنوان «مذكرات كتبها الشيخ محمد رضا الشبيبي ـ وثيقة خطيرة حول ثورة النجف ضد الاستعمار البريطاني 1917 - 1918»[169].

تتضمن مذكرات الشيخ الشبيبي عن انتفاضة النجف معلومات تفصيلية مهمة، بعضها فريدة في بابها تبين طبيعة الانتفاضة، وتحدد بدقة عواملها، والقوى الفاعلة فيها، ونتائجها. فإن الانتفاضة كانت تعبيراً مبكراً عن استياء العراقيين من سياسة البريطانيين الذين «خصوا البعض بالامتياز في النجف»،

مما أثار «الفقراء والجياع» الذين «تجمهروا على السراي وهم يسبون الإنكليز، ويلعنونهم، ويظهرون التشفي منهم»[170]. وأدت الانتفاضة إلى «تراخي أسعار الغلات والحبوب والتمور... في الجملة، فهبط تغار[171] الحنطة في منتصف صفر سنة 1336 (أواخر تشرين الثاني 1917) من 120 ليرة إلى 100 ليرة، بل أقل، وكذلك التمن (الأرز) وهبط التمر، أي تغاره، إلى 38 ليرة»[172].

تبدو موضوعية الشبيبي في استعراضه لأحداث انتفاضة النجف بوضوح في ثنايا مذكراته عنها، فهو لم يحد عما اشترطه العرب قديماً من «عدل في المحدث، وفي الراوي، وفي المؤرخ، كما اشترطوه في الحاكم والشاهد»[173]. إنه أعطى الأطراف المتصارعة كل ما له وما عليه. للاستدلال فقط نورد جزءاً مما ذكره الشبيبي عن زيارة السير بيرس كوكس للنجف أيام الانتفاضة دون تصرف كونه يلقي الضوء، في الوقت نفسه، على أسلوب معالجته لقضايا التاريخ:

«وصل كوكس، أو السر برسي كوكس حاكم العراق العام إلى النجف عصر الثلاثاء 19 صفر سنة 1336 (4 كانون الأول 1917) ومعه جماعة من الضباط الإنكليز عن طريق الفرات، وقد ظهرت قبيل وصوله في سماء النجف طيارة إنكليزية وحامت على البلدة ذاهبة، جائية، ثم عادت أدراجها، وذلك في نحو الساعة 8 عربية من ذلك اليوم، وقد قيل إنها جاءت لإرهاب أهل النجف، أو لاستكشاف حالهم من العصيان أو الطاعة، وكانت منخفضة غير محلقة في الجو، حتى رؤيَ ربانها وراصدها واضحين... قابل كوكس في دار نائب الإنكليز في النجف جماعة من أرباب العمائم، منهم المقسمون، وهم الذين كانوا يتقاضون راتباً من (الخيرية الهندية) على يد الإنكليز، ومنهم غير هؤلاء من أهل الدعوى، والجميع اغتنموا زيارته فرصة لما عسى أن ينفحهم به من الدراهم على عادته معهم... ولكنهم، حفظهم الله، تظاهروا بالشكوى من

الغلاء عن لسان الفقراء والمجاورين، وطلبوا إسعافهم. ثم في منتصف ربيع الأول سنة 1336 (أواخر كانون الأول 1917) شرع عمال الإنكليز بتوزيع الخبز على المحاويج»[174].

تحولت مذكرات الشبيبي إلى أهم مصدر لدراسة انتفاضة النجف، فقد اعتمدها أبرز الباحثين لها، منهم عبد الرزاق الحسني الذي لشهادته عنها قيمة علمية خاصة باعتباره مؤرخاً مختصاً في تاريخ العراق الحديث والمعاصر، يشار له بالبنان. يقول الحسني عن مذكرات الشبيبي:

«ولقد ظهرت كتابات متفرقة، ونشرت أوصاف مختلفة لحادث مقتل الكابتن مارشال، وما أعقبه من ثورة عاتية، وتدابير عسكرية قاسية، كان أهمها وأخطرها ما كتبه العلامة المغفور له الشيخ محمد رضا الشبيبي من يوميات دقيقة، وذكريات مفيدة، فإنّ هذه الكتابة تكاد تكون رسالة قائمة بنفسها عن هذه الثورة الجبارة، لما تضمنته من أخبار يومية، ومراسلات رسمية، ومعلومات لا طعن لطاعن، ولا سيما وقد دونت الحوادث في حينها يوماً بيوم»[175].

لا غرو إذن، أن تحولت مذكرات الشبيبي إلى مصدر الحسني الأساس لتوضيح أهم جوانب الانتفاضة، وأخطرها[176]. ينطبق القول نفسه على دراسة الأكاديميين عن الانتفاضة، منهم، على سبيل المثال، الدكتور علي الوردي في دراسته الذائعة الصيت في تاريخ العراق الاجتماعي[177]. وهكذا الأمر بالنسبة للباحثين الآخرين، منهم حسن الأسدي الذي ألّف كتاباً ضخماً (436 صفحة) بعنوان «ثورة النجف على الإنكليز أو الشرارة الأولى لثورة العشرين»، إذ يقول في مقدمته «وكان في مقدمة من اتصلنا بهم الأستاذ الكبير المرحوم الشيخ محمد رضا الشبيبي الذي حدثنا عن بعض ذكرياته، وأطلعنا على بعض مذكراته

عن الثورة النجفية»[178]. اعتمد الأسدي على الشبيبي مراراً فعلاً[179]. ولقد «استقى مؤلف كتاب «ماضي النجف وحاضرها» المرحوم الشيخ جعفر محبوبة كثيراً وكثيراً من المعلومات الموجودة في كتابه مما كتب الشبيبي نفسه، أشار الشيخ المذكور إلى ذلك في بعض المواقف، ولم يشر في البعض الآخر. . .»[180].

وأخيراً فإنّ مذكرات الشبيبي عن انتفاضة النجف تعاني، كأي حالة مشابهة، من عدد من الهفوات والثغرات[181]، منها ضعف الربط بين أجزائها، ولا سيما في مدخلها الذي يمثل يومياته. لكن ذلك لا ينتقص من قيمة المذكرات الرفيعة علمياً، ومن مغزاها السياسي والأدبي المتمثل في حقيقة معايشة الشبيبي للانتفاضة فكراً وقلماً منذ لحظة انفجارها حتى يوم قمعها، والقضاء عليها.

امتدت آثار الامتعاض والمقاومة إلى أرجاء أخرى من العراق الذي بدأت حركته الوطنية تتبلور أبان تلك المرحلة، وغدت بحاجة أكبر إلى التنظيم والتوجيه والتنسيق. باعتراف المشاركين في الأحداث، والمتتبعين لها كان لمحمد رضا الشبيبي في تلك الظروف جهود مشهودة[182]. فقد قام عدد من شباب النجف الوطنيين بتأسيس جمعية سرية كانت أقرب إلى أن تكون رابطة فكرية تعمل من أجل الاستقلال، تألف أعضاؤها البارزون من محمد رضا الشبيبي وسعيد كمال الدين وأحمد الصافي ومحمد علي كمال الدين وعلي الشرقي وسعد صالح[183].

بذلت الجمعية جهوداً طيبة من أجل تحريك الأذهان ضد المحتل البريطاني، وبدأ نشاطها يتسم بطابع عملي حين حول قادتها مكتبة عبد الحميد الزاهد في النجف إلى أشبه ما يكون بمكتب للثورة، واختاروا مركزاً آخر في محلة الحويش سموه «غرفة السياسة»[184].

كان قادة الجمعية، وبضمنهم الشيخ الشبيبي بالطبع، من أوائل المثقفين العراقيين الذين فكروا في شكل الدولة المقبلة لوطنهم في إطار ملكي نيابي دستوري برئاسة أحد أنجال الشريف حسين بن علي لا لدوره في قيادة الثورة العربية فحسب، بل أيضاً لإيمانهم بأنه سوف يكون عونهم الأساس لتحقيق مبتغاهم[185].

بذل قادة الجمعية كل ما في وسعهم من أجل كسب رجال الدين، وشيوخ العشائر في منطقة الفرات الأوسط إلى جانب قضيتهم[186]، وقد حققوا قدراً من النجاح في مسعاهم هذا الذي رأوا فيه شرطاً أساسياً لفلاحهم، وكانوا على حق في رؤياهم. فبفضل جهود الشبيبي وزملائه تم كسب كل من علوان الياسري وعبد الواحد الحاج سكر وكاطع العوادي وغيرهم ممن قدر لهم أن يؤدوا دوراً مشهوداً في وقائع ثورة العشرين فيما بعد[187]. كما أنهم أقنعوا في الوقت نفسه رجل الدين البارز محمد تقي الشيرازي للانتقال من سامراء إلى كربلاء، وكانوا يهدفون من ذلك استقطاب عناصر إضافية، وحشدها للتحرك الثوري، الأمر الذي أثار حفيظة سلطات الاحتلال البريطاني في العراق[188].

وبعد أن تأسست مكاتب للتنظيم والثورة نتيجة هذه النشاطات، وغيرها أصبح الشبيبي رئيساً لمكتب النجف الذي كان يمثل واحداً من أهم تلك المكاتب. كان مع الشبيبي في مكتب النجف كل من سعد صالح ومحمد عبد الحسين ومحمد باقر الشبيبي وعبد الرزاق عدوة ومحمد رضا الصافي وسعيد كمال الدين وحسين كمال الدين. عقد مكتب النجف أول اجتماع له ليلة الأحد الموافق للسابع عشر من ربيع الأول سنة 1337 هـ/ 21 كانون الأول 1918[189].

فرض مجمل الموقف العراقي الرافض للاحتلال بعض التراجع على البريطانيين[190] الذين بدأوا يقتنعون في وقت مبكر نسبياً بصعوبة حكم العراق

حكماً مباشراً على غرار العديد من مستعمراتهم. في الثاني عشر من آذار سنة 1918 كتب سر ارثر هرتزل (Sir Arthur Hirtzel)، مساعد وكيل وزير الدولة لشؤون الهند، إلى ولسن يقول له:

«إن تيارات مختلفة تماماً تهب الآن، فعلينا أن نغير سياستنا إن أردنا أن نحصل من العراق ما نبتغي. إن الشعارات القديمة لم تعد تجدي، والقضية الآن هي كيف نستطيع أن نحصل على ما هو جوهري بشعارات جديدة. وفي الإمكان تحقيق ذلك، إلاّ أن الأمر يتطلب قدراً من توجه جديد. وربما أن (واجهة عربية) تكون شيئاً أكثر رصانة مما كنّا نريد أصلاً»(191).

وفي الثلاثين من تشرين الثاني من العام نفسه وجهت وزارة الهند برقية إلى ولسن تؤكد فيها «أن حكومة صاحب الجلالة ستساعد على تأسيس حكومة وطنية في المنطقة المحررة كجزء من سياستها، وأنها لا تنوي أن تفرض على الأهلين أي حكومة تكون غير مرغوبة لديهم»(192).

اضطر ولسن إزاء ذلك، وفي ضوء التوجيهات التي وردته من لندن، إلى إجراء استفتاء محدود للوقوف على رغبات العراقيين بصدد المستقبل السياسي لبلادهم، كان للشبيبي صوت مسموع فيه.

موقف محمد رضا الشبيبي من استفتاء العام 1919:

ورد في برقية وزارة الهند المؤرخة في الثلاثين من تشرين الثاني 1918 نصّ صريح حول مستقبل الحكم في العراق، يقول «إننا مهتمون في الوقت نفسه بمسألة إقامة أفضل حكومة (في العراق). ويسرنا أن نحصل على أي مساعدة، أو مشورة يكون في استطاعتكم، وفي استطاعة مستشاريكم أن يقدموها حول هذا الأمر. وإننا نرغب بصورة خاصة أن تقدموا إلينا بياناً موثوقاً

حول وجهة نظر السكان المحليين في مختلف المناطق حول الأمور المحددة الآتية: -

1 - هل يرغبون في دولة عربية واحدة تحت الوصاية البريطانية تمتد من الحدود الشمالية لولاية الموصل حتى الخليج. . . ؟.

2 - هل يرغبون في هذه الحالة في رئيس عربي بالاسم يرأس هذه الدولة الجديدة؟.

3 - من هو الرئيس الذي يريدونه في هذه الحالة»[193].

اختتمت وزارة الهند برقيتها بالتأكيد على أن «من المهم جداً في نظرنا أن يكون التعبير عن آراء السكان المحليين حول هذه الأمور حقيقياً، بحيث يكون إعلانه للعالم تعبيراً نزيهاً عن رأي سكان العراق»[194].

في ضوء هذه التعليمات استدعى الحاكم العام البريطاني وكالة معظم الحكام السياسيين في الألوية والأقضية للتشاور معهم حول موضوع الاستفتاء، كما قام بنفسه بجولات في بعض المناطق، وكان شخصياً يميل إلى أن تأتي نتائج الاستفتاء باتجاه يعزز الوجود البريطاني في العراق، يشاطره في ذلك معظم الحكام السياسيين البريطانيين. من هنا فإن قدراً واضحاً من التزوير رافق عملية الاستفتاء الشكلية التي أجراها هؤلاء الحكام الذين كان «بعضهم يستدعي معارفه ويكلفه توقيع مضابط يطلبون فيها استمرار الحالة الراهنة، والبعض الآخر يوعز بأن تتضمن هذه المضابط طلب الحماية البريطانية المطلقة، ويسعى غيرهم لجعل هؤلاء المعارف أكثرية تطلب أميراً عربياً تحت الهيمنة البريطانية»[195].

لكن المسؤولين البريطانيين لم يكن بوسعهم التأثير على إرادة المثقفين المجددين الذين أصبح لهم دورهم، ووزنهم الواضح في المجتمع العراقي يومذاك. فقد اتخذت بعض مناطق تمركزهم مواقف وطنية من الاستفتاء،

كانت بغداد والنجف أبرز تلك المناطق قاطبة، حتى أن ولسن، الحاكم المدني العام وكالة، اضطر إلى تأجيل الاستفتاء في بغداد إلى حين معرفة نتائجه في المدن الأخرى[196].

دبّ في النجف نشاط ملموس بسبب قرار الاستفتاء، فقد تبادل زعماؤها الرسائل مع زعماء كربلاء بخصوصه[197]. ووصل المدينة كاظم الدجيلي خصيصاً بهدف تنسيق العمل من أجل تقديم مضابط مغايرة للمضابط التي كانت سلطات الاحتلال تخطط لها، وقد جرى اعتقاله بسبب ذلك[198].

دفع تطور الأحداث ولسن إلى زيارة النجف شخصياً يوم الحادي عشر من كانون الأول سنة 1918 لعلّه يؤثر بذلك في موقف زعمائها من الاستفتاء، لما كان يتوقعه من انعكاس ذلك على موقف المناطق الأخرى. اجتمع ولسن بعدد من أبرز شخصيات المدينة وتوابعها[199]، كان محمد رضا الشبيبي واحداً منهم. كما حضر الاجتماع حاكم النجف والشامية يومئذٍ الميجر نوربري[200]. عرض ولسن على المجتمعين الغاية من لقائه بهم، وطرح عليهم الأسئلة الثلاثة نفسها بشأن شكل الحكم الذي يرغبون في إقامته أولاً، والحدود التي يرنون إليها ثانياً، وجنسية الحاكم الذي يريدونه ثالثاً.

سجل لنا الحسني صورة معبرة عما دار في الاجتماع، آثرنا نقل نصها دون تصرف، خصوصاً وأن من شأن ذلك أن يجسد لنا دور الشبيبي المشرف وقناعاته، فضلاً عن جرأته. يقول الحسني:

«وبعد أن استقر المجلس[201] بالحاضرين أعلن ولسن الغاية من هذا الاجتماع، وهي أن بريطانيا وحلفاءها قرروا استخراج رأى سكان البلدان المحررة من السلطة العثمانية في شكل الحكومة التي يختارونها. ثم عرض الأسئلة المذكورة وطلب الإجابة عليها. فسأله الحاج عبد المحسن شلال: هل أن حكومته تريد أن تعامل العراقيين بهذه المعاملة رأفة منها بحال السكان، أم

أن هنالك عوامل أخرى تستدعي هذا الاستفتاء؟ فأجابه الحاكم العام: إن بريطانيا عادلة، ومن عدلها أنها تريد معرفة رأي السكان في تقرير مصيرهم. فنهض السيد هادي النقيب[202] وقال: «لا نريد غير الإنكليز»، وشرح أسباباً لهذا الطلب. فرد عليه الشيخ عبد الواحد الحاج سكر قائلاً: «بل نريد حكومة وطنية عربية». فسأل الحاكم هذا الشيخ قائلاً هل هذا هو رأيك، أم رأي الجميع؟ فأجابه هو رأيه الشخصي، ولا بد من أن أكثر الحاضرين يؤيدونه.

فانتصب الشيخ محمد رضا الشبيبي فقال:

«إن الشعب العراقي يرتأي أن الموصل جزء لا يتجزأ من العراق، وأن العراقيين يرون من حقهم أن تتألف حكومة وطنية مستقلة استقلالاً تاماً، وليس فينا من يفكر في اختيار حاكم أجنبي».

فاحتدم الحاكم غيضاً، وقاطع المتكلم مراراً، ضارباً بيده على المنضدة التي أمامه. وحاول أن يطلع على رأي بقية المدعوين، فلم يعترضوا على الأقوال السالفة. فكانت تلك أول مجابهة جوبهت بها سياسة الاحتلال، وطواغيت المحتلين، ثم سرت في العراق سريان النار في الهشيم»[203].

ومما يضفي على موقف محمد رضا الشبيبي المتحدي[204] طابعاً خاصاً هو أن العديد من أبرز متنفذي المنطقة لم يكونوا على رأيه الذي طرحه هو في الاجتماع، كما يبدو ذلك واضحاً من كلام نقيب الأشراف هادي الرفيعي الذي أورده الحسني. لكن الأخطر من ذلك هو الرأي السلبي الذي أبداه رجل الدين المؤثر كاظم اليزدي الذي اجتمع به ولسن خصيصاً في منزله بالكوفة بعد وصوله إلى مدينة النجف[205].

تحدثت مصادر أخرى كثيرة عن هذا الحدث التاريخي الذي كان الشبيبي

أحد أبطاله الرئيسيين، والذي جعله، مع مواقفه الأخرى في تلك المرحلة، ضمن «الشباب القومي المثقف» والمتحمس للقضايا الوطنية في نظر دارسي تطور العراق السياسي في سنوات الاحتلال[206]. أما الشبيبي نفسه فقد عد موقفه رد فعل مشروعاً على فظاظة المسؤولين البريطانيين، دون أن يضفي عليه هالة كان جديراً بها في الواقع، فيقول:

«الواقع أن أشقّ ما كان يشقّ على البريطانيين يومئذٍ هو ذلك الشعور الحي بالكرامة لدى أبناء العراق الأحرار، ولنا أن نقول إن جملة من الحوادث التي أريقت فيها الدماء نشأت في العراق عن خشونة في اللهجة، أو عجرفة استعمارية في اللقاء، اعتبرها الجانب العراقي جارحة لكرامته، ماسة بشرفه»[207].

على الرغم من محاولات ولسن للالتفاف حول مطاليب العراقيين الحقيقية بتشويه نتائج الاستفتاء، ونقل صورة غير حقيقية عنه إلى لندن[208]، إلاّ أن العملية بحدّ ذاتها أسهمت في تحريك موضوع إقامة حكم وطني باتجاه إيجابي، وذلك بفضل موقف الوطنيين العراقيين من أمثال الشبيبي الذي أصبح مؤهلاً أكثر من السابق لأداء أدوار أهم، وأخطر في خضم النضال الشاق من أجل الاستقلال. كما أن الاستفتاء تحوّل في الواقع إلى عامل إضافي دفع القادة العراقيين لتوسيع نطاق اتصالاتهم من أجل قضيتهم الوطنية، وهنا أيضاً قدر للشيخ الشبيبي أن يؤدي دوراً متميزاً.

إيفاد محمد رضا الشبيبي إلى الحجاز والشام:

في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى أدرك عدد من قادة العرب خارج العراق أن طبيعة الظروف العالمية الجديدة تتطلب التحرك على الصعيد الدولي باعتبار ذلك وسيلة مطلوبة لإيجاد حل عادل لقضايا أقطارهم، فسافر

الأمير فيصل من أجل ذلك إلى كل من روما ولندن وباريس، وفي الأخيرة ألقى خطاباً ناجحاً أمام مؤتمر الصلح، فيما زار الزعيم المصري سعد زغلول العاصمة الفرنسية بهدف لقاء ممثلي الولايات المتحدة الأمريكية، ولا سيما شخص الرئيس ودرو ولسن[209].

بدأ عدد من القادة العراقيين يدركون بدورهم ضرورة مثل ذلك التحرّك، ولا سيما بعد أن بلغتهم أنباء نشاطات إخوانهم العرب بهذا الاتجاه[210]. وقد اتخذت بعض الخطوات في بغداد فعلاً من أجل إرسال وفد إلى دمشق لهذا الغرض، والذهاب من هناك إلى باريس إذا اقتضى الأمر ذلك، إلّا أن موقف سلطات الاحتلال حال دون تحقيق خطة وطنيي بغداد[211].

كان محمد رضا الشبيبي واحداً من أكثر الوطنيين تحمساً للتشاور مع القادة العرب بصدد مستقبل العراق السياسي، وعرضه على مؤتمر الصلح عن طريق الأمير فيصل، وبذل نشاطاً ملموساً من أجل تحقيقه. يقول حسن الأمين في ترجمته للشيخ الشبيبي بهذا الخصوص ما نصه:

«. . .لما أخذت السلطات الإنكليزية المحتلة تماطل، وتسوف في تلبية مطالب العراقيين، والاعتراف بحقوقهم المشروعة، وقد أعلنوها وطالبوا بها مراراً، خصوصاً بعد إجراء الاستفتاء الذي تقدم ذكره، ولما كان قادة الثورة العربية في سوريا والحجاز يجهلون ما يجري داخل العراق من صراع عنيف بين أحرار البلاد والسلطات الإنكليزية، وكان من الضروري إعلام زعماء العرب خارج العراق بحقيقة الحال هناك، فكر صاحب الترجمة (الشبيبي) بأن يقوم بهذه المهمة، ففاتح[212] بذلك فريقاً من أصدقائه وزملائه العاملين من علماء ورؤوساء وغيرهم من الشباب الناهض، وأقنعهم بضرورة تنفيذ هذه الفكرة، فوافقوا

على رأيه»[213].

ومهما يكن من أمر فقد عقد اجتماع سري لهذا الغرض في دار علوان الياسري في النجف بتاريخ السابع والعشرين من رجب سنة 1337 هـ/ 29 نيسان 1919م[214] حضره مندوبون من مدن ومناطق مختلفة فضلاً عن النجف نفسها. اتّخذ المجتمعون سلسلة من القرارات، نص البند الخامس منها على ضرورة «الخروج بالنهضة من نطاقها الضيق، وتعريف سائر الأقطار العربية بأهداف العراق، على الأخص القطر الحجازي وسيده الملك حسين»[215]. وفي هذا الاجتماع تقرر أيضاً إيفاد الشبيبي إلى الحجاز وبلاد الشام بإجماع الآراء. سجل لنا الحسني مرة أخرى صورة معبرة بهذا الخصوص نرى من الضروري نقلها إلى هنا كما هي نظراً لأهميتها البالغة بالنسبة لموضوعنا. يقول الحسني:

«ورأى الفراتيون أن ما قاموا به من الأعمال لبيان رأيهم في شكل الحكومة الواجب إقامتها في العراق لم تكن كافية، فقرروا الاتجاه بأفكارهم إلى خارج العراق لبثّ الدعاية اللازمة للقضية العراقية تنفيذاً للقرار الخامس الذي اتخذه المؤتمر السري الأول في بيت السيد علوان الياسري، وفكروا في انتداب من يقوم بهذه المهمة الخطيرة في سوريا والحجاز، فوقع اختيار الطبقات على اختلاف درجاتهم من زعماء الفرات، وعلماء النجف وكربلاء والحلة، وشباب البلاد المثقف على انتداب الشيخ محمد رضا الشبيبي ونظموا بذلك مضابط كثيرة موقعاً عليها من قبلهم وكلها تنطق إجمالاً بانتدابه لبسط ما جرى في العراق من استفتائهم، وما أجمعوا عليه من اختيار أحد أنجال الشريف حسين ليكون ملكاً على العراق، وطلب إنشاء حكومة دستورية مستقلة استقلالاً تاماً خالياً من الحماية والانتداب، وصرحوا في كتبهم إلى الحسين بأنهم مستعدون لتضحية النفس والنفيس في سبيل تحقيق هذه الغايات إذا لم تذعن السلطة البريطانية لمطالب العراقيين»[216].

جرت بعد الاجتماع اتصالات أخرى بأوساط مدنية وعشائرية مختلفة بسرية تامة، وبأساليب ذكية كان للشبيبي حضوره الواضح فيها. يتحدث عبد الحميد الزاهد في مذكراته عن مضبطة تم إعدادها من عدد من مثقفي النجف في بيت الشبيبي في العام 1919 ختمت باسم «جمعية الشبيبة الغروية» وأرسلت إلى دمشق مع مضابط أخرى تدعو إلى استقلال العراق[217]. كما دوّن الشبيبي رسالة خاصة حول مهمته المنتظرة كانت تنقل بأيد أمينَة إلى المعنيين مخفية خصيصاً داخل أغلفة الكتب[218]، ويتسلم أجوبتها بالطريقة نفسها، وكانت الأخيرة تتضمن عادة تخويله للقيام بمهمته. وفي ضوء ذلك أعد الشبيبي، باستشارة قادة الرأي، مضابط موجهة إلى شريف مكة هذا نص إحداها[219]:

«إلى ملك العرب الحسين بن علي:

السلام عليك ورحمة الله. أما بعد. فإن الحلفاء في الحرب العظمى أذاعوا على سكان العراق في هذه الأيام منشوراً عاماً فحواه: أنهم لم يحاربوا إلّا لتحرير الشعوب، وأن يكون لكل شعب من الشعوب حق تقرير مصيره بنفسه، وإدارة شؤونه من قبله، ولم يكن لهم نية الفتح والاستعمار، وبناء على هذا طاف الحاكم الملكي العام في العراق، واجتمع بكافة الزعماء والرؤساء والعلماء، طالباً إليهم أن يبدوا رأيهم في النقاط التالية: ـ

1 ـ في حدود المملكة العراقية، وما إذا كانت الموصل جزءاً من العراق أم لا؟.

2 ـ في الحكومة التي يرغبون فيها، والأمير الذي يملكونه في البلاد.

وبعد المداولات والمذاكرات أبلغوا الحاكم السياسي البريطاني العام في العراق بأن الموصل جزء لا يتجزأ من العراق، وطلبوا إليه تأسيس حكومة

عربية دستورية، على أن يكون أحد أنجال جلالتكم ملكاً على العراق كما يبلغكم تفصيله المندوب من قبل عموم العراقيين الشيخ محمد رضا الشبيبي والله ولي التوفيق، التواقيع. . .»[220].

إن المضابط التي حملها الشبيبي معه كانت بمضامين متقاربة، لكنها كانت تمثل ثلاث فئات اجتماعية ـ علماء الدين، ورؤساء العشائر، والشباب القومي[221]. وكان على الشبيبي، فضلاً عما تقدم، أن يطلب من الحسين أن «يكشف النقاب عن حقيقة حال العراقيين[222] في أوربا، ولدى مؤتمر السلام ليعطف هذا على أمانيهم ومطاليبهم»[223].

بدأ الشيخ الشبيبي سفرته بسرية تامة، وتوجه أولاً إلى الناصرية لاستكمال مهمته، ومنها انتقل إلى الشطرة، واتصل بزعماء الغراف، ومن ثم توجه صوب البصرة يحدوه الأمل بالسفر بحراً إلى الحجاز. ومن الشطرة رافقه الشيخ إبراهيم أطيمش[224].

تعذر على الشبيبي السفر عن طريق البصرة، وحين أحس أن سلطات الاحتلال بدأت تتابع تحركاته انتقل إلى الزبير على جناح السرعة. تشير المصادر إلى أنه «في الساعة التي غادر فيها. . . الشبيبي مدينة البصرة متوجهاً إلى الزبير كبست السلطة المحل الذي كان يقيم فيه. . . فلم تعثر على شيء»، وكان ذلك في أواخر شوال 1337 هـ/ أواخر تموز 1919 م[225].

توجه الشبيبي من الزبير صوب الحجاز برفقة قافلة عن طريق البادية «راكباً متون الأخطار في طريق نجد المملوء بحروب الإخوان المغيرين على كل مخالف لهم هناك» حسب وصف البصير لسفرته[226]. وكما تؤكد بعض المصادر فإن الشبيبي «قاسى الأمرين» في رحلته التي تصفها بـ«الرحلة الشاقة»[227].

وصل الشيخان الشبيبي وإبراهيم أطيمش جبل الشعر وأراضي أمارة آل الرشيد في شمال نجد بعد مسيرة استغرقت خمسة عشر يوماً[228]. وفي طريقهما إلى مكة اجتمع الشبيبي في وادي فاطمة بالأمراء علي وعبد الله وزيد، أنجال الحسين، وكانوا مسبوقين بسفره إلى الحجاز، وجرى الاتفاق هناك على لقاء الحسين الذي تم في أم القرى بعد أيام بحضور الأميرين علي وعبد الله. علم الشريفيون تفاصيل الوضع في العراق، ووقفوا على مطاليب أهله في الاجتماعين، وتسلم الحسين في الاجتماع الثاني المضابط التي كان يحملها الشبيبي إليه، فأرسلها بدوره إلى الأمير فيصل الذي كان على اتصال مباشر بالحلفاء، والبريطانيين منهم خصوصاً[229]. كما بعث الحسين برسائل إلى عدد من الزعماء العراقيين ردّاً على ما حمله إليه الشبيبي منهم، وهذا نص واحدة منها، وهي تحمل ختمي «الديوان الهاشمي»، و«الحسين بن علي»:

«بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وحده.

من الحسين بن علي إلى المجتهد الأفضل، والحبر الأكمل مولانا الشيخ محمد تقي الشيرازي.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وأنه في أهنأ الساعات تلقينا محرركم الكريم وطيه صور افاداتكم للجنة وعلم مآل الجميع. وإني بعنايته تعالى سأبذل كل ما في الجهد لحصول رغائبكم، وكيف لا أقول ذلك وأنها هي أحد أساسيات الأعمال التي ارتكبنا من جهتها التهلكة. فكونوا مطمئنين بالله سبحانه وتعالى بأنّا على ما تؤملون. أما الفوز برغائبكم، بل رغائبي فيكم التي هي قرة عيني، أو ترك الدنيا وما فيها، والله يتولانا وإياكم بتوفيقه فإنه يخلق ما يشاء ويختار، وسلامي عليكم كافة ورحمة الله وبركاته. 24 ذي الحجة 1337[230] [231].

لاحظ الشيخ الشبيبي حرص الحسين بن علي على القضية العربية، كما لاحظ بوادر خيبته في الحلفاء، فقد ذكر ما نصه بهذا الخصوص:

«إن الحسين كان يتضرم غيرة على العرب وقضيتهم، وأنه كان شاعراً بمسؤولية عظمى ينوء بثقلها، وقد بدرت منه بوادر تدلّ على تزعزع ثقته بالحلفاء الذين انضمّ إليهم في الحرب العظمى مقاتلاً الأتراك»(232).

لكن الشبيبي لم يكن مرتاحاً، مع ذلك، من حالة التسيب التي لاحظها في مؤسسات الثورة ونظامها في الحجاز، والتي اطّلع على جانب منها عن طريق الضباط العراقيين والسوريين والفلسطينيين الذين التقاهم قبل اجتماعه بالحسين، وقد طلبوا منه عرض الموضوع على الأخير خصيصاً. سجل لنا الشبيبي نفسه ذلك الأمر قائلاً:

«وقد صدمتنا، والحق يقال، مظاهر مؤلمة من الجمود، والتأخر قد تبعث شيئاً من اليأس في النفوس، وأسوأ ما صدمنا به الواقع في المدينة ومكة، وفي الأحياء الواقعة بين الحرمين، ولدى من قابلناهم... فقدان المنهاج، أو الخطة المرسومة للنهوض بالبلاد... وقد زارنا كثير من الضباط وقادة الجيش العربي، وفيهم ضباط عراقيون من رتب لا بأس بها، وشكوا إلينا مرّ الشكوى من الإهمال، ومن الكسل البالغ، وقلة العناية بشؤون البلاد من شتى نواحيها الإدارية والثقافية والعسكرية والاجتماعية»(233).

مكث الشبيبي أربعين يوماً، أو أكثر بقليل في الحجاز لم يمارس أثناءها أي نشاط أدبي، أو فكري خاص، فلم يترك لنا سوى وصف موجز لوادي فاطمة قرب مكة(234). يبدو أن السياسة ومشاغلها بدأت تستحوذ على الجانب الأكبر من اهتمامات الشبيبي منذ ذلك الوقت، إذ لم يعد يمارس النشاط الأدبي

والفكري الصرف إلاّ ما ندر. قال الشبيبي شخصياً عن ذلك فيما بعد «ما في شك. . . أن أعباء السياسة كان لها الأثر الأكبر» في «انقطاعي عن الشعر»[235].

سافر الشيخ الشبيبي من الحجاز إلى سوريا في رحلة استغرقت خمسة وعشرين يوماً، وبقي في دمشق على مدى أشهر التقى خلالها الأمير فيصل وشقيقه الأمير زيد مراراً، وأصبح على اتصال وثيق بزعماء النهضة القومية السورية، وقادة النظام الذي أقامه الأمير فيصل في سوريا، فضلاً عن الضباط العراقيين الذين كان لهم دور بارز في الأحداث العربية عموماً، والسورية خصوصاً. إنه كان يتردد بين الحين والآخر على ديوان الأمير فيصل الذي كان يقع في أقصى حي المهاجرين في دمشق، وكان يحضر مع الأمير فيصل المجالس، والمحافل التي كان العراقيون يقيمونها هناك[236]، كما «اجتهد ياسين الهاشمي وصحبه بالمشورة»[237] وحسبما تؤكد المس بيل فإن الشبيبي نشر في تلك الأيام «مقالات عنيفة ضد البريطانيين» في الصحف المحلية[238]. ورد في «الترجمة الذاتية» للشبيبي ما نصه حول الموضوع نفسه:

«وقد أقيمت في دمشق وغيرها من الحواضر السورية كبيروت وصيدا في ذلك الحين حفلات تكريمية له. وقد انتهز فرصة وجوده في سوريا فراح يدافع عن حقوق العراق. وله في هذا المضمار مقالات وقصائد معروفة نشر منها في الصحف والمجلات الصادرة في الشام وبيروت وصيدا في ذلك الحين»[239].

بحكم واقع سوريا، وظروفها يومذاك، وبحكم المدة الطويلة نسبياً التي قضاها فيها، مارس الشيخ الشبيبي في دمشق فعلاً نشاطاً فكرياً وسياسياً ملحوظاً. فقد نظم أثناء إقامته فيها عدداً من قصائده المعروفة، منها «الهيام بين العراق والشام» التي يقول عنها أنه «أنشأها أواخر أيام إقامته في دمشق سنة 1339هـ/ 1920م، وقد اشتاق جداً إلى العراق»[240]. ومع وصوله مدينة صيدا قال فيها قصيدة وصفية عن ربيعها، وشتائها، وعن أصدقائه فيها[241]. كما

ألقيت نيابة عنه قصيدته المعروفة «رثاء الشهداء» في حفلة تأبين ضحايا جمال السفاح التي أقيمت في دمشق بعد وصوله إليها بمدة، يقول الشبيبي عن قصيدته تلك:

«ألقيت في حفلة تأبين الشهداء التي أقيمت في دمشق سنة 1339 هـ/ 1920م، وكانت أعظم حفلة عامة أقيمت تذكاراً لشهداء عسف السياسة التركية من العرب، وذلك خلال الحرب العامة الماضية، وقد ألقاها أديب مشهور من أدباء الشام على الجمهور المحتشد لهذه الغاية في ساحة المرجة»[242].

اشترك الشبيبي في المؤتمر العراقي الذي جرى عقده بساحة المرجة بدمشق[243] يوم الثامن عشر من جمادي الأولى سنة 1338 الموافق للثامن من آذار سنة 1920م، وقد حضره خمسة وعشرون مثقفاً عراقياً بين عسكري ومدني، منهم توفيق السويدي وناجي السويدي وجعفر العسكري وبكر صدقي وجميل المدفعي وعلي جودت الأيوبي ورشيد الهاشمي وثابت عبد النور وغيرهم، أما الشبيبي فقد مثل بغداد فيه. وقد أعلن المؤتمر استقلال العراق، وقرر اختيار الأمير عبد الله ملكاً عليه، والأمير زيد نائباً له.

تطرق المؤتمرون إلى موضوع مضابط قادة الرأي العراقيين، ومطاليبهم التي ضمنوها. وقد ورد النص الآتي في الرسالة التي بعثها رئيس المؤتمر توفيق السويدي إلى الأمير عبد الله بخصوص قرارات المؤتمر، ولا سيما قرار الاستقلال وقرار اختياره ملكاً لعرش العراق:

«استناداً[244] إلى حق الأمة الطبيعي في الحياة الحرة، والاستقلال التام، وإلى المبادىء السامية التي أعلنها الحلفاء العظام أكثر من سبعين مرة خلال الحرب الماضية، **وإلى الرغائب التي أعلنت عنها الأمة العراقية في 6 ربيع الثاني 1337 هـ**[245] بوثائق رسمية وقعها الأمراء والرؤساء والزعماء والمفكرون وسائر طبقات الشعب، وإلى ما نشاهده كل يوم من عزم العراقيين على نيل

استقلالهم التام، والتوسل بكل الوسائل الممكنة التي تؤدي إليه، وبصفتنا ممثلي الشعب المكلفين بالإعراب عن إرادته، أعلنا الآن بإجماع الآراء استقلال البلاد العراقية المسلوخة من تركيا. . .»[246].

تحول المؤتمر إلى عامل إضافي لتحريك القضية العراقية، ولا سيما أن أخباره بدأت تصل العراق تباعاً. كما أن المؤتمر بعث مذكرة إلى الدول الكبرى ضمنها قراراته[247]. ومما زاد من تأثير المؤتمر وقراراته أنهما جاءا مباشرة بعد فرض الانتداب البريطاني على العراق الذي أثار حفيظة العراقيين بقوة[248].

بقي الشبيبي يتابع أحداث الوطن وهو في سوريا، وقد هزه قرار وضع العراق تحت الانتداب البريطاني، إذ عدّ الأمر انتقالاً من ظلم معلوم إلى آخر مجهول، ومن استبداد فوضوي إلى آخر منظم، ومن سلطان دولة ضعيفة إلى سيطرة دولة قوية تمتلك السلاح والخبرة والمال، فكان ذلك إدراكاً سياسياً رصيناً منه[249].

وعندما بدأت إرهاصات ثورة العشرين، وظهرت مقدماتها تابع أخبارها بقلق وتلهف، وبذل كل ما في وسعه من أجل دعمها. التقى الشبيبي فيصلاً من أجل ذلك خصيصاً بحضور كل من ياسين الهاشمي وجعفر العسكري وأحمد شوقي الحسيني[250]، وأثار معه موضوع تقديم السلاح للثوار العراقيين[251]. وحسبما يؤكد جعفر الخليلي، وهو شاهد عيان، أن أول علم عراقي رفع على سراي كربلاء أيام ثورة العشرين كان الشبيبي قد بعث بصورته من دمشق[252] بوساطة رسول دخل كربلاء عن طريق الأخيضر، وقام ضياء زيني[253] بخياطته[254]. يعلق الخليلي على ذلك فيقول «وكان هذا العلم الذي بعث بصورته الشيخ الشبيبي أول علم عراقي رفعه العراق»[255].

لم يكن بوسع محمد رضا الشبيبي وزملائه أن يقدموا ما كانوا يحلمون

به، ويخططون له من خدمات للثوار العراقيين عن طريق سوريا، ذلك لأن أوضاع الأخيرة بدأت تسوء من يوم إلى آخر، وتقترب من حالة تفجر، وصدام مباشر بالفرنسيين. فقد وجه هؤلاء إنذاراً نهائياً إلى حكومة فيصل في الرابع عشر من تموز سنة 1920، ثم بدأ زحف قواتهم على دمشق التي انسحب منها الأمير فيصل ودخلها الفرنسيون يوم الخامس والعشرين من تموز بعد انتصارهم في اليوم السابق على القوة التي كان يقودها وزير الحربية السوري يوسف العظمة في معركة غير متكافئة وقعت في ميسلون[256].

راقب الشبيبي هذه الأحداث التي تركت أثراً عميقاً في نفسه، كيف لا وقد شهد، حسب وصفه هو، دخول «الجنرال غورو[257] على رأس جيوشه، وجلها[258] من الأفارقة السود إلى مدينة الشام دخول الظافر الفاتح، فاخترق شارع بغداد إلى سوق الحميدية، فالجامع الأموي، ومنه اتجه إلى مقبرة صلاح الدين على شكل يُشعر بضرب من التشفي والانتقام»[259].

سجل لنا الشبيبي بعض الحقائق النادرة عن وقائع الشام في تلك المرحلة الحرجة من تاريخها الحافل، أهمها قاطبة هي أن المسؤولين في حكومة فيصل عرضوا «قيادة الجيش العامة في ساعة المحنة على بعض الضباط العراقيين المعروفين فاعتذروا، بعد قيامهم بالكشف على وحدات الجيش، وتفتيش الثكنات، قائلين إن جيش دمشق، أو ما يسمى كذلك في ذلك الحين، لا يعول عليه، ولا يعقد به كمّاً وكيفاً»[260]. وكان ياسين الهاشمي من بين الذين عرضت عليهم قيادة الجيش العامة كما ذكر ذلك للشبيبي الذي التقى به مباشرة بعد تكليفه، وذلك «في منزله بصالحية دمشق» حيث أعرب الهاشمي «له عن رأيه في مبلغ كفاءة ذلك الجيش»[261].

ومن الضروري أن نشير هنا إلى أن ما تنبأ به شاعرنا الشبيبي في قصيدته السالفة الذكر «دمشق وبغداد»[262] بصدد أطماع فرنسا وبريطانيا، وخططهما قد

تحقق فعلاً بعد مرور حوالي عامين على نظمها. سجل الشبيبي تعليقاً بهذا الخصوص على النسخة الأصلية من القصيدة هذا نصه:

«كنا في دمشق ساعة دخول الجنود الفرنسيين دمشق...، أي بعد مضي سنتين على تاريخ نظم القصيدة في العراق. فقال الشاميون: لقد صحّ الآن مضمون هذه القصيدة»[263].

لم تفارق ذكرى الشام وأحداثها ذهن الشبيبي للأخير. فقد استهلّ رائعته «في ذكرى شاعر» التي ألقاها في مهرجان المتنبي بدمشق فيما بعد[264] بالقول:

يا قلب عادك من دمشق عائد	والذكريات من الحبيب تعاود
أيام ننشد في الجزيرة غاية	يسمو بفكرته إليها الناشد
ما بيننا إلاّ شباب طامح	أو ثائر، أو ناقم، أو واجد[265]

كان وقع القصيدة على المحتفلين كبيراً. يقول جعفر الخليلي عن ذلك، وهو هنا شاهد عيان أيضاً: «لعلّ[266] آخر ما نظم الشبيبي كانت القصيدة التي تليت في مهرجان المتنبي بمدرج الجامعة السورية... وقد حضرت هذا المهرجان أنا وجعفر الشبيبي ومحمد حسين الشبيبي، وشاهدت بنفسي وقع هذه القصيدة في نفوس المحتفلين...»[267].

بعد سقوط حكومة فيصل في سوريا بقي محمد رضا الشبيبي مع عدد من العراقيين في دمشق دون أن يتحرش بهم الفرنسيون لأنّ معظمهم كانوا معروفين بميولهم المعادية للوجود البريطاني في العراق، بل ان بعضهم، مثل ياسين الهاشمي، كانوا مراقبين من البريطانيين، الأمر الذي أشار إليه الشبيبي نفسه[268].

لم يكن بوسع الشبيبي العودة إلى العراق مباشرة بسبب الأوضاع القائمة فيه يومذاك، وكانت صحافة دمشق الموالية للفرنسيين تتحدث عنها بأسلوب لم

يخل من قدر من المبالغة بهدف الإمعان في تشويه سمعة البريطانيين. لكن الشبيبي كان، مع ذلك، أول من قرّ رأيه على العودة بين زملائه الذين بقي على اتصال مباشر بهم في دمشق، ولا سيما مع ياسين الهاشمي الذي لم تنقطع اتصالاتهما حتى بعد عودة الأول إلى الوطن. لخّص لنا الشبيبي موضوع عودته هكذا:

«هذا وقد آثر (المترجم له) العودة من دمشق إلى الوطن فور الاحتلال الفرنسي وذلك قبل غيره من أبناء العراق وبعد أن مكث في أرجاء الشام مدة سنة كاملة. وفي هذا الصدد رغب إليّ ياسين الهاشمي[269] وهو يودعني أن لا تنقطع المراسلة بيننا، واتفقنا على استخدام ضرب من الإشارات الرمزية في الكتابة في محاولة لكتمان الأسرار عن علم السلطات المحتلة الغاشمة، وسماسرتها في العراق والشام... ولم تطل إقامة المترجم له بعد ذلك في سوريا، فبارح الشام في خريف سنة 1920[270] عائداً إلى العراق بطريق البادية، وعلى ظهور الجمال. وقد قطعوا المسافة بين دمشق وبغداد في خمسة وعشرين يوماً، ووصل بغداد مع رفيق له من الضباط العراقيين[271] متنكرين، فوجد كثيراً من أصدقائه مبعدين إلى خارج العراق، أو معتقلين داخل البلاد، أو مشردين. ولما اطمأن في بغداد اتصل بأهله وإخوانه، واجتمع بكثير من قادة الرأي ورجال الأحزاب والجمعيات السياسية»[272].

لا شك أن أحد أسباب حذر الشبيبي الكبير أثناء عودته كان ناجماً عن النشاط الكبير الذي مارسه شقيقه محمد باقر الشبيبي في وقائع ثورة العشرين منذ اليوم الأول من اندلاعها، فقد أشرف «على إصدار جريدة «الفرات»»[273]، وحرر بنفسه معظم مقالاتها النارية، إنه أراد من «الفرات» أن «تكون وسيلة تنمو بها حركة الأفكار، وتتم بواسطتها أسباب النهضة ودواعي الاستقلال»، فكشف من أجل ذلك على صفحاتها فضائح المحتلين «بأسلوب لغوي رفيع

قلّما وجد له مثيل في صحافة العراق»، مما جلب عليه حقد البريطانيين، فاضطر إلى الاختفاء في الشطرة في الوقت نفسه الذي وصل فيه محمد رضا الشبيبي بغداد[274].

بعودة الشيخ الشبيبي إلى العراق تبدأ مرحلة جديدة في نشاطه الفكري والسياسي، التي تزامنت مع سنوات الانتداب البريطاني، والجانب الأكبر من حكم الملك فيصل الأول للعراق، وهي مرحلة حافلة بالأحداث والتطورات قدر لمحمد رضا الشبيبي أن يكون له دوره فيها ضمن رهط المثقفين المجددين الذين اختاروا الوطنية الصادقة نبراساً لهم.

هوامش

(1) فيليب ويلارد آيرلاند، العراق. دراسة في تطوره السياسي، ترجمة جعفر الخياط، بيروت، 1949، ص 1.

(2) ارتبط العراق بالدولة العثمانية منذ العام 1534م، عندما دخل بغداد السلطان سليمان القانوني منهياً بذلك حكم الصفويين له.

(3) محمود العبطة، الديمقراطية في العراق، الجزء الأول، النجف، 1960، ص 15.

(4) «العرفان»، الجزءان الخامس والسادس، نيسان 1921، ص 209 - 211.

(5) ورد خطأ في ديوانه المطبوع شباط 1914، ذلك لأنّ ربيعا الثاني من العام 1333 للهجرة يقابله في التقويم الميلادي السادس من شباط حتى الخامس من آذار عام 1915، ثم إن الأحداث التي يرويها الشبيبي في قصيدته تقتضي تاريخاً يبدأ من أواسط العام 1914 لا بداياته.

(6) أنظر نص القصيدة في:

«ديوان الشبيبي»، ص 15 - 18.

(7) «السيرة الذاتية»، الورقة رقم 3.

(8) دار صدام للمخطوطات، رقم الملف 34715، موضوع الملف: محمد باقر الشبيبي.

(9) «العربي»، العدد 159، فبراير 1972، ص 76؛ عبد الرزاق الهلالي، دراسات وتراجم عراقية، ص 19.

(10) للتفصيل عن ذلك أنظر:

الدكتور عبد الله الفياض، الثورة العراقية الكبرى سنة 1920، الطبعة الثانية، بغداد، 1975، ص 149 - 153.

(11) منهم أستاذه في الفقه حبوبي النجفي (أنظر الهامش 35 في الفصل الأول والهامش

التالي في هذا الفصل) الذي أفتى بالجهاد ضد البريطانيين في بداية الحرب. خير الدين الزركلي، الأعلام، المجلد السادس، ص 142.

(12) أنظر ما ذكره بهذا الخصوص في قصيدته «شهيد الدفاع» التي قالها لمناسبة وفاة الشاعر محمد سعيد بن السيد محمود الحسني الشهير بحبوبي النجفي يوم السادس عشر من حزيران 1915 الذي كان له دور مشهود في معركة الشعيبة في «ديوان الشبيبي»، ص 185.

(13) على الرغم من جميع مآخذه على الاتحاديين وانتقاداته لهم إلاّ أن الشبيبي كان ينتقل إلى خندق تركيا في حالة حروبها مع الغير حتى قبل الحرب العالمية الأولى، مما يبدو واضحاً من نفثات آلامه، وحسراته في قصيدتين لمناسبة الحرب التركية ـ الإيطالية. أنظر: «ديوان الشبيبي»، ص 19 - 23.

(14) عبد الرزاق الهلالي، دراسات وتراجم عراقية، ص 19.

(15) العميد الركن شكري محمود نديم، حرب العراق 1914 - 1918. دراسة علمية، الطبعة الثامنة، بغداد، 1974، ص 23 - 25.

(16) للتفصيل عن ذلك أنظر:

أرنلد تي. ويلسون، بلاد ما بين النهرين بين ولاءين. خواطر شخصية وتاريخية، الجزء الأول، من احتلال البصرة إلى احتلال بغداد، نقله إلى العربية، قدم له وعلق عليه فؤاد جميل. الطبعة الثانية: تقديم ومراجعة الدكتور علاء نورس، بغداد، 1992، ص 66 - 83.

(17) War Office, 32/ 5806 / 2205, The potential Enemies in Mesopotamia, No. 1621428, April 15, 1920.

(18) العميد الركن شكري محمود نديم، المصدر السابق، ص 29 - 30.

(19) عبد الرزاق الهلالي، دراسات وتراجم عراقية، ص 19.

(20) «ديوان الشبيبي»، ص 12.

(21) «الترجمة الذاتية للشبيبي»، الورقة رقم 3.

(22) أغلب الظن أن اسم مدينة بدره انحدر منها.

(23) «الترجمة الذاتية»، الورقة رقم3.

(24) أنظر نصها في:

«ديوان الشبيبي»، ص 12 - 14.

(25) سه ربول كلمة إيرانية (كردية وفارسية) مركبة، تعني حرفياً رأس الجسر، و(زه هاو) اسم لسهل يمتد بين جبال المنطقة وتلالها، وهو نفسه الذي انتقلت منه أسرة الزهاوي المعروفة إلى السليمانية أولاً، ومن ثم إلى بغداد.

(26) «الترجمة الذاتية»، الورقة رقم 3.

(27) المصدر نفسه، الورقة رقم 3.

(28) كان الأتراك قد اتخذوا من منطقة النخيلة معسكراً لتجمع قواتهم، وفرق المتطوعين.

(29) تفصيل عن ذلك أنظر:

شكري محمود نديم، المصدر السابق، ص 26 - 36.

(30) حسن الأمين، الشيخ محمد رضا الشبيبي علامة العراق وشاعر العرب، ـ «العربي»، العدد 915، فبراير 1972، ص 75 - 76.

(31) أنظر على سبيل المثال:

عبد الرزاق الحسني، العراق في دوري الاحتلال والانتداب، الجزء الأول، صيدا، 1935، ص 16 - 17؛ مس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ترجمة جعفر الخياط، بغداد، 1971، ص 11.

(32) «الترجمة الذاتية»، الورقتان 3و4.

(33) من جميل ما يروى عن موقعة الشعيبة أن المتطوعين الكرد خاضوا المعركة ضد البريطانيين بملابسهم القومية، جنباً إلى جنب مع المتطوعين العرب الذين كانوا بدورهم يرتدون ملابسهم القومية. تركت وقائع الشعيبة أهزوجة معبرة رددها الجنوبيون بصياغتين، تقول الأولى «ثلثا الجنة لهادينا وثلثها للشيخ أحمد واكراده»، وتقول الثانية «ثلثا الجنة لهادينا وثلثها لكاك أحمد وأولاده»، وكانوا يقصدون بهاديهم السيد هادي مكوطر، وهو من وجوه الشامية، ويقصدون بكاك أحمد جد الشيخ محمود. عن ذلك أنظر:

الدكتور كمال مظهر أحمد، الكرد ومعركة الشعيبة، ـ «روشنبيري نوى ـ المثقف الجديد» (مجلة)، بغداد، العدد 125، ربيع 1190، ص 36 - 40.

(34) يقدرها المختصون بزهاء ثلاثة آلاف «من المجاهدين عرباً وأكراداً»، وبألفين وخمسمائة بالنسبة للقوات النظامية العثمانية، فيما تقدر خسائر البريطانيين بحوالي ألف ومائتين. عن ذلك أنظر: العميد الركن شكري محمود نديم، المصدر السابق، ص 33.

(35) لم نعثر، للأسف، على معلومات عنه.

(36) في النص: والشبيبي.

(37) «الترجمة الذاتية»، الورقتان 3 و4.

(38) وذلك في تقديمه لقصيدته التي خص بها المعركة.

(39) «ديوان الشبيبي»، ص 47 - 48.

(40) على العكس من معظم قصائده الأخرى لم يشر الشبيبي في ديوانه إلى تاريخ نظمه لقصيدته «يوم الشعيبة». أغلب الظن أنه قالها بعد انتهاء الحرب.

(41) القصد ثلاثة أيام.

(42) الذر هنا علية القوم.

(43) أنظر نص القصيدة في ص 48 - 49 من «ديوان الشبيبي».

(44) «ديوان الشبيبي»، ص 24.

(45) المصدر نفسه، ص 24 - 25.

(46) راجع ما يرويه أحد المعاصرين للأحداث عن ذلك في:

فريق المزهر آل فرعون، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة 1920، بغداد، 1952، ص 309.

(47) جعفر محبوبة، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 342.

(48) يسميها الشبيبي ثورة.

(49) للتفصيل عنها أنظر:

جعفر محبوبة، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 341 - 343.

(50) 22 أيار 1915.

(51) 24 أيار 1915.

(52) أنظر تقديم الشبيبي لقصيدته «ثورة على الأتراك» في «ديوان الشبيبي»، ص 26.

(53) يبدو ذلك بصورة جلية من المؤلفات التي تطرقت إلى انتفاضة النجف بعد الشبيبي.

(54) «ديوان الشبيبي»، ص 26.

(55) محمد رضا الشبيبي، شذرات من مذكرات الشبيبي، بغداد، 1973، ص 21 - 22.

(56) «المؤرخ» (مجلة)، بغداد، الجزءان الثالث والرابع، آب ـ أيلول 1938، ص 141.

(57) أنظر نص القصيدة في ص 27 - 29 من «ديوان الشبيبي».

(58) أغلب الظن أن هذا بالتحديد هو الذي دفع المحقق جعفر آل محبوبة إلى أن يتجاهل

العنوان الأول للقصيدة، أي «ثورة على الأتراك»، ويقتصر على ذكر عنوانها الثاني، أي «شكوى وعتاب» وذلك حين نقل مقاطع مطولة منها إلى الجزء الأول من كتابه «ماضي النجف وحاضرها» (ص 343 - 344)، فالعنوان الثاني هو الذي ينطبق على مضمون القصيدة.

(59) الأريُ تعني العسل أيضاً.

(60) «ديوان الشبيبي»، ص 28.

(61) الجزء الأول، ص 341 - 344.

(62) تعرف عادة بحادثة كربلاء الأولى.

(63) وتعرف أيضاً بحادثة عاكف.

(64) جعفر محبوبة، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 343.

(65) حسن الأسدي، ثورة النجف، من منشورات وزارة الإعلام، بغداد، 1975، ص 163.

(66) المصدر نفسه، ص 164.

(67) أنظر ما كتبه عن تلك الأحداث في ص 26 - 27 من ديوانه.

(68) أنظر على سبيل المثال:

جعفر محبوبة، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 343.

(69) مقتبس من:

عبد الرزاق أحمد النصيري، المصدر السابق، ص 238.

(70) الدكتور علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء الخامس، حول ثورة العشرين، القسم الأول، بغداد، 1977، ص 12 - 13.

(71) المصدر نفسه، ص 16.

(72) دافيد لويد جورج David Lioyd George (1863 - 1945) سياسي بريطاني بارز، من حزب الأحرار، استوزر لأول مرة في العام 1906، رئيس للوزارة الإئتلافية البريطانية منذ أواخر العام 1916، من أبرز شخصيات مؤتمر الصلح بباريس، سقطت وزارته في العام 1922 فاعتزل السياسة عملياً على الرغم من أنه بقي عضواً في مجلس العموم حتى قبيل وفاته. عنه انظر في: «الموسوعة العربية الميسرة»، المجلد الثاني، ص 1582.

(73) D.L.George, The Truth about Peace treaties, Vol II, London, 1958, P.755.

(74) Ibid, P.1118.

(75) سرارنلدتي. ويلسون، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 46-47.

(76) أنظر نص البيان في:

عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق السياسي الحديث، الجزء الأول، الطبعة السابعة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1989، ص 114-116.

(77) مقتبس من:

الدكتور كمال مظهر أحمد، أضواء على قضايا دولية في الشرق الأوسط، المصدر السابق، ص 63-64.

(78) ورد في التصريح أن الحكومتين البريطانية والفرنسية تنويان أن تؤسسا للأقوام التي ظلت خاضعة للجور التركي مدة طويلة من الزمن «حكومات وإدارات وطنية حرة تنتخب حسب رغائب الأمة، وتستمد سلطتها منها».

(79) المس بيل، المصدر السابق، ص 383.

(80) محمد طاهر العمري الموصلي، تاريخ مقدرات العراق السياسية، المجلد الثاني، بغداد، 1924، ص 164-166؛ الدكتور حسن صبحي، اليقظة القومية الكبرى، القاهرة، 1965، ص 69-72.

(81) «العرب»، 4 تموز 1917، 12 و19 و31 كانون الثاني و7 شباط 1918، وغيرها.

(82) «العرب»، 22 و17 كانون الثاني 1918.

(83) أحمد جمال باشا وزير البحرية، وأحد أركان الثالوث الدكتاتوري الذي كان يتألف من أنور باشا وزير الحربية، وطلعت باشا وزير الداخلية. مع دخول الدولة العثمانية في الحرب إلى جانب دول الوسط اختير ليقود الحملة على مصر، فانتقل إلى دمشق، ومنح من السلطات بحكم القانون العسكري ما أصبح بمقتضاها رئيساً للحكومة في بلاد الشام، وقائداً عاماً للجيش. مع انتهاء الحرب انتقل إلى أفغانستان حيث اغتيل على يد شاب أرمني.

(84) تعود بدايات حملة جمال باشا الإرهابية إلى ما قبل ذاك التاريخ عملياً. فبعد إخفاق حملته على مصر بادر إلى شنق أحد عشر وطنياً في بيروت فجر اليوم الحادي والعشرين من آب 1915، وكأنه أراد بذلك إيجاد مبرر لفشله الذريع على عادة أي دكتاتور يصاب بالنكسة.

(85) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة الدكتورة عفيفة البستاني، موسكو، 1971، ص 441-442.

(86) إعداد جريدة «العرب»_طافحة بأخبار الثورة، وتعليقات الجريدة عليها بأسلوب استهدف تحريض العراقيين ضد الاتحاديين، وجذب عواطفهم إلى جانب الحلفاء.
(87) اشترك العراقيون في المؤتمر، وأيدوا أعماله وقراراته بأساليب مختلفة. للتفصيل عن ذلك أنظر:
«وثائق المؤتمر العربي الأول 1913»، تقديم وجيه كوثراني، بيروت، 1980، ص 204 - 206، 211.
(88) الدكتور سيار كوكب على الجميل، تكوين العرب الحديث 1516 - 1916، الموصل، 1991، ص 457 - 458.
(89) مقتبس من:
جورج أنطونيوس، المصدر السابق، ص 283.
(90) أنظر نص القصيدة في:
«ديوان الشبيبي»، ص 183 - 184.
(91) حسن الأسدي، المصدر السابق، ص 157 - 158.
(92) سنعود إلى تفصيلات ذلك فيما بعد.
(93) عن تلك الوقائع ونتائجها أنظر في:
العميد الركن شكري محمد نديم، المصدر السابق، ص 54 - 73.
(94) أنظر نص القصيدة في:
«ديوان الشبيبي»، عن 30 - 32.
(95) من اليعفر، وتأتي بمعنى ذكر الخنازير، والخنزير مطلقاً.
(96) «ديوان الشبيبي»، ص 30.
(97) كان العلامة محمود شكري الألوسي على علاقة جيدة بالبريطانيين في المرحلة المبكرة التي اتبعت الحرب العالمية الأولى، وقد اشترك في عضوية مجلس المعارف الذي أسسه البريطانيون في الأشهر القليلة التي أعقبت احتلال بغداد في آذار 1917، وكان يضم مثقفين بارزين آخرين من أمثال جعفر أبو التمن والزهاوي وحمدي بابان وعلي الألوسي.
عن ذلك أنظر:
عبد الرزاق أحمد النصيري، المصدر السابق، ص 243, 246 - 247.
(98) شكري الفضلي، أديب كردي معروف برز في ميدان الصحافة قبل الحرب وبعدها، أشرف على تحرير جريدة «تيكه يشتنى راستي» (فهم الحقيقة) التي أصدرها

البريطانيون في بغداد بعد احتلالها. عنه أنظر في الخلاصة العربية لكتاب «تيكه يشتنى راستى ـ فهم الحقيقة ـ وموقعها في الصحافة الكردية «للدكتور كمال مظهر أحمد (بغداد، 1978، ص 269 - 270).

(99) من وجوه البصرة، أشرف على إصدار جريدة «الأوقات البصرية» منذ العام 1917، وهي جريدة باشر البريطانيون إصدارها في أول عام 1915 باللغات العربية والإنكليزية والفارسية والتركية. أنظر:

عبد الرزاق الحسني، تاريخ الصحافة العراقية، ص 74؛ فائق بطي، الصحافة العراقية ميلادها، تطورها، بغداد، 1961، ص 19 - 20.

(100) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الصحافة العراقية، ص 75؛ إبراهيم الوائلي، ثورة العشرين في الشعر العراقي، بغداد، 1968، ص 28 - 29.

(101) R.storrs, Orientations, Second Editions, London, Nicholson and Watson, 1929, PP.236 - 237.

(102) كناية عن مجلته الشهيرة «لغة العرب» التي صدر عددها الأول في تموز 1911، وكانت أفضل مجلة علمية عراقية، تمتعت بسمعة رفيعة في معظم أقطار الشرق العربي كما نوهنا إلى ذلك في الفصل الأول.

(103) للتفصيل عن ذلك أنظر:

فاهم نعمة إدريس، المصدر السابق، ص 145 - 192.

(104) بالإضافة إلى الإشارات السابقة أنظر كذلك في:

دار صدام للمخطوطات، رقم الملف 34727، عنوان الملف: رسائل محمد رضا الشبيبي للكرملي، الوثائق 15 و27 و28 وغيرها.

(105) منهم، على سبيل المثال، الشيخ كاظم الدجيلي (1884 - 1970) أحد المثقفين الذين برزوا في ميدان الصحافة قبل الحرب العالمية الأولى، فقد حكم عليه الاتحاديون بالسجن لمدة سبع سنوات لنشره مقالة في مجلة «المستقبل»التي كان يصدرها في القاهرة المفكر المعروف سلامة موسى. أنظر:

«أحداث ثورة العشرين كما يرويها شاهد عيان»، عنى بتحقيقها ونشرها حكمت رحماني، بغداد، 1973، ص 9 - 10

(106) يبدو ذلك واضحاً من خلال مضامين العديد من الرسائل الخاصة التي تبودلت يومذاك بين أبرز المثقفين العراقيين. أنظر على سبيل المثال: دار صدام

للمخطوطات، رقم الملف 34770، عنوان الملف: كاظم الدجيلي، رسالة إلى الكرملي بتاريخ 18 نيسان 1917.

(107) R.storrs, Op.Cit, P.237.

(108) في النص الإنكليزي: «a very intersesting man».

(109) E.Burgoyne, Gertrude Bell from her Personal Papers, London, Ernest Benn Ltd, 1961, P.189.

(110) هو محمد علي بن حسين بن محسن بن مرتضى بن محمد بن السيد علي الكبير الحسيني الحائري (سامراء 1884 ـ بغداد 1967)، من رجال الإصلاح الديني، صاحب مجلة «العلم» النجفية التي صدرت بين عامي 1910 و1912، من زعماء ثورة العشرين، وزير المعارف في الوزارة النقيبية الأولى، رئيس مجلس التمييز الشرعي الجعفري بين عامي 1923 و1934، له عدد كبير من المؤلفات. للتفصيل عنه أنظر: ميري بصرى، أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث، من منشورات وزارة الإعلام، بغداد، بلا، ص 157 - 159.

(111) دار صدام للمخطوطات، رقم الملف 34803، عنوان الملف: هبة الدين الحسيني، رسالة إلى انستاس الكرملي بتاريخ 30 أيار 1917.

(112) الدكتور وميض جمال عمر نظمي، المصدر السابق، ص 129.

(113) أصدرها البريطانيون، اشترك في تحريرها لفيف من الكتاب والباحثين بإشراف الأب انستاس ماري الكرملي، صدر عددها الأول يوم السادس من تشرين الأول سنة 1918، نتطرق إلى تفصيلات أخرى عنها في إطار مناقشتنا لموضوع اشتراك الشيخ الشبيبي في تحرير صحافة الاحتلال.

(114) دار صدام للمخطوطات، رقم الملف 34535، عنوان الملف: «رزوق عيسى، رسالة إلى انستاس الكرملي بتاريخ 11 تشرين الثاني 1918. أغلب الظن أن مثل هذه المعلومات هي التي أوقعت عبد الرزاق أحمد النصيري في تقدير خاطىء حين أكد أن الشيخ الشبيبي أصبح محرراً لمجلة «دار السلام» منذ أول نشأتها، مع العلم أنه اطلع، على ما يبدو، على الأعداد نفسها التي تسنى لنا الاطلاع عليها، وهي تخلو من اسم الشبيبي. أنظر:

عبد الرزاق أحمد النصيري، المصدر السابق، ص 389,246.

(115) منهم محمد مهدي البصير الذي كان ينشر قصائده في «العرب» قبل ذلك باسم مستعار هو «ابن بابل».

(116) إبراهيم الوائلي، المصدر السابق، ص 28 - 29.

(117) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الصحافة العراقية، ص 75.

(118) «حول رزء الترك» عنوان المقال الافتتاحي لجريدة «العرب» في عددها الصادر يوم 26 تشرين الأول 1918.

(119) أنظر على سبيل المثال:

«العرب»، 1 و21 و25 آذار و8 نيسان 1918.

(120) يكاد لا يخلو عدد من أعداد «العرب» الصادرة في عامي 1917 و1918 من خبر، أو تعليق يخص وقائع الثورة وتطوراتها في الحجاز، وتقدم قوات الأمير فيصل في بلاد الشام.

(121) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الصحافة العراقية، ص 76.

(122) نص الديباجة التي نشرتها «دار السلام» منذ أن صدر عددها الأول في 29 ذي الحجة 1336هـ/ 6 تشرين الأول 1918م.

(123) نشر في العدد السادس من مجلة «دار السلام» (21 آذار 1920) كل من الكرملي والزهاوي ورافائيل بطي ورزوق عيسى وسليم سركيس مقالات بأسمائهم الصريحة، ونشر محمد مهدي البصير قصائد في أعدادها المختلفة باسمه الصريح، وعمل سلمان الشيخ داود الشيء نفسه منذ العام 1919م.

(124) «دار السلام»، العدد التاسع عشر من المجلد الثالث، 19 أيلول 1920، ص 289 - 291؛ العدد العشرون من المجلد الثالث، 3 تشرين الأول 1920، ص 305 - 313.

(125) أنظر على سبيل المثال:

«دار السلام»، العدد العشرون من المجلد الثالث، 3 تشرين الأول 1920، ص 315 - 317.

(126) المصدر نفسه، العدد التاسع من المجلد الرابع، 1 أيار 1921، ص 138 - 139.

(127) منها، على سبيل المثال، قياس قدرة المكائن بالحصان، والمثلوجة بمعنى (الأيس كريم).

(128) «دار السلام»، العدد السابع من المجلد الرابع، 3 نيسان 1921، ص 107.

(129) المصدر نفسه، العدد الخامس من المجلد الرابع، 6 آذار 1921، ص 65.

(130) أنظر على سبيل المثال:

علي ظريف الأعظمي البغدادي، تاريخ ملوك الحيرة، ـ «دار السلام»، العدد التاسع من المجلد الثالث ، 2 أيار 1920، ص 140 - 142، غرافي، شطرة المنتفق، ـ «دار السلام»، العدد العاشر من المجلد الرابع، 15 أيار 1921، ص 145 - 153.

(131) أنظر على سبيل المثال:

عبد الحميد العلوجي، الحضور اليمني في العراق، ـ «الجمهورية» (جريدة)، بغداد، العدد 8291، 12 أيلول 1992.

(132) من ذلك قصورها في عدم منع ظاهرة انتشار القمار في أنحاء العراق، الأمر الذي كان في نظر البريطانيين يدخل في عداد الحريات الشخصية التي ما كانوا يتدخلون فيها في بلدهم أيضاً.

(133) «دار السلام»، العدد الثالث من المجلد الرابع، 6 شباط 1921، ص 43.

(134) المصدر نفسه، العدد العاشر من المجلد الرابع، 15 أيار 1921، ص 156.

(135) في النص: «سموّ قصد مصطفى كمال».

(136) «دار السلام»، العدد العاشر من المجلد الرابع، 15 أيار 1921، ص 159.

(137) للتفصيل عن علاقات الرئيس الأمريكي ولسن بالصهيونية العالمية أنظر في الدكتور كمال مظهر أحمد، أضواء على قضايا دولية في الشرق الأوسط، ص 96 - 101.

(138) «دار السلام»، العدد السابع عشر من المجلد الثالث، 22 آب 1920، ص 268.

(139) اطلعنا على جميع أعداد المجلة التي تزامن صدورها مع أيام ثورة العشرين.

(140) «دار السلام»، العدد التاسع عشر من المجلد الثالث، 19 أيلول 1920، ص 301.

(141) إبراهيم الوائلي، المصدر السابق، ص 29.

(142) منير بكر التكريتي، الصحافة العراقية واتجاهاتها السياسية والاجتماعية والثقافية من 1869 - 1921، بغداد، 1969، ص 119.

(143) فاهم نعمة إدريس، المصدر السابق، ص 265.

(144) مع نشوب الحرب توقفت «لغة العرب» عن الصدور، وقد أيد الشيخ الشبيبي قرار الأب الكرملي بهذا الخصوص في رسالة بعثها إليه خصيصاً حول هذا الموضوع. أنظر: دار صدام للمخطوطات، رقم الملف 34715، موضوع الملف: رسائل محمد رضا الشبيبي إلى الكرملي، الوثيقة رقم 15، الرسالة المؤرخة في 10 أيلول 1914.

(145) دار صدام للمخطوطات، الملف نفسه، الوثيقة رقم 5، رسالة الشبيبي إلى الكرملي

بتاريخ 24 ذي القعدة 1335هـ.

(145) من المفيد أن نشير هنا إلى أن جريدة «الجمهورية» نشرت في عددها الصادر يوم الثامن والعشرين من تشرين الثاني سنة 1967 مقالة عنه في ذكرى وفاته الثانية بعنوان «الشبيبي: السياسي الصادق بين الجرأة النادرة والعمل من أجل الحق بلا هوادة».

(146) «ديوان الشبيبي»، ص 66 - 68.

(147) «العراق»، العدد 491، 1 كانون الثاني 1922، ص 4.

(148) «العرب»، 31 مايس 1920.

(149) «دار السلام»، العدد الثاني عشر من المجلد الثالث، 15 حزيران 1920، ص 190.

(150) رزوق داود إبراهيم غنام بغداد (1882 ـ 1965) صحفي معروف، يلقب عادة بشيخ الصحافة العراقية في عصره، من مؤيدي الثورة الاتحادية، اشترك بحماس في الحركة العربية، من مؤسسي «النادي العلمي الوطني «سنة 1912، نفي مع الكرملي إلى خارج العراق أثناء الحرب، أصدر على مدى أكثر من ربع قرن جريدة» العراق «التي تتمتع بموقع متميز في الصحافة العراقية. عنه أنظر:

مير صبري، المصدر السابق، ص 145 - 148.

(151) رافائيل بطي، الصحافة في العراق، من منشورات معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1955، ص 52.

(152) «دار السلام»، العدد الخامس عشر من المجلد الثالث، 25 تموز 1920، ص 239.

(153) المصدر نفسه، العدد السابع من المجلد الرابع، 3 نيسان 1921، ص 106.

(154) تقع في ثمانين وخمسة أبيات.

(155) «ديوان الشبيبي»، ص 33 - 38.

(156) المصدر نفسه، ص 36.

(157) في تشرين الثاني ـ كانون الأول 1918 حمل الدروز السلاح ضد المحتلين الفرنسيين، وقطعوا عليهم مواصلاتهم.

(158) أنظر نصّ القصيدة في:

«ديوان الشبيبي»، ص 44 - 46.

(159) المصدر نفسه، ص 128.

(160) فيليب إيرلند، العراق، المصدر السابق، ص 65 - 66.

(161) الدكتور كمال مظهر أحمد، أضواء على قضايا دولية في الشرق الأوسط،

ص 138 - 141.

(162) س. هـ. لونكريك، العراق الحديث في سنة 1900 إلى سنة 1950، الجزء الأول، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي، الطبعة الأولى، بغداد، 1988، ص 188 - 189.

(163) كانت مواقف فرع الموصل لجمعية العهد تتسم بثورية أكبر من مواقف مركز الجمعية في دمشق، وفرعها في بغداد.

(164) مقتبس من:

صدى الأحرار»، (جريدة)، الموصل، 3 نيسان 1953.

(165) محمد علي كمال الدين، معلومات ومشاهدات في الثورة العراقية الكبرى لسنة 1920، بغداد، 1971، ص 70.

(166) حسن الأسدي، المصدر السابق، ص 169.

(167) الدكتور علي الوردي، المصدر السابق، الجزء الخامس ـ القسم الأول، ص 26 - 27.

(168) للتفصيل عن أحداثها، ووقائعها، ونتائجها أنظر:

عبد الرزاق الحسني، ثورة النجف بعد مقتل حاكمها الكابتن مارشال، الطبعة الثانية، بيروت، 1978.

(169) حققها، وقدمها نجله أسعد الشبيبي. أنظر: «الثقافة الجديدة» (مجلة)، بغداد، العدد الرابع، تموز 1969، ص 281 - 340.

(170) المصدر نفسه، ص 286.

(171) تغار أو طغار وحدة قياس للوزن، كلمة تركية الأصل تأتي بمعنى الكيل والمأكل والراتب، كان شائعاً للكيل في العهدين العثماني والملكي، يختلف مقداره من منطقة إلى أخرى، لكن الشائع أنه كان يعادل 1540 كيلو غراماً كما ورد ذلك في كتاب الدكتور حسين محمد القهواتي، دور البصرة التجاري في الخليج العربي 1869 - 1914، من منشورات مركز دراسات الخليج العربي ـ جامعة البصرة، بغداد، 1980، ص 488.

(172) «الثقافة الجديدة»، العدد الرابع، تموز 1961، ص 288.

(173) الدكتور علي جواد الطاهر، منهج البحث الأدبي، الطبعة السابعة، بغداد، 1986، ص 48.

(174) «الثقافة الجديدة»، العدد الرابع، تموز 1969، ص 288 - 289.

(175) عبد الرزاق الحسني، ثورة النجف بعد مقتل حاكمها الكابتن مارشال، ص 4.

(176) أنظر على سبيل المثال: المصدر نفسه، ص 19، 25-26، 63 ,73 ,83 ,118 وغيرها.

(177) الدكتور علي الوردي، المصدر السابق، الجزء الخامس - القسم الثاني، حول ثورة العشرين، بغداد، 1978، ص 207 - 211، 221 - 224، 226، 230 - 233، 236 - 237، 239 - 243، 245 - 250، 253 - 254، 257 - 258، 269 - 273.

(178) حسن الأسدي، المصدر السابق، ص 6.

(179) المصدر نفسه، ص 224 - 225، 252، 264، 271 - 275، 279 - 280، 282 -283، 285-289، 294 -300 وغيرها.

(180) «الثقافة الجديدة»، العدد الرابع، تموز 1969، ص 284.

(181) صحح حسن الأسدي بعض الأخطاء الواردة في مذكرات الشبيبي، منها أخطاء الناشر، وأخرى أخطاء مطبعية.

(182) عن ذلك أنظر:

«المؤلفات الخطية للمرحوم عباس العزاوي»، المجمع العلمي العراقي - قسم المخطوطات، المجموعة الثالثة، التسلسل 54؛ «الرابطة»، العدد السادس، السنة الثانية، كانون الثاني 1976، ص 153.

(183) «الجمهورية»، (جريدة)، بغداد، العدد 103، 6 نيسان 1968 (حديث أحمد الصافي النجفي)؛ «كل شيء»، (جريدة)، بغداد، العدد 158، 1 تموز 1968 (حديث حسين كمال الدين)؛ محمد علي كمال الدين، ثورة العشرين في ذكراها الخمسين، بغداد، 1971، ص 70- 71. لم يتطرق أي من هؤلاء إلى اسم الجمعية. في المرحلة ذاتها ظهرت تنظيمات سياسية سرية أخرى من دون أسماء، كانت في واقعها تمثل روابط فكرية تفتقر إلى عنصر التنظيم.

(184) محمد علي كمال الدين، ثورة العشرين في ذكراها الخمسين، ص 74.

(185) «صفحات من مذكرات سعيد كمال الدين»، بغداد، 1987، ص 11.

(186) إبراهيم الوائلي، في ذكرى ثورة العشرين، - «الرابطة»، العدد الثالث، تموز 1975، ص 14.

(187) «كل شيء»، العدد 158، 1 تموز 1958 (حديث حسين كمال الدين)؛ «صفحات من مذكرات سعيد كمال الدين»، ص 12 - 13.

(188) عبد الرزاق أحمد النصيري، المصدر السابق، ص 210.

(189) علي الخاقاني، المصدر السابق، الجزء التاسع، النجف، 1956، ص 8.

(190) عن ذلك أنظر ما ذكره الشيخ محمد رضا الشبيبي لمندوب جريدة «الجمهورية»، العدد 185، 30 حزيران، 1964.

(191) A.T. Wilson, Loyaltie, Mesopotamia, Vol .II, 1917-1920, Reissued in the OXFORD bookshelf, 1936, P.166.

آثرنا الرجوع إلى النص الإنكليزي، فإن بعض الغموض يعتري ترجمته العربية التي لم يرد فيها، فضلاً عن ذلك، تاريخ الرسالة، وهو أمر يهمنا (في الترجمة العربية: الجزء الثالث، بغداد، 1992، ص 73).

(192) Ibid, P.110.

(193) Ibid, P.111.

(194) Ibid.

(195) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق السياسي الحديث، الجزء الأول، ص 127.

(196) فيليب ويلارد ايرلاند، المصدر السابق، ص 126 - 127.

(197) فريق مزهر آل فرعون، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 82 - 83.

(198) عبد الرزاق أحمد النصيري، المصدر السابق، ص 261.

(199) منهم عبد الكريم الجزائري ومحمد جواد صاحب الجوهر وعبد الرضا الشيخ راضي ونور الياسري ومحسن أبو طبيخ وعلوان الياسري وعبد الواحد الحاج سكر وعبد المحسن شلال وغيرهم ممن قدر لهم أن يؤدوا دوراً مشهوداً في أحداث العراق السياسية يومذاك، بما في ذلك أحداث ثورة العشرين.

(200) الشيخ جعفر محبوبة، المصدر السابق، ص 258.

(201) عقد الاجتماع في سراي الحكومة، خارج المدينة.

(202) هو هادي الرفيعي، نقيب الأشراف في النجف.

(203) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق السياسي الحديث، الجزء الأول، ص 132 - 133.

(204) تؤكد بعض المصادر أن الشبيبي ترك الاجتماع احتجاجاً، وأن العديد من المجتمعين حذوا حذوه، فخرجوا معه. أنظر على سبيل المثال: «الرابطة»، العدد السادس، السنة الثانية، كانون الثاني 1976، ص 153.

(205) عن ذلك أنظر:

غسان العطية، العراق. نشأة الدولة 1908 - 1921، ترجمة عطا عبد الوهاب، دار السلام،

لندن، 1988، ص 355.

(206) الدكتور وميض جمال عمر نظمي، المصدر السابق، ص 305.

(207) «الترجمة الذاتية»، الورقة رقم 4؛ «العربي»، العدد 159، فبراير 1972، ص 78.

(208) للتفصيل عن ذلك أنظر:

عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق السياسي الحديث، الجزء الأول، ص 134 - 135.

(209) للتفصيل عن ذلك أنظر:

الدكتور كمال مظهر أحمد، أضواء على قضايا دولية في الشرق الأوسط، ص 86 - 90.

(210) كانت جريدة «العرب» تولي تحركات الأمير فيصل في تلك المرحلة اهتماماً خاصاً.

(211) حسين جميل، العراق. شهادة سياسية 1908 - 1930، دار السلام، لندن، 1987، ص 50.

(212) في النص: وفاتح.

(213) «العربي»، العدد 159، فبراير 1972، ص 78.

(214) يطلق عليه عادة اسم «المؤتمر السري الأول».

(215) فراتي، على هامش الثورة العراقية الكبرى. خواطر وتعليقات مستمدة من الواقع المرئي والمسموع عن الثورة العراقية 1920، من منشورات جريدة «الهاتف»، بغداد، 1952، ص 20.

(216) عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، المصدر السابق، ص 154.

(217) «صفحات من مذكرات عبد الحميد الزاهد من المشاركين بأحداث الثورة العراقية 1920»، تقديم وتعليق كامل سلمان الجبوري، بغداد، 1987، ص 12 - 14.

(218) كان يقوم بهذه المهمة عبد الحميد الزاهد، وهو من الشباب المتحمسين الذين وقفوا إلى جانب قضية شعبهم. أنظر: جعفر الخليلي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 124.

(219) يقول الحسني عن تلك المضابط: «أما صورة المضابط التي كان (معالي الشبيبي) حملها إلى الحسين بن علي في مكة فهذه إحداها على ما خطها لنا الشبيبي بقلمه». أنظر: عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، ص 156.

(220) المصدر نفسه، ص 156 - 157.

(221) علي الخاقاني، المصدر السابق، ص 8؛ علي جابر المنصوري، المصدر السابق، ص 62.

(222) في النص: حالهم.

(223) محمد مهدي البصير، المصدر السابق، ص 51.

(224) من وجوه الشطرة، له صلة قرابة بالشيخ الشبيبي.

(225) عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، ص 155. حسب محمد مهدي البصير (المصدر السابق، ص 51) كان ذلك في أواخر رمضان سنة 1337 للهجرة، لكنا آثرنا الاعتماد على ما ذكره الحسني الذي اعتمد أساساً على ما رواه له الشبيبي شخصياً عن مهمته.

(226) محمد مهدي البصير، المصدر السابق، ص 51.

(227) «العربي»، العدد 159، فبراير 1972، ص 78.

(228) علي جابر المنصوري، المصدر السابق، ص 62.

(229) يبدو من بعض المصادر وكأن الأمر كان من أجل عرض تلك المضابط على مؤتمر الصلح في باريس أثناء وجود فيصل هناك، في حين أن حضور فيصل المؤتمر سبق لقاء الشبيبي بالحسين مدة عدة أشهر، فمن المعلوم أن فيصلاً وصل باريس أواخر تشرين الثاني عام 1918، وألقى خطابه أمام المؤتمر يوم السادس من شباط عام 1919، ليغادر العاصمة الفرنسية بعد ذلك. أنظر: الدكتور كمال مظهر أحمد، أضواء على قضايا دولية في الشرق الأوسط، ص 154 - 155.

(230) يوافق 21 أيلول 1919.

(231) مقتبس من:

عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، ص 157.

(232) المصدر نفسه، ص 156.

(233) مقتبس من:

الدكتور علي جواد الطاهر، محمد رضا الشبيبي. حياته وشعره، ـ «الرابطة»، العدد الثالث، السنة الثانية، تموز 1975، ص 28. أصل البحث محاضرة ألقاها المؤلف في الموسم الثقافي لجامعة الرياض سنة 1968.

(234) «الترجمة الذاتية»، الورقة رقم 4.

(235) «العراق»، العدد 2981، 19 تشرين الثاني 1985.

(236) علي الخاقاني، المصدر السابق، ص 9 - 12.

(237) «الرابطة»، العدد السادس، السنة الثانية، كانون الثاني 1976، ص 154. منذ ذلك

الوقت احتفظ الشبيبي بعلاقات متينة مع ياسين الهاشمي، وقد هزه نبأ وفاته، وكان يزور قبره خصيصاً كلما سافر إلى دمشق. مقابلة مع ياسين الحسيني بتاريخ 13 آب 1992.

(238) E.Burgoyne, Op. Cit, p.189.

لم يتسن لنا التأكد مما ذكرته المس بيل بهذا الخصوص، فإن الأمر يتطلب القيام بجرد عام لأعداد الجرائد والمجلات السورية التي كانت تصدر في عهد حكومة الأمير فيصل، ولم نعثر بين أوراق الشبيبي، وما دونه عن سفرته ما يساعدنا على معرفة نشاطه في هذا الميدان بالاستناد إلى ما نشره سوى الحقائق المذكورة من قبلنا في المتن، وهي كل ما تسنى لنا الاطّلاع عليها.

(239) «الترجمة الذاتية»، الورقة رقم 5.

(240) «ديوان الشبيبي»، ص 42.

(241) المصدر نفسه، ص 166 - 168.

(242) المصدر نفسه، ص 183. نص القصيدة ص 183 - 184.

(243) يقول الحسني: «كان العراقيون في دمشق يجتمعون تارة في دار نوري السعيد، وطوراً في دار جعفر العسكري لاتخاذ مقرراتهم، وقد انتخبوا أعضاء المؤتمر العراقي الذي نادى باستقلال العراق من الذوات...». أنظر: عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، ص 89.

(244) في النص: فاستناداً.

(245) يوافق التاسع من كانون الثاني سنة 1919.

(246) مقتبس من:

توفيق السويدي، مذكراتي. نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية، بيروت، 1969، ص 566.

(247) علي الخاقاني، المصدر السابق، ص 12.

(248) «العراق في الوثائق البريطانية 1905 - 1930»، ترجمة فؤاد قزانجي، تقديم ومراجعة عبد الرزاق الحسني، دار المأمون، بغداد، 1989، ص 30.

(249) «الرابطة»، العدد السادس، السنة الثانية، كانون الثاني 1976، ص 154.

(250) من العسكريين العراقيين الذين تعاونوا مع فيصل في سوريا، فقد أصبح مرافقاً له، ومسؤولاً عن الاستخبارات العسكرية في دمشق.

(251) مقابلة مع ياسين الحسيني بتاريخ 13 آب 1992.

(252) أغلب الظن كان من تصميم المؤتمر العراقي.

(253) من الشباب الوطنيين المتحمسين، كان يعمل خياطاً في قيصرية علي آغا في النجف، ثم انتقل بعد ذلك إلى الديوانية.

(254) جعفر الخليلي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 124 - 125.

(255) المصدر نفسه، ص 125.

(256) للتفصيل عن هذه الأحداث أنظر:

ساطع الحصري، يوم ميسلون. صفحة من تاريخ العرب الحديث، بيروت، 1948.

(257) القائد الأعلى للقوات الفرنسية في سوريا ولبنان منذ تشرين الثاني 1919، وبعد إعلان انتداب فرنسا على سوريا ولبنان في نيسان 1920 سمي مفوضاً سامياً فيهما. أنظر: جورج انطونيوس، المصدر السابق، ص 336.

(258) الأصح أغلبها.

(259) «الترجمة الذاتية»، الورقة رقم 6؛ «العربي»، العدد 159، فبراير 1972، ص 79.

(260) «الترجمة الذاتية»، الورقة رقم 6.

(261) المصدر نفسه، الورقة نفسها.

(262) نظمها، كما ذكرنا، في أول تشرين الأول سنة 1918 لمناسبة تحرير دمشق من العثمانيين.

(263) «ديوان الشبيبي»، ص 33.

(264) كان ذلك في صيف من سنة 1936.

(265) «ديوان الشبيبي»، ص 193. نص القصيدة في ص 193 - 195.

(266) في النص: لعله.

(267) جعفر الخليلي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 129.

(268) «الترجمة الذاتية»، الورقة رقم6.

(269) ورد في النص ياسين فقط، مما يؤشر، دون شك، قوة علاقاتهما.

(270) حدد الشبيبي فيما بعد تاريخ مغادرته دمشق وذلك في دراسته التي نشرها في العام 1964 بعنوان «رحلة في بادية السماوة»، وهو بحث تاريخي يتحدث عن بادية الشام بالاستناد إلى مصادر قديمة أصيلة، وملاحظاته هو التي سجلها، على ما يبدو، أثناء مروره بها في طريق عودته إلى العراق سنة 1920. ففي مستهل القسم الثاني من بحثه

ذلك يقول: في صباح «الأربعاء 14 صفر سنة 27/1339 تشرين الأول سنة 1920... سافرنا من دمشق...». أنظر: محمد رضا الشبيبي، رحلة في بادية الشام سنة 1339 هـ/ 1920م، بغداد، 1964، القسم الثاني، ص 1. أصل الكتاب دراسة مطوّلة مستلة من المجلد الحادي عشر من «مجلة المجمع العلمي العراقي».

(271) يؤكد الحسني أنه كان رشيد الخوجة (عن ذلك أنظر: قصي سالم علوان، المصدر السابق، ص 141). وتاريخ عودة رشيد الخوجة إلى بغداد في تشرين الثاني 1920 حسب الوثائق البريطانية يؤيد رأي الحسني (أنظر: «العراق في الوثائق البريطانية سنة 1936»، ص 74 - 75). كان الخوجة ضابط ركن في الجيش التركي، وعضواً بارزاً في جمعية العهد، جاء إلى دمشق بعد انتهاء الحرب، بعد عودته إلى العراق تقلد مناصب إدارية رفيعة، بما في ذلك متصرفية بغداد والموصل، ووزارة الدفاع مراراً، وانتخب عضواً في مجلس النوّاب أكثر من مرة، واختير رئيساً للمجلس في العام 1923. كل ذلك يعني أن محمد رضا الشبيبي ورشيد الخوجة كانا على علاقات وثيقة.

(272) «الترجمة الذاتية»، الورقة رقم 6.

(273) إحدى جريدتي الثورة، صدر عددها الأول في النجف يوم 21 ذي القعدة 1338هـ/ 7 آب 1920م وصدر عددها الخامس والأخير يوم الثاني من غرّة محرم 1339 هـ/ 15 أيلول 1920م.

(274) للتفصيل عن ذلك أنظر:

الدكتور كمال مظهر أحمد، من تاريخ صحافة ثورة العشرين، ـ «صفحات من تاريخ العراق المعاصر. دراسات تحليلية»، من منشورات مكتبة البدليسي، بغداد، 1987، ص 65, 67, 81.

الفصل الثالث

النشاط الفكري والسياسي لمحمد رضا الشبيبي في سنوات الانتداب البريطاني

الفصل الثالث

النشاط الفكري والسياسي لمحمد رضا الشبيبي في سنوات الانتداب البريطاني

موقف محمد رضا الشبيبي من الحكومة المؤقتة:

دشن الانتداب البريطاني على العراق مرحلة جديدة في تاريخه المعاصر، تزامنت أهم أحداثها مع انتهاء ثورة العشرين، وما تمخض عنها من نتائج. فعلى الرغم من أن البريطانيين تمكنوا من تلك الثورة، إلاّ أنهم اضطروا في الوقت نفسه إلى التراجع، ولو جزئياً، أمام أهم شعار رفعه العراقيون في أيامها، ونقصد به شعار الاستقلال.

بفعل زخم وقائع ثورة العشرين اقتنع البريطانيون بضرورة منح العراقيين قدراً من حقهم في إدارة شؤون بلدهم بأنفسهم. أنهم وافقوا من هذا المنطلق على تأسيس أول حكومة عراقية في الخامس والعشرين من تشرين الأول سنة 1920 دخلت التاريخ باسم «الحكومة المؤقتة»[1] التي كانت، على الرغم من جميع نواقصها وعيوبها، أول خطوة عملية على درب تحقيق الاستقلال السياسي للعراق. يقول المتخصص في تاريخ العراق المعاصر الدكتور زكي صالح بهذا الخصوص:

«لقد كان عهد هذه الحكومة على قصره خطيراً في تكوين العراق الحديث لا لاعتباره الخطوة الأولى في هذا التكوين فحسب، بل لما انطوى عليه من طبيعة مزدوجة في الحكم، الواحدة بريطانية في يدها زمام السلطة في الدولة، والثانية وطنية أو ليغاركية[2] تمتعت بما سمح به الجانب البريطاني من نفوذ. ومن ثم تعين اتجاه الكفاح السياسي في محاولة تقليص السيطرة الأجنبية من جهة، وإقامة نظام ديمقراطي من الجهة الأخرى، يستند فعلاً إلى إرادة جمهور الناخبين، لا إلى فئة متنفذة من المواطنين»[3].

لكن الحكومة المؤقتة كانت في نظر الوطنيين من أمثال الشبيبي مجرد محاولة لامتصاص نقمة العراقيين، وللالتفاف حول مطاليبهم، فرأوا فيها «أمراً بيت ليلاً» حسب تعبير جريدة «الاستقلال» التي كانت تمثل وجهة نظرهم في تلك المرحلة[4].

من هذا المنطلق وقف محمد رضا الشبيبي ضد «الحكومة المؤقتة»، مع العلم أن عدداً من المثقفين المجددين وقفوا إلى جانبها، وتعاونوا معها دون تردد لاعتبارهم إياها خطوة على طريق تحقيق طموحاتهم[5].

لم يكن بوسع الشيخ الشبيبي الذي عاد إلى الوطن لتوه أن يمارس نشاطاً علنياً واسعاً ضد البريطانيين والحكومة المؤقتة، لكنه اتخذ، مع ذلك، موقفاً انتقادياً صريحاً منهما. إنّ أجلّ عمل قام به الشبيبي في هذا الميدان هو التقرير الخاص الذي أعدّه عن أوضاع العراق بعد عودته، والذي عرض فيه تقييمه للحكومة المؤقتة. أنه بعث التقرير إلى علوان الياسري في الحجاز، وعن طريقه «إلى أبطال العراق المهاجرين إلى مكة المكرمة»، وقد اختار له عنوان «تقرير وجيز عن أحوال العراق العامة بعد الثورة»[6].

أرفق الشبيبي تقريره برسالة إلى علوان الياسري، أحد قادة ثورة العشرين

الذي لجأ إلى الحجاز مع عدد آخر من زعماء الثورة[7]. تحمل الرسالة تاريخ «مسلخ رمضان سنة 1339»[8] مع عبارة «النجف الأشرف»، وهما أول إشارة إلى عودة الشبيبي إلى مسقط رأسه بعد رجوعه إلى العراق من سوريا قبل ذلك التاريخ بعدة أشهر. ويبدو واضحاً من فقرة وردت في الرسالة أن رجوع الشبيبي من سوريا لم يكن سهلاً، إذ يقول نص الفقرة: «هذا وإن سألتم عن كيفية إيابي إلى العراق، وعمّا جرى واتفق لي مع القوم، فلذلك تفصيل لا يسعه المقام، ولا يستدعي الآن شيئاً من الاهتمام، وعند اللقاء تطلعون على ذلك»[9].

أما تقييم الشبيبي للحكومة المؤقتة التي يسميها وزارة فقد كان كالآتي نصّاً[10]: «تألفت هذه الوزارة الإسمية في تشرين[11] 1920، وقد وضع لها السربرسي كوكس نظاماً غريباً سماها فيه (الحكومة المؤقتة)، وجعل شأنها فيه والعدم سواء، لا بل العدم أفضل منها بمراحل كثيرة.

ومما يدلّ على مبلغ اهتمام الإنكليز بوزارتهم هذه معاملتهم للسيد طالب باشا وزير الداخلية، فقد كان أكثر زملائه شهرة وجرأة، وأظهرهم أثراً، فقد فاجأه أصدقاؤه الإنكليز، وأخذوه شرّ أخذة، وأوثقوه كتافاً هو ورفيقه عبد الرزاق المير، وذلك في يوم 9 شعبان سنة 1339[12]، وأرسلوه إلى البصرة ونفي منها إلى جزيرة سرنديب (سيلان) كما أذاعه الإنكليز، مما جعل الناس يتحدثون بأعمال القوم وأحكامهم المطلقة التي لا يعرف لها نظام، أو قانون. وقد أصبحت هذه الوزارة بعد هذه الحادثة مسخرة للساخرين، وأضحوكة للضاحكين. لكن المتربعين في كراسيها، المستدرين لروايتها (هم) ممن سلب الله منهم المروءة والحياء.

ثم إن الإنكليز قسموا هذه الوزارة إلى قسمين: الوزراء العاملين، كبيرهم النقيب، وقد نشرت الجرائد أسماءهم، والوزراء المستشارين، وهؤلاء لا حدّ

لهم في الكثرة. فكل خائن أو مأجور أو جاهل مغرور من الشيوخ أو الأعيان أو المتمولين في العراق من الموصل إلى البصرة، بعد أن منح كل واحد منهم لقب وزير. ومن هؤلاء الوزراء المستشارين، الموجودين الآن في بغداد محمد الصيهود أمير ربيعة، وعجيل السمرمد شيخ زبيد، وسالم الخيون شيخ بني أسد في الحمار، وضاري السعدون والحاج نجم النبراوي من تجار العمارة، وغيرهم كثير. وقد استفاد السربيرسي كوكس من وجودهم على هذه الصورة في بغداد فائدة مزدوجة، فإنه قد اعتقلهم عنده، وسكن بذلك الخواطر الثائرة على الحكومة الإنكليزية في العراق. علاوة على كل ذلك من التمويه وذرّ الرماد في العيون[13]. أما وزارة الداخلية بعد طالب باشا فقد عادت إلى الإنكليز أربابها»[14].

وفي مكان آخر من تقريره يتحدث الشيخ الشبيبي عمّا آل إليه وضع الصحافة في العراق، وكيف أن الوطنيين يحاولون الحصول على امتياز لإصدار صحيفة، إلاّ أنهم «ردّوا على أعقابهم ظاهراً من الوزارة العراقية، وواقعاً من الإنكليز». ثم يضيف على ذلك فيقول «وكم تم للإنكليز من عمل مهم باسم هذه الوزارة الملعونة»[15].

كان البريطانيون على قناعة ثابتة بأنّ إجراءاتهم الإدارية التي أرادوا بها امتصاص نقمة العراقيين في أواخر العام 1920 لا يمكن لها أن تجلب لهم الاستقرار المنشود، فأرادوها أن تكون خطوة انتقالية لإقامة حكومة ثابتة الأركان ترضي العراقيين أكثر، وتضمن لهم وجودهم في الوقت نفسه، فكان قرار تأسيس نظام ملكي «رشحوا» له الأمير فيصل في مؤتمر القاهرة في آذار سنة 1921.

تبدأ بذلك مرحلة جديدة في تاريخ العراق المعاصر، وتبدأ معها أيضاً مرحلة جديدة في النشاط الفكري والسياسي لمحمد رضا الشبيبي الذي كان

على اتصال وثيق بالشريفيين، وشخص الأمير فيصل كما أسلفنا. وقد كتب الشبيبي تقريره «عن أحوال العراق العامة بعد الثورة» من أجل اطّلاع الأمير فيصل شخصياً على تلك الأحوال، إذ ورد في رسالته إلى علوان الياسري المرفقة بالتقرير ما نصه: «وقد رأيت من المناسب اطّلاعكم على حالة بلادكم إجمالاً بعد مفارقتكم إياها، لعلّكم تستفيدون ويستفيد الأمير من ذلك التقرير»[16].

موقف محمد رضا الشبيبي من اختيار الأمير فيصل ملكاً للعراق:

كان محمد رضا الشبيبي من أشدّ المتحمسين لاختيار أحد أنجال الحسين بن علي لعرش العراق، الأمر الذي لاحظناه في ثنايا المباحث السابقة. وقد تحمس بصورة خاصة للأمير فيصل بعد أن استقر الرأي على ترشيحه لذلك العرش[17] لما لمسه فيه من رجاحة عقل وبعد نظر سياسي، ومشاعر قومية، وخصال إيجابية أخرى لاحظها بنفسه خلال احتكاكه المباشر به على مدى أشهر طوال في دمشق[18].

بث الشبيبي دعاية واسعة لصالح الأمير فيصل بعد عودته إلى العراق، ولا سيما بعد ظهور اسمه فوق المسرح باعتباره مرشحاً لعرش البلاد. لم يكن موقف الشبيبي هذا نابعاً من دوافع عاطفية أو من مشاعر دينية صرفة، بل كان يستند إلى تقييم واقعي لظرفي الزمان والمكان اللذين جعلا من فيصل أفضل المرشحين لإشغال ذلك العرش. كما أنه علّق آمالاً كبيرة على وجود عدد من قادة ثورة العشرين في الحجاز، ممن كانوا على اتصال مباشر بفيصل، وقد حاول الشبيبي التأثير عليه عن طريق هؤلاء، ومساعدته قدر الممكن والمسموح ليكون الحاكم الذي كان يحلم به لوطنه. كتب الشبيبي في رسالته الآنفة الذكر إلى علوان الياسري بهذا الخصوص ما نصه:

«ومن الأمور التي تثلج بها الصدور، وتقرّ بها العيون حسن الاتفاق الذي جمع الأمير فيصل بكم، وجمعكم به. فلا شك أنكم أفرغتم له وسعكم، وبذلتم جهدكم، كما هو المعهود بهمتكم، حتى أفهمتموه حقائق الأحوال، وأوقفتموه على مجرى الأمور في العراق، وزودتموه بالنصائح الثمينة والإرشادات الشريفة، مما سيجعله على بصيرة تامة بأحوال العراقيين أهل هذه البلاد، وأخلاقهم وآدابهم وديانتهم وعاداتهم وجميع أوضاعهم... ونحن نسأل من المولى جلّ شأنه أن يوفقه في الاعتماد عليكم، والإصغاء إلى نصائحكم، والركون إلى آرائكم، والعمل بأفكاركم وأفكار كافة من معكم من رجالنا العاملين، وفقنا الله وإياهم»[19].

كان الشبيبي يرنو، إذن إلى حشد الوطنيين المخلصين حول الأمير فيصل، ولهذا السبب فإنه حاول مسبقاً أن ينقل صورة واقعية عن المتعاونين مع البريطانيين في الداخل ممن يصفهم بالسماسرة الذين «لا شأن لهم»[20]. وينتابه قدر واضح من التفاؤل حين يعلم أن فيصلاً يصغي «إلى أقوال المخلصين العاملين من أهل البلاد، وخاصة أولئك الأبطال المجاهدين الذين اشتروا استقلال العراق بدمائهم وأموالهم[21].

استقبل الشيخ الشبيبي الأمير فيصل بعد وصوله العراق في الثالث والعشرين من حزيران عام 1921 بحرارة، وحفاوة، ورافقه حين دخل النجف في طريقه إلى بغداد[22]. يروي لنا شاهد عيان ذلك فيقول:

«ولم أعد أرى الشيخ محمد رضا الشبيبي، ولم أعد أسمع اسمه، فقد انشغل الناس بالثورة... ولم أعد أقرأ عن الشيخ محمد رضا الشبيبي شيئاً، ولأول مرة تتجدد ذكراي له، وتقع

عيناي عليه كان يوم دخل الملك فيصل الأول إلى النجف وإلى جانبه كان يمشي الشيخ محمد رضا الشبيبي»[23].

لا تتوفر معلومات محددة عن الدور الذي أدّاه محمد رضا الشبيبي بالنسبة للاستفتاء الذي جرى لانتخاب فيصل ملكاً على العراق[24]، إلاّ أن الحقائق التي أوردناها حتى الآن تسمح لنا أن نستنتج أن الشبيبي بذل حتماً كل ما في وسعه لصالح فيصل. ولولا موقف أمثال الشبيبي لما كان بالإمكان، طبعاً، تحقيق ما تحقق بالنسبة للاستفتاء في النجف وكربلاء. فإنّ كربلاء[25] وديالى كانتا اللوائين الوحيدين اللذين صوتا لصالح فيصل دون شروط، أو مخالفة، فيما وضعت الألوية الأخرى شروطاً مختلفة لانتخابه مثل استمرار الانتداب البريطاني (البصرة والدليم والحلة والعمارة وغيرها)، بل إن جل لواء كركوك صوت ضده[26].

دشن تتويج الأمير فيصل يوم الثالث والعشرين من آب سنة 1921 بداية العهد الملكي في العراق، ذلك العهد الذي أدّى فيه الشيخ الشبيبي دوراً بارزاً كان في معظمه في خندق المعارضة الوطنية.

الدور السياسي لمحمد رضا الشبيبي في المرحلة الأولى من عهد فيصل الأول (1921 - 1925):

كان عهد الملك فيصل الأول حافلاً بالأحداث باعتباره عهد تأسيس الدولة العراقية الحديثة، ولأنه تزامن مع سنوات الانتداب البريطاني على العراق باستثناء السنة الأخيرة من عمره، وللأسباب ذاتها فإن العهد الجديد كان أحوج ما يكون إلى جهود وتوجيهات رجال مخلصين من أمثال الشبيبي الذي تمتع بمكانة خاصة لدى أبرز المسؤولين الذين تصدروا الحكم في ذلك العهد، يأتي ياسين الهاشمي في مقدمتهم لأسباب معروفة[27]. ارتبط أحد أهم أسباب اهتمام فيصل وأعوانه بالشبيبي بماضيه الوطني النظيف. يقول نجله أسعد

الشبيبي بهذا الخصوص:

«وذكر رجال العهد الجديد للكريم الفقيد مواقفه الجلّى من قضية الاحتلال، وثورة الاستقلال، فكان الملك يستزيده، ويستشيره»[28].

كان الملك فيصل الأول يستشير الشبيبي في أهم القضايا، وأدقها منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة. حسب رواية الشبيبي نفسه كان أول لقاء بينهما قد جرى بعد تتويج فيصل مباشرة، وكان حول موضوع الجيش. تحدث الشبيبي عن ذلك أمام مجلس النوّاب فيما بعد، فقال:

لقد قدّر لي أن أعبّر عن آرائي بشأن خدمة العلم في مناسبتين، فقد استدعاني المرحوم الملك فيصل سنة 1921 بعد تتويجه، وقد رأيته يرتدي بزة عسكرية لأول مرة في العراق، فقال لي عند مقابلته ستراني من اليوم فصاعداً بلباس الجندي، ورغبت أن نتعاون في البحث عن التطوع في الجيش. ثم أشار إلى الأخطار المحدقة بالبلاد في ذلك الحين...»[29].

كتقليد معروف بين آل الشبيبي لم يكن محمد رضا الشبيبي يميل في البداية إلى أن يتقلّد أي مسؤولية رسمية في الدولة. ففي المرحلة المبكرة من عهد الملك فيصل الأول جرى تكليفه أكثر من مرة لإشغال مناصب رفيعة، إلّا أنه فضل البقاء بعيداً عن أجهزة الدولة بحجة أنه يؤثر الانقطاع للدراسة والتأليف[30]. من المنطلق نفسه ارتأى أن يبقى بعيداً عن المجلس التأسيسي وانتخاباته، وهو أمر يؤخذ عليه، ذلك لأنّ المجلس التأسيسي الذي بوشر بانتخاب أعضائه منذ الرابع والعشرين من تشرين الأول سنة 1922[31] كان من المقرر له أن يبت في أول معاهدة عراقية ـ بريطانية، وأن يضع أول دستور للبلاد، وأن يشرّع قانون انتخاب أعضاء مجلس النوّاب بالتسلسل كما ورد في

خطاب العرش يوم افتتاح المجلس في السابع والعشرين من آذار سنة 1924[32]، ولا يخفى أن المهمات الثلاث كانت من أهم القضايا المصيرية بالنسبة للعراق، وتحولت كل واحدة منها، فضلاً عن انتخابات المجلس نفسه، إلى ساحة لصراع سياسي محتدم أثبتت القوى الوطنية وجوداً فاعلاً فيها[33].

كان الشبيبي مؤهلاً للبروز في ذلك الميدان، لكنه آثر الابتعاد عنه منذ البداية دون أن نتمكن من الوقوف على دواعيه. ففي الثاني عشر من تموز سنة 1923 كتب مولود مخلص، متصرف (محافظ) كربلاء، إلى قائمقام النجف كتاباً سرياً يقول له فيه:

«استخرجوا رأي الشيخ محمد رضا الشبيبي عن قبول عضوية ديوان الانتخابات بصورة مخصوصة، على أن لا يتلقى هذه المفاتحة بصفة تكليف من الحكومة، بل بصفة شخصية من قبلنا حسب الحقوق التي بيننا، والغاية المشتركة، وعرفونا بالنتيجة عاجلاً. . .»[34].

جاء في ردّ القائمقام الآتي نصّه:

> «. . . ومهما شجعته على اقتحام هذه العوارض التي جعلها حجة لعدم موافقته فإنه أظهر المخالفة بتاتاً، والتمس أن أعرض لحضرتكم معذرته، وإني آسف جداً لعدم تمكني من إقناع هذا الرجل وفقاً لتنسيبكم، وقد أفدتكم الكيفية بالبرقية السرية على وجه الاختصار»[35].

إن أهم نشاط سياسي أبداه الشبيبي في تلك المرحلة المبكرة من عمر النظام الملكي كان اشتراكه الفعال في الجهود التي بذلت من أجل إقامة حياة حزبية علنية في العراق كانت تعدّ أداة مطلوبة لضمان قدر من الديمقراطية التي تحوّلت إلى أمل من آمال أمثاله من المثقفين المجددين[36]. فبعد بيعة فيصل

مباشرة خطط «فريق من رجال السياسة الوطنية» لإنشاء حزب سياسي علني، وعقدوا لهذا الغرض عدة اجتماعات، كان أولها ببيت جعفر العسكري. حضر الشيخ محمد رضا الشبيبي هذا الاجتماع مع كل من صاحب البيت والسيد محمد الصدر ونوري السعيد والشيخ أحمد الداود وناجي السويدي وحمدي الباجه جي وجلال بابان وبهجت زينل ومحمد مهدي البصير. قرّ رأي المجتمعين على إنشاء حزب سياسي، وانتخبوا من بينهم لجنة لوضع منهاجه قوامها كل من الشبيبي والبصير والسويدي وجلال بابان وبهجت زينل[37].

تعثرت جهود هذا الجمع المتميز من أجل تأسيس أول حزب علني في العهد الملكي لأنّ فيصل الأول لم يكن يستسيغ بعد «تأليف أحزاب سياسية مختلفة، ذوات خطط متضاربة، ومقاصد مختلفة»[38]، وكانت حجته في ذلك «تفرق كلمة السوريين من جراء تشكيل الأحزاب السياسية» أثناء حكمه لسوريا[39].

على أثر ذلك انسحب نوري السعيد وجعفر العسكري من الهيئة المؤسسة للحزب المزمع تأسيسه، لكن انضمّ إليها بالمقابل جعفر أبو التمن الذي عاد إلى العراق لتوّه، وكان معروفاً بنشاط سياسي جمّ، وباتجاه وطني ثابت، تجمعه مع الشبيبي وشائج فكرية عديدة. ساعدت عودة أبي التمن على إحياء حركة تأسيس الحزب، وتنشيطها من جديد. تقول وثيقة بريطانية سرية عنه أنه «عاد في أيلول 1921، وكان نشيطاً في تصعيد جميع الحركات الوطنية المتطرفة»[40].

عقدت سلسلة اجتماعات جديدة في دار أبي التمن، لكنها لم تسفر هي الأخرى عن نتيجة محددة بسبب تسويف الحكومة «السماح للقوم بإنشاء حزب»، والاختلاف الكبير في الرأي حول «إنشاء حزب مختلط يؤلف بين المتطرفين والمعتدلين»، وأخيراً نتيجة «هجوم الإخوان[41] على عشائر

المنتفك»[42].

لم تذهب هذه الجهود، التي كان الشبيبي عنصراً بارزاً فيها سدى، فقد أدّت دوراً أساسياً في إجبار الحكومة على إصدار «قانون الجمعيات» يوم الثاني من تموز سنة 1922[43]، والذي «كان عبارة عن تعديل لقانون الأحزاب العثماني الذي سنته الوزارة الاتحادية»[44]. على الرغم من جميع نواقصه يعد القانون بحدّ ذاته خطوة مهمة إلى الأمام في تاريخ ظهور المؤسسات الديمقراطية، وتطورها في العراق كونه دشن بداية الحياة الحزبية العلنية في العراق في العهد الملكي، فبعد مرور شهر واحد فقط على صدور القانون تأسس «الحزب الوطني العراقي»، وبعده بسبعة عشر يوماً فقط تأسس «حزب النهضة العراقية»، وكانا حزبين معارضين[45].

لم يشترك محمد رضا الشبيبي في الهيئة التأسيسية لأي من الحزبين، ولا يستبعد أن يكون ذلك بسبب موقف الملك فيصل الأول السلبي من إنشائهما. ثم إن الحزبين لم يعمرا طويلاً حتى يتحولا إلى أداة استقطاب سياسي بالنسبة لأمثال الشبيبي، فقد عاش «الحزب الوطني العراقي» اثنين وعشرين يوماً، فيما لم يعش «حزب النهضة العراقية» سوى خمسة أيام فقط، إذ تمّ إقفال كليهما يوم الرابع والعشرين من آب سنة 1922 بأمر من المندوب السامي البريطاني بسبب موقفهما المتشدد من المعاهدة العراقية ـ البريطانية التي انتهت المفاوضات بصددها، وكان من المقرر عرضها على المجلس التأسيسي لإقرارها[46].

بعد سنوات قليلة عاد الشبيبي مرة أخرى إلى الحياة الحزبية كما تبين ذلك فيما بعد، ولكن يجب أن نقرّ أن دوره في هذا الميدان، مثل جميع أقرانه المجددين، كان دوراً محدوداً، اتّسم بقدر واضح من التردد بحكم طبيعة الحياة الحزبية في سنوات الانتداب البريطاني[47].

يبرز محمد رضا الشبيبي فوق المسرح السياسي مرة أخرى مع تأليف وزارة ياسين الهاشمي الأولى يوم الثاني من آب سنة 1924، وكانت واحدة من أهم الوزارات في عهد الانتداب على الرغم من أنها بقيت في سدة الحكم مدة عشرة أشهر ونيف فقط[48]، فقد كانت أول وزارة وقعت على عاتقها تنفيذ المعاهدة العراقية ـ البريطانية التي ولدت بعد مخاض عسير بفضل المعارضة القوية لعقدها، والتي كان شخص رئيس الوزراء أحد أبرز أقطابها. وكان على الوزارة الهاشمية الأولى أيضاً منح امتياز النفط، ونشر القانون الأساسي (الدستور)، وإجراء أول انتخابات لمجلس النوّاب. كما تزامنت مع عهدها أخطر وأدقّ مراحل البت في مشكلة الموصل، دعك عن القضايا الخطيرة الأخرى التي تمخضت عن الأزمة الاقتصادية، وعن هجوم جديد للأخوان، وعن حركات الشيخ محمود وغيرها[49].

كان أمراً طبيعياً أن يفكر ياسين الهاشمي في أن يكون الشيخ الشبيبي أحد أعضاء وزارته بحكم علاقاتهما الوطيدة أولاً، وبحكم سمعة الشبيبي الرفيعة، ونزاهته المعروفة ثانياً. فما إن كلّف الهاشمي بتأليف وزارته على أثر استقالة وزارة جعفر العسكري الأولى في الثاني من آب سنة 1924[50] حتى أبرق إلى الشبيبي يطلب منه الاشتراك في وزارته[51].

في البداية تردد الشبيبي في قبول المنصب على الرغم من ميله الشديد للتعاون مع شخص ياسين الهاشمي. وتحت ضغط المقربين منه[52]، فضلاً عن قناعته بضرورة التعاون مع الهاشمي استجاب الشبيبي لطلب الأخير، خصوصاً وأنه خصص له حقيبة وزارة المعارف التي كان يرغب فيها، ومؤهلاً لها أكثر من جميع الوزراء الآخرين[53]، بل أنه كان أجدر من تبوّأ هذا المنصب منذ أن تأسست الحكومة المؤقتة، ومن ثم النظام الملكي[54]. إن تعيين الشبيبي وزيراً للمعارف كان بحدّ ذاته حدثاً ثقافياً[55].

في الثامن من آب 1924 نشرت الوزارة الجديدة موجزاً لمنهاجها الذي ركّز داخلياً على ضرورة «الإسراع في نشر القانون الأساسي، وقانون انتخاب النوّاب، ووضعهما موضع التنفيذ، وجمع المجلس النيابي»، و«النظر بنوع خاص في حالة البلاد الاقتصادية، والأخذ بالوسائل الممكنة لرفاه البلاد، والسعي في تنفيذ المشاريع الاقتصادية الكبرى»، و«الاعتناء في تحسين أمور الزراعة والريّ... ووضع الأسس المناسبة لحلّ مسائل الأراضي»[56]، و«تزييد قوات البلاد المسلحة بقدر المستطاع». كما أكّد خصيصاً ضرورة «استكمال أسباب الدفاع عن حقوق المملكة العراقية عامة، وفي ولاية الموصل خاصة»[57].

وبالنسبة للعلاقة مع بريطانيا، وسياسة الحكومة الخارجية عموماً أكّد المنهاج عزم الوزارة على التآزر مع الدولة الحليفة للإسراع في تسلّم المسؤوليات، والسعي للاستفادة من مركزها وخبرتها لإنهاض العراق، وتطبيق المعاهدة بكل دقة، والسعي في تحقيق التعديلات المشار إليها في قرار المجلس التأسيسي، وفي تخفيف الأعباء عن عاتق الدولة العراقية»، فضلاً عن «الإسراع في تأسيس الصلات السياسية والمناسبات الودية مع الدول المجاورة وغيرها»[58].

أما بالنسبة للتعليم، مهمة وزارة المعارف التي أنيطت حقيبتها بمحمد رضا الشبيبي، فإن منهاج الوزارة نصّ على «تزييد الاهتمام في نشر العلم بين جميع الطبقات، والسعي في توسيع نطاق المعارف»، وهو كلام عمومي درجت عليه مناهج جميع الوزارات العراقية في تلك المرحلة. لكن الوزارة الهاشمية أصدرت منهاجاً تفصيلياً جديداً في الثاني عشر من كانون الأول 1924 لمناسبة قرار الشروع بانتخابات أول مجلس نيابي، خصص فيه حقل خاص للتعليم هذا نصه:

«سياسة التعليم: العمل على إنهاض البلاد نهضة علمية سريعة، على أن يكون الاحتفاظ بسجايا الأمة وأخلاقها وأوضاعها وشخصيتها التاريخية المعلومة، أساس النهضة المشار إليها، ولذلك يجب فحص مناهج التدريس والتعليم، وكتبه الحاضرة وإصلاحها وفقاً لأصح التجارب، وأحدث الاختبارات، وتعميم التعليم الابتدائي، وجعله إجبارياً قدر الإمكان، ونشر العلم حبّاً بالعلم نفسه لا بالخدمة والمنفعة فقط، وصرف الاهتمام إلى تهذيب النفوس والأخلاق، وإنعاش التعليم الأهلي ومساعدته على التوسع والانتشار، وإشراك الأهالي في جميع جهات القطر، وإعطائهم قسطهم من الإشراف على شؤون التربية والتعليم، وزيادة البعثات العلمية وخصوصاً الصناعية، والمبادرة إلى فتح مدرستي الطب والزراعة، وإصلاح مدرسة الهندسة[59] وفقاً لحاجة القطر، وما يتوقع له من التقدم في مضمار الزراعة والصناعة، والاستمرار على إرصاد المبالغ الكافية، وزيادة ميزانية المعارف إلى أن تتحقق هذه الرغائب»[60].

لا يستبعد أن يكون هذا الجزء من المنهاج التفصيلي للوزارة الهاشمية من وضع الشبيبي نفسه[61]، فإنّ «نشر العلم حبّاً بالعلم» كان من آرائه المعروفة عنه على نطاق واسع. كانت بقية أقسام المنهاج التفصيلي لوزارة ياسين الهاشمي طموحة بالمستوى نفسه. لكن ما تحقق من المنهاج عموماً كان شيئاً محدوداً لأسباب معروفة نجمت عن ظروف البلاد الاقتصادية، وعن عمر الوزارة القصير وعوامل أخرى لم تأخذها الوزارة بنظر الاعتبار، حالها في ذلك حال جميع الوزارات العراقية السابقة، فوعدت أكثر بكثير مما كانت إمكاناتها الحقيقية تسمح بإنجازه.

ينطبق القول نفسه على منجزات وزارة المعارف في عهد محمد رضا الشبيبي، انها كانت بدورها دون مستوى الطموح إلى حدّ كبير. فإنّ الحديث

عن التعليم الابتدائي الإلزامي كان سابقاً لأوانه بسبب عدم توفّر مستلزماته الأساسية أصلاً. ولم يكن بالإمكان أيضاً تحقيق أي زيادة ملموسة في حصة وزارة المعارف من ميزانية الدولة[62]، خصوصاً وأن البلد كان يعاني يومذاك من أزمة اقتصادية حقيقية[63]، مما كان يحول دون توفير الشروط المطلوبة لإجراء تطوير ملموس في ميدان التعليم بالأسلوب الذي كان يرنو إليه الشبيبي، وكذلك شخص رئيس الوزراء ياسين الهاشمي.

على الرغم من ذلك فإنّ ما حققته وزارة المعارف في عهد محمد رضا الشبيبي لم يكن أقلّ شأناً مما تحقق في عهد أي وزير سابق للمعارف، مع العلم أنه بقي في منصبه مدة أقل من معظم وزراء المعارف السابقين. بل إن الوزارة خطت بعض الخطوات النوعية إلى الأمام في ميدان اختصاصها. فإنها أولت مدارس البنات قدراً أكبر من الاهتمام، واستقدمت سبع معلمات من الأقطار العربية للعمل في دار المعلمات ببغداد التي كانت تعاني النقص منذ مدة في الملاكات المتخصصة. كما استقدمت في الوقت نفسه ثلاثة متخصصين في الرياضيات من خريجي الجامعة الأمريكية ببيروت[64]. وحسبما يؤكد أحد المتخصصين في الموضوع فإنّ الوزارة حرصت «على اختيار هذه العناصر من ذوي الاتجاهات القومية»[65].

اتخذت في الوقت نفسه بعض الخطوات بصدد «فتح مدرستي الطب والزراعة» كما ورد في المنهاج التفصيلي لوزارة الهاشمي. فلم يمرّ سوى أسابيع قليلة على تسنم الشبيبي منصب وزارة المعارف حين رفعت الوزارة اقتراحاً في السادس والعشرين من آب سنة 1924 تطلب فيه «فتح صف استعدادي زراعي في المدرسة الثانوية تمهيداً لفتح مدرسة زراعية». مهّد ذلك الطريق لتأسيس «الكلية الزراعية الملكية» في الثامن من كانون الثاني 1926، أي بعد مرور أقل من عام على خروج الشبيبي من الوزارة. يلاحظ الشيء نفسه

تقريباً بالنسبة للكلية الطبية التي تم تأسيسها في تشرين الثاني 1927[66]، أي حين كان الشبيبي عضواً في مجلس النواب حيث كان له إسهامه في القرارات التي اتخذت بخصوص هذه الأمور[67].

أثير موضوع مهم آخر أثناء تولي محمد رضا الشبيبي لوزارة المعارف يتعلق بمحاولة أحد المبشرين الأمريكان فتح مدرسة ثانوية داخلية للبنات في بغداد. ففي أيلول 1924 تقدم الدكتور كالفن ستاوت (Calvin Staudt) بطلب إلى وزارة المعارف حول تأسيس مدرسة ابتدائية للبنات تمهيداً لتأسيس المدرسة الثانوية المذكورة، وبيّن في الطلب أنه ينوي قبول المسلمات والمسيحيات على حدّ سواء «على أن يدرّس في المدرسة[68] شيء من تعاليم الكتاب المقدس». إلاّ أن الوزارة أوقفت الطلب بحجة مفادها أنها «عرضت على مجلس الوزراء لائحة قانون لتنظيم أمور المدارس الخصوصية في العراق». وعلى الرغم من أن ذلك لم يفت من عضد الدكتور ستاوت، فأعاد الكرة ثانية إلاّ أنه لم يحقق مبتغاه إلاّ بعد أن استقال الشبيبي من الوزارة[69].

كان منح امتياز النفط من أهم الموضوعات التي أشغلت بال الوزارة الهاشمية، وكان عليها البتّ في موضوعه قبل تقرير مصير ولاية الموصل. جرت المفاوضات بشأن الامتياز في ظروف معقدة وصعبة نجمت عن مناورات أطراف دولية مختلفة، وضغوط البريطانيين، وإفرازات مشكلة الموصل، والأوضاع المالية المزرية للدولة، وموقف المعارضة الوطنية[70].

في خضم هذا الصراع المصيري انضمّ الشبيبي إلى صفوف المعارضة وهو في سدّة الحكم، واختلف بسببه مع ياسين الهاشمي في حين أنه كان أكثر الوزراء حرصاً عليه، وصلة به، فلم يدفعه أي خلاف معه إلى التخلي عنه قبل ذلك[71].

كان محمد رضا الشبيبي مدركاً عن وعي لحقيقة أن لا بد للعراق في ظل

ظروفه السياسية والاقتصادية القاهرة يومذاك من منح امتياز استغلال ثروته النفطية إلى شركة النفط التركية[72]، لكنه كان يميل بقوة إلى ضمان أكبر قدر ممكن من مصالح العراق في تلك الصفقة، لذا فإنه أيّد رأي وزيري العدلية رشيد عالي الكيلاني والأشغال والمواصلات مزاحم أمين الباجه جي حول ضرورة إشراك العراق بنسبة 20٪ من رأسمال «شركة النفط التركية» حتى يضمنوا له بذلك قدراً أكبر من الموارد من ثروته النفطية التي كان بأمسّ الحاجة إليها. وقد أصبح الوزراء الثلاثة يؤلفون جبهة المعارضة داخل مجلس الوزراء، يقابلهم ثلاثة وزراء يؤيدون منح الامتياز هم كل من وزير الداخلية عبد المحسن السعدون ووزير الأوقاف إبراهيم الحيدري ووزير المالية ساسون حسقيل[73].

أحرج هذا موقف رئيس الوزراء ياسين الهاشمي، فلم يعد بإمكانه «توقيع الامتياز ومواجهة المعارضة» في آن واحد[74] لأنّ ذلك كان من شأنه أن ينال من سمعته، ويؤدي إلى فوز خصومه في انتخابات أعضاء أول مجلس نيابي في العراق كانت على الأبواب وذلك «بسبب إدانته بمنح الامتياز». من هذا المنطلق «أخذ ياسين الهاشمي يناور الفريقين بقصد الاحتفاظ بمنصبه أطول مدة ممكنة»، فلقد كان «يرغب في أن يتنازل العراق عن حقه بالإسهام في الشركة» من جهة[75]، ولا يرغب في «أن يعرض نفسه لانتقادات المعارضة» من جهة أخرى»[76].

كان الملك فيصل الأول يميل بدوره إلى منح الامتياز، فحاول استخدام نفوذه للتأثير على رأي الوزراء المعارضين الذين كان على علاقة وطيدة بهم، ولا سيما بالشبيبي. اجتمع فيصل من أجل ذلك بالوزراء الثلاثة على مدى ساعات طوال دون جدوى، فقرّ رأيه على إقالة الوزارة الهاشمية حتى يتسنى تأليف وزارة متجانسة تكون مستعدة لمنح الامتياز، لكن المندوب السامي

حذّره من اتخاذ إجراء من هذا القبيل كان من شأنه أن يؤدي إلى تعقيد الوضع أكثر. لكن موقف الملك ورئيس الوزراء زعزع تصميم وزير الأشغال والمواصلات مزاحم الباجه جي. يقول الحسني بهذا الصدد:

«أخبرني وزير الأشغال والمواصلات مزاحم الباجه جي أنه اضطرّ إلى تقديم استقالته من منصبه في الثامن عشر من شباط احتجاجاً على تصلّب الشركة في هذا الصدد، ثم عاد وسحب كتاب الاستقالة نزولاً عند رغبة رئيس الوزراء»(77).

ربط الباجه جي موقفه فيما بعد بما سمّاه «تهديد عصبة الأمم بفصل ولاية الموصل إذا لم تسارع الحكومة وتمنح الامتياز»(78). ومهما يكن من أمر فإنّ تراجع الباجه جي أضعف موقف المعارضة داخل مجلس الوزراء، ولا سيما أنه أصبح على استعداد للتوقيع على الامتياز باسم الحكومة العراقية. وهذا ما حصل فعلاً. ففي الخامس من آذار 1925 خوّله مجلس الوزراء توقيع الامتياز الذي كان أمده 75 سنة، مما دفع وزيري المعارف محمد رضا الشبيبي، والعدلية رشيد عالي الكيلاني(79) إلى تقديم استقالتيهما إلى ياسين الهاشمي في اليوم ذاته، ولم يثن الشبيبي عن قراره اجتماع ثنائي عقده الهاشمي معه خصيصاً لهذا الغرض(80). يقول نصّ استقالة الشبيبي:

صاحب الفخامة رئيس الوزراء الموقر. بعد التحية. حيث أنه لا يسعني الموافقة على اتفاقية شركة النفط التي هضمت بموجبها ـ على ما أعتقد ـ حقوق العراق فإني أتقدم إلى فخامتكم بانسحابي من المجلس الموقر. هذا ولفخامتكم مزيد الاحترام»(81).

لم يتسرع ياسين الهاشمي في قبول استقالتي الشبيبي والكيلاني «على أمل أن يتعاون وإياهما على إنجاز بقية منهاج الوزارة»، لكن الوزيرين رفضا

الاستمرار في العمل، فاستصدر رئيس الوزراء إرادة ملكية تقضي بقبول الاستقالتين في الثالث عشر من آذار، أي قبل يوم واحد فقط من توقيع الباجه جي امتياز النفط باسم الحكومة العراقية[82].

إن موقف الوزيرين أضعف الوزارة الهاشمية الأولى إلى حدّ كبير، حتى أن بعض الصحف اليومية توقعت «سقوطها صباح مساء»[83]. يصنّف المتخصص في تاريخ تلك الوزارة استقالة الشبيبي والكيلاني ضمن أهم أسباب سقوطها في الحادي والعشرين من حزيران عام 1925[84]. كما أن تعيين عبد الحسين جلبي[85] في وزارة المعارف مكان الشبيبي[86] قد أثار قدراً من الامتعاض[87].

لا شك في أن استقالة الشبيبي من الوزارة الهاشمية الأولى بسبب امتياز النفط قد زادت من رصيده السياسي في أعين العراقيين[88]، ولا سيما في وسط المثقفين الذين كان وزنهم السياسي، وتأثيرهم في الرأي العام ينمو بسرعة. فمنذ اليوم الأول تحوّلت استقالته مع الكيلاني إلى موضوع بارز على صدر الصحف اليومية التي تابعت كل ما يتعلق بها باهتمام متزايد على مدى عدة أيام[89]. بل إن جريدة «العراق» الواسعة الانتشار نشرت ثلاث مقالات افتتاحية حول الموضوع في الأيام السابع والسادس عشر والتاسع عشر من آذار 1925. إنها اختارت لأولى مقالاتها تلك عنوان «لماذا استقال الوزيران» عدّت فيها استقالة الشبيبي والكيلاني مؤشراً قوياً لما تعانيه الوزارة الهاشمية من أزمة خانقة»[90].

وفي مقالتها الثانية كتبت «العراق» حول الموضوع تقول: «فبعد أخذ وردّ طويلين قضي الأمر بمنح الامتياز على الشروط التي قدمتها الشركة التركية طالبة الامتياز مع شيء من التعديل، أما الفريق المعارض فقد ثبت في معارضته، منه رشيد عالي الكيلاني والشيخ محمد رضا الشبيبي، إذ تمسكا

برأيهما، وأصرّا على الاحتفاظ بنصيب العراق من حصص رأس المال لمشروع امتياز النفط. ولما رأيا أن مجلس الوزراء مائل إلى أن يقرر منح الامتياز من غير أن يحصل ما يطلبان استقالا من الوزارة»[91].

تحوّلت استقالة الوزيرين محمد رضا الشبيبي ورشيد عالي الكيلاني إلى موضوع متداول في المجالس السياسية مع قدر من المبالغة التي ترافق مثل هذه الأمور عادة، فقد جعلت الدعايات الملك فيصل طرفاً مباشراً في الموضوع، مع العلم أنه كان يؤثر في مثل هذه الحالات العمل خلف الكواليس، كما أنه سبق له الاجتماع بالوزيرين المستقيلين ووزير الأشغال والمواصلات كما بيّنا ذلك. نشرت جريدة «المفيد» بعد مرور خمسة أيام علىٰ استقالة الوزيرين خبراً يقول:

«علمنا من مصدر ثقة... أن جلالة الملك المعظّم قد رفض استقالة الوزيرين[92] الأستاذين، وقد أرسلت برقية إلى معالي الأستاذ رشيد عالي بك نزيل البصرة اليوم بهذا الشأن، وينتظر أن يجيب عليها اليوم مصرّحاً برأيه، وكذلك أرسلت برقية مثلها إلى الأستاذ الشيخ محمد رضا أفندي الشبيبي في النجف بهذا المعنى، ولم يرد جوابه عليها بعد»[93].

نشرت الجريدة نفسها في اليوم التالي خبراً يتناقض مع خبرها هذا، يقول نصّه «نمى إلينا كذلك أن قد قبلت[94] استقالة كل من الأستاذ رشيد بك عالي الكيلاني وزير العدلية، والأستاذ الشيخ محمد رضا أفندي الشبيبي وزير المعارف، وسنوافي القرّاء بالحقيقة الناصعة غداً»[95]، مع العلم أن الاستقالتين قبلتا بعد هذا التاريخ بيومين كما أسلفنا.

كان أمراً طبيعياً أن يزداد حقد البريطانيين وتحفظ أعوانهم تجاه الشبيبي بالقدر نفسه الذي ازدادت فيه شعبيته بسبب موقفه من امتياز النفط[96]. فلم

يكن مجرد صدفة إن لم يدع مرة أخرى، وعلى مدى عقد كامل، للاشتراك في أي من الوزارات الخمس عشرة التي ألّفت خلال تلك الحقبة، مع العلم أنه أثبت جدارة مشهودة في منصبه الوزاري الذي لم يبق فيه سوى مدة سبعة أشهر وثلاثة أيام فقط، فضلاً عن أن الذين عهدت إليهم حقيبة المعارف بعده في الوزارات تلك لم يتجاوزوه في شيء يذكر[97]، بل يوجد بينهم من أتى أعمالاً كان الشبيبي يستنكف القيام بها دون أدنى شك[98].

بعد تقديم استقالته بثلاثة أيام سافر الشبيبي إلى النجف، كما سافر الكيلاني إلى البصرة ربما لأنهما أرادا الابتعاد عن الضجيج السياسي في العاصمة التي كان الوضع فيها متوتراً بسبب الامتياز. كتبت «المفيد» عن سفر الشبيبي تقول «غادرنا إلى النجف الأشرف حضرة صاحب المعالي الشيخ محمد رضا الشبيبي وزير المعارف العراقية يوم أمس الأول بعد أن قدم معاليه استقالته من الوزارة المشار إليها، والذي علمناه أن هذه الاستقالة لم تقبل لحدّ الآن»[99].

حسب المصادر كان الشبيبي يومذاك في وضع مالي غير جيد[100]. في تعليق له على ذلك يقول علي الخاقاني: «وهذا الموقف الذي وقفه الشبيبي، وهو في أحرج ساعات حياته ومزاحمته من الانتقال إلى بغداد، ومضايقته المادية التي تخضع أي نفس للرضوخ لئلا يلفها قيد العسر، (في حين) كان المترجم له لا يعبأ بكل ذلك...»[101].

بعد استيزاره، وبعد مواقفه الأخيرة لم يعد بوسع محمد رضا الشبيبي أن لا يرتبط كليّاً بشؤون السياسة اليومية، وبالتالي بكل ما يتعلق بقضايا الدولة ومستقبلها[102]، فاتخذ من أول مجلس نوّاب عراقي منبراً للتعبير من خلاله عن آرائه التي أراد بها خدمة العراق حسب اجتهاده، وقناعاته.

محمد رضا الشبيبي في المعارضة البرلمانية في سنوات الانتداب:

قرّر مجلس الوزراء يوم الثامن عشر من تشرين الأول عام 1924، وكان الشبيبي لايزال عضواً فيه، أن ينشر قانون الانتخاب لأول مجلس نوّاب في العراق سنّه المجلس التأسيسي يوم الثاني من آب من العام نفسه. كان القانون[103]، على الرغم من جميع نواقصه (تحديد عمر الناخب بإحدى وعشرين سنة، وحرمان المرأة من حقّ الانتخاب غير المباشر على أساس مرحلتين أو درجتين، ومنح الملك سلطات تشريعية واسعة، وضمان وجود عدد من رؤساء العشائر في كل مجلس) يمثل خطوة نوعية إلى الأمام لما تضمن من مواد ديمقراطية من قبيل حرية الكلام، وصيانة النائب، ومنحه حقّ مناقشة الوزراء، وحقّ اقتراح اللوائح القانونية[104].

في الثاني عشر من تشرين الثاني صدرت إرادة ملكية تقضي بتعيين الخامس عشر من تشرين الثاني 1924 للبدء بإحضار قوائم المنتخبين الأوّلين. ثم تتابعت الخطوات المتممة لذلك في عهد الوزارة الهاشمية الأولى، وقد تزامن قسم آخر منها مع وجود الشبيبي في تلك الوزارة التي أتمّت انتخاب أعضاء مجلس النوّاب قبل أن تستقيل.

تحوّلت انتخابات أعضاء أول مجلس نيابي عراقي إلى حدث سياسي مهمّ على مدى الأشهر العديدة التي استغرقتها[105]، ولا سيما في مراحلها الأخيرة التي كان الشبيبي متفرغاً أثناءها، فقد «انصرف الشعب بكليته إلى الانتخاب النيابي «كما ورد في مقال افتتاحي لجريدة «العراق»[106]. وفي الواقع اتّسمت انتخابات أعضاء مجلس النواب بحيوية أكبر من انتخابات أعضاء المجلس التأسيسي، ورد في مقال افتتاحي آخر للجريدة نفسها بهذا الخصوص ما نصّه:

«ومن يقابل بين المعركة الانتخابية للمجلس النيابي هذا، وبين

الجمود الذي كان مستولياً على الناس لدى الانتخاب للمجلس التأسيسي يحمد هذه التجربة التي قطعتها الأمة في حياتها النيابية»[107].

شهدت الانتخابات صفحات إيجابية لها أهميتها التاريخية، خصوصاً إذا أخذناها في إطاريّ الزمان والمكان، أن الصحف الصادرة في تلك المرحلة طافحة بنماذج معبّرة عن ذلك، نورد منها أنموذجاً واحداً فقط هو:

«جدال انتخابي: استدعت مديرية الشرطة المحامي داود أفندي السعدي[108] لتحقق معه في قضية النزاع الذي شجر بينه وبين بعض شباب محلة الحيدرخانة للاستفسار منه عن هذه المسألة فأفاد أن ليس لديه شكاية ما، وأنه لا يشتكي من مسألة هي في نظره جدال انتخابي ليس إلّا»[109]. ومن المفيد أن نشير إلى أن داود السعدي وقف بحماس إلى جانب ترشيح الوطنيين البارزين من أمثال الشبيبي لأنفسهم للانتخابات الجارية.

لا شك أن مثل هذه الأجواء تحوّلت إلى أحد العوامل التي دفعت الشبيبي إلى ترشيح نفسه عن بغداد[110]، والخوض في غمار معركة الانتخابات التي تحول إلى أحد أبرز الأسماء في خضمها. ومما يسجل للشبيبي في هذا المجال هو أن اسمه ورد في الإعلانات الانتخابية التي نشرها مثقفون معروفون من اتجاهات متباينة، ومع أبرز الشخصيات السياسية التي كانت لا تنتمي بدورها إلى مدرسة فكرية واحدة، وعلى صفحات أكثر من جريدة. للتوضيح فقط نورد ثلاثة نماذج لمثل هذه الإعلانات، نشر الأول منها الشاعر المعروف جميل صدقي الزهاوي، ونشر الثاني منها مكي جميل[111]، ونشر الثالث منها عبد الهادي الظاهر[112]. يقول نصّ إعلان الزهاوي:

«ترشيح. بما أنني أحد أفراد الأمة أرى أن أرشّح الذوات أسماؤهم[113] أدناه للنيابة عن لواء بغداد: نوري باشا السعيد،

جعفر باشا العسكري، ياسين باشا الهاشمي، صبري باشا آل عزاوي، الأستاذ رشيد عالي بك الكيلاني، عبد الرزاق بك منير، الأستاذ رضا الشبيبي، رشيد بك الخطاب، بهاء الدين أفندي (النقشبندي) نجل الشيخ سعيد أفندي. التوقيع جميل صدقي»[114].

أما إعلان مكي جميل فيقول:

«انتخبوهم فإنهم أكفاء. لما كنّا في دور انتخابي، وبما أن الواجب يدعو انتخاب من هم جديرون بأن يمثلوا الأمة في مجلسها فإني أرشح الذوات الآتية أسماؤهم ليكونوا نوّاباً في البرلمان: جعفر بك العسكري فخري بك آل جميل، الأستاذ رشيد بك الكيلاني، الشيخ محمد رضا الشبيبي، حمدي بك الباجه جي، المحامي بهجت بك زينل، يوسف أفندي، عزرا أفندي مناحيم دانيال[115]، عبد الرزاق أفندي منير، التوقيع: بغداد ـ مكي جميل»[116].

وكان إعلان عبد الهادي الظاهر على النحو الآتي:

«ترشيح لنيابة المجلس النيابي. لما كان الواجب يدعو كل وطني غيور على مصلحة بلاده ووطنه أن يرشح ذواتاً لنيابة المجلس النيابي الخطير، ذلك المجلس الذي سيأخذ على عاتقه مسؤولية الوطن والشعب والتاريخ فأرشح الذوات المحررة أسماؤهم[117] أدناه لما اعتقد فيهم من الإخلاص والوطنية الصادقة لشعبنا النجيب، وهم: الحاج جعفر چلبي أبو التمن، الشيخ أحمد الشيخ داود، ياسين باشا الهاشمي، قاسم العلوي، عبد الغفور البدري، علي محمود المحامي، رشيد عالي

الكيلاني، رؤوف الجادرجي، السيد محمد الصدر، رضا الشبيبي، أنطوان شماس، يوسف الياس. التوقيع عبد الهادي الظاهر»[118].

ومما يلاحظ في الإعلانات الانتخابية الثلاثة أن اسمي الشبيبي والكيلاني هما الاسمان الوحيدان اللذان تكررا فيها، الأمر الذي يؤشر، على ما نعتقد، الانطباع الإيجابي الذي تركته استقالتاهما من وزارة الهاشمي احتجاجاً على منح امتياز النفط. وقد فاز كلاهما في الانتخابات، وقدر لكليهما أن يؤديا دوراً متميزاً في أول دورة لأول مجلس نيابي عراقي[119]، وقد بدأ بذلك دور جديد في حياة محمد رضا الشبيبي السياسية[120]. يقول الهلالي «ثم إنه انتخب في تلك السنة (1924) نائباً في المجلس النيابي، ومنذ ذلك الحين دخل المعترك السياسي ولم يبتعد عنه حتى آخر لحظة من حياته»[121].

تحوّل الشبيبي إلى أحد أبرز أعضاء مجلس النوّاب العراقي طيلة العهد الملكي، فقد أعيد انتخابه لسبع دورات أخرى، ليصبح مجموع الدورات التي كان الشبيبي فيها عضواً ثمان دورات من أصل دورات المجلس الست عشرة في ذلك العهد[122].

دخل المجلس الأول، فضلاً عن الشبيبي، عدد آخر من الساسة الذين عرفوا باتجاهاتهم الليبرالية بصورة، أو بأخرى، منهم ياسين الهاشمي ومحمود رامز وعبد اللطيف الفلاحي والسيد عبد المهدي وسعيد الحاج ثابت ورشيد الخوجة وأحمد الداود وثابت عبد النور وأمين الجرجفجي. ومنهم أيضاً شقيقه محمد باقر الشبيبي الذي حاول، مع السيد عبد المهدي[123]، تأسيس حزب معارض في أواسط العام 1925، مما «أقلق راحة عبد المحسن السعدون»[124] الذي خلف ياسين الهاشمي في رئاسة الوزارة[125].

لم يشترك محمد رضا الشبيبي في محاولة شقيقه محمد باقر الشبيبي التي

لم يكن بوسعها لم شمل جميع قوى المعارضة في خندق واحد، فيما استجاب لمحاولة أخرى أشمل، وأوسع كانت تتفق أكثر مع منطلقاته الفكرية. فيكون الشبيبي بذلك قد أدّى دوره في إقامة أول معارضة حزبية برلمانية في التاريخ السياسي العراقي المعاصر. فحين أقدم عبد المحسن السعدون على تأليف حزب سياسي برلماني يشد أزر وزارته، ويضم عدداً من أبرز النوّاب الذين يؤمنون مثله بضرورة التعاون بين العراق وبريطانيا، أسرع لفيف آخر من الساسة المعارضين إلى تأليف حزب سياسي آخر في عشرين تشرين الثاني عام 1925، وقد اختاروا له اسم «حزب الشعب»، فيما أطلق السعدون على حزبه اسم «حزب التقدم»[126].

اقتصرت الهيئة الإدارية للحزبين على أعضاء مجلس النوّاب وحدهم[127]. فبالنسبة لحزب «الشعب» فقد ضمّت اثني عشر نائباً، كان سبعة منهم يمثلون بغداد[128]، وثلاثة منهم يمثلون الموصل[129]، وهذا أمر لا يخلو من مغزى لأنّ مجال تدخل السلطة والبريطانيين في عملياتهما الانتخابية كان أقل من جميع المدن العراقية الأخرى، لذا كان بوسعهما ضخ أكبر عدد من المعارضين إلى أروقة مجلس النوّاب، وقد تحوّل ذلك إلى تقليد ثابت تقريباً رافق الحياة البرلمانية طيلة العهد الملكي.

انتخب ياسين الهاشمي رئيساً لحزب «الشعب»، فيما انتخب محمد رضا الشبيبي نائباً للرئيس[130]، وأحمد الشيخ داود معتمداً للحزب، اختار الحزب في منهاجه المقتضب[131] «الإخلاص والتضامن والتضحية» شعاراً له (المادة الثانية)، وجعل من «إسعاد الشعب العراقي، وتأمين الاستقلال التام للدولة العراقية» غايته (المادة الثالثة)، كما أكد ضرورة «إنماء القوى الوطنية وتثقيفها»، و«تقوية الشعور الوطني» (المادة الرابعة). أما طروحاته بالنسبة للدولة المنتدبة بريطانيا فلقد كانت معتدلة تماماً، إذ لم يتطرق الحزب في

منهاجه سوى إلى السعي «لإدخال العراق ضمن عصبة الأمم، وتحقيق التعديلات التي أشار إليها المجلس التأسيسي «بالنسبة للمعاهدة العراقية ـ البريطانية (المادة الخامسة).

لم يكن بوسع «حزب الشعب» المعارض، أو «حزب التقدم» الحكومي، أو أي حزب آخر ظهر في تلك المرحلة أن يؤدي دوراً كبيراً، أو حاسماً في الحياة الفكرية والسياسية في العراق، الأمر الذي كان يعكس واقعاً اجتماعياً وثقافياً وسياسياً محدداً. فكان الحزب، كأي حالة مشابهة، يعاني من العديد من النواقص، وكان يتحرك أساساً في إطار الصراع من أجل السلطة، أو بالأخرى من أجل كراسي الحكم إذا توخينا الدقة في التمييز أكثر. يقول الحسني، وهو محق في ما يقول، إن «حزب الشعب» اختفى عملياً لأنّ أركانه فضلوا «إشغال المناصب الكبرى في الدولة»[132]. إلاّ أن ما يسجل لحزب «الشعب» هو أنه دشن، مع ذلك، بداية متواضعة للمعارضة البرلمانية المنظمة في العراق.

لم يكن بوسع الشبيبي أن يؤدي دوراً حاسماً في توجيه «حزب الشعب» بحكم واقعه، وأهدافه الحقيقية، ووجوده الواقعي لا النظري، مع العلم أن الشبيبي كان أثقف أعضاء الحزب، وأكثرهم صلابة. إنه كان «رجل علم وثقافة»، لذا «بقي مستقيماً في خطه المعارض للحكم والانتداب» داخل الحزب حسب تعبير مؤلف كتاب «الأحزاب السياسية في العراق»[133].

إن طبيعة «حزب الشعب» أبعدت الشبيبي عنه[134]، فقد سيطر عليه رئيسه ياسين الهاشمي إلى الحدّ الذي جعله «يعرف على النطاق العام باسم حزب ياسين الهاشمي»[135]، ومن ثم إنه ساوم صراحة على حساب الحزب حين «استله جعفر العسكري منه»[136] وأشركه في وزارته الثانية التي تألّفت يوم الحادي والعشرين من تشرين الثاني سنة 1926[137]، الأمر الذي تحوّل إلى

«الخطوة الأولى لإسكات صوت المعارضة، وبالتالي إنهاء دور الحزب الذي أوجد من أجله»[138]. وقد أشار الشيخ الشبيبي نفسه صراحة إلى ذلك داخل مجلس النواب، وبوجه شخص ياسين الهاشمي الذي ناقشه الشبيبي في موضوع ميزانية الدولة الجديدة بصفته وزيراً للمالية، إذ قال له ما نصه:

«لم يبق من شك بأن فخامة وزير المالية قد أفرغ قريحته بالهجوم على المعارضين كما سماهم، أو المحاسبين كما ينبغي أن نسميهم، بقالب الدفاع عن الميزانية ذاهباً إلى أن ذلك يفت بعضد هؤلاء المحاسبين، ويقعدهم عن واجب محاسبته. لا يا فخامة الوزير لم تعد هذه الأساليب مهما كانت لطيفة، ومهما أحكم وضعها كافية لمنع المحاسبين من المحاسبة، أو المعارضين من المعارضة العلمية، أو الحزبية كما أشار إليها، **ثم إني لم أعد أعرف أن في المجلس حزباً معارضاً بالمعنى الذي أشار إليه فخامة وزير المالية، وإنما أعرف أن هناك حزباً معارضاً أخمد أنفاسه أحد الكراسي**»[139].

حقاً أن الشبيبي كان رائعاً في موقفه، فقد وضع النقاط على الأحرف كما ينبغي!!.

يكمن في ذلك أيضاً سبب الدور المتواضع الذي أداه الشبيبي في تحرير جريدة الحزب «نداء الشعب» التي بدأت بالصدور اعتباراً من يوم العشرين من كانون الثاني عام 1926 [140]. فلم ينشر الشبيبي في جميع أعداد «نداء الشعب» طيلة دورتها الأولى التي استمرّت لغاية التاسع من تموز سنة 1927[141] سوى مقالة واحدة في عددها السادس[142]، مما يتنافى مع تأكيدات مؤرخي الصحافة والأحزاب السياسية العراقية حول اشتراك الشبيبي الفعال في تحرير «نداء الشعب»[143] وإننا نشك في أن يكون الشبيبي قد نشر في الجريدة باسم

مستعار[144]، إنه كان في غنى عن ذلك حتماً.

مهما يكن من أمر يؤخذ على الشبيبي موقفه السلبي من «نداء الشعب» التي كانت أول جريدة ناطقة بلسان حزب سياسي برلماني علني معارض، فقد وردت عبارة «جريدة يومية سياسية، لسان حال حزب الشعب العراقي» تحت اسمها مباشرة منذ اليوم الأول من صدورها[145]، وهذا أمر لم تسبقها فيه صحيفة عراقية أخرى، ثم إن «نداء الشعب» كانت، على الرغم من قصر عمرها، واحدة من أفضل الجرائد العراقية التي صدرت في سنوات الانتداب. يقول المتتبع لتاريخ الصحافة العراقية، وأحد أبرز عناصر تلك الصحافة فائق بطي عن جريدة «نداء الشعب» أنها نجحت «نجاحاً سريعاً لتبنيها قضايا الشعب، ومهاجمة المعاهدة العراقية البريطانية، والردّ على الصحف المؤيدة للمعاهدة كجريدة «العراق» بأسلوب حادّ بعيد عن المهاترات الشخصية، أو أسلوب القذف. كما أنها دأبت على تعرية سياسة الانتداب، و(على) الدفاع عن حرية الصحافة. . .»[146]، وهي جميعها أمور استحوذت على فكر الشبيبي أكثر من معظم أقرانه.

لا داعي للتأكيد على أن الشبيبي كان بوسعه أن يؤدي دوراً متميزاً في تحرير «نداء الشعب» على الأقل لأنها كانت تمثل لسان حال المعارضة البرلمانية في تلك الحقبة. وخير شاهد على ما نقول مقالته الوحيدة المعروفة المعنونة «حكم مجلس العصبة» التي نشرتها الجريدة في صدر صفحتها الأولى في مكان مقالها الافتتاحي لذلك اليوم[147].

تعدّ مقالة الشبيبي تلك واحدة من أقوى المقالات السياسية التي نشرتها «نداء الشعب»، أنها تؤشر مرة أخرى بعد نظر صاحبها، وقراءته الصحيحة للأحداث. ففي الوقت الذي هلّل العديد من الساسة للتقرير الذي وضعته اللجنة الخاصة التي ألّفتها عصبة الأمم للبتّ في مشكلة الموصل، وللقرار

الذي اتخذته العصبة بصدد مستقبل ولاية الموصل، نرى الشبيبي يتصدّى لهما بأسلوب منطقي قوي بسبب ما أنطويا عليه من مسّ بسيادة العراق ومستقبله، ولا سيما فيما يخصّ فرض تمديد أجل الانتداب والمعاهدة العراقية ـ البريطانية عليه.

تضمنت المقالة أيضاً تقييماً فريداً في بابه لعصبة الأمم، نشك في إمكانية العثور على ما يضاهيه في صحافة تلك المرحلة، أو في أي مصدر آخر طبع يومذاك. نورد فيما يأتي الأسطر الأخيرة من مقالة الشبيبي التي من شأنها إعطاء فكرة واضحة عن مضمونها ككل. اختتم الشبيبي مقالته بالقول:

«لا نقول في هذا المكان أكثر من أنّ الحكم المشار إليه لا يتفق بوجه من الوجوه مع أخصّ مبادىء العصبة التي تدعي السير بموجبها إلى الآن، أعني وجوب استشارة سكان البلاد في مثل هذه الأمور، ثم إنه حكم يشتمل على أمور أصبح تناقضها، وتدافعها من أوضح الواضحات مثل (نظام التعاهد) و(نظام الانتداب)[148]. إذ من المعلوم أنه حيث توجد معاهدة لا يوجد انتداب، وحيث يطبق انتداب لا تصح المعاهدة، لأنّ صيغة المعاهدة في لغتنا الشريفة، وفي كل لغة ـ عدا لغة الاستعمار ـ تدلّ على التكافؤ والمناظرة، مما لا يتفق مع مؤدى الانتداب والوصاية إلاّ إذا اتفق النقيضان، واجتمع المتباينان، ولا يلتئم مع نظامها ـ ذلك النظام الذي أثقل عاتق الدولة البريطانية، وجعلها تنوء فيما مضى بأعظم التكاليف. هذا فضلاً عن العيوب والمساوىء الأخرى التي تضمنها تقرير البعثة أولاً، وحكم العصبة ثانياً من الشذوذ عن موضوع التحكيم، ومن نكران الجميل، والتعريض بكفاءة العرب والعراقيين ممّا دلّ على مبلغ

تأثير الأهواء والأغراض، ومبادىء الاستعمار العتيقة على هؤلاء الذين أبرموا الحكم المشار إليه، فاتخذوه أساساً بنيت عليه المعاهدة الجديدة على ما يقولون»[149].

نشرت «نداء الشعب» في الوقت نفسه ما كان يدور من نقاش داخل أروقة مجلس النوّاب، مع التأكيد بصورة خاصة على مواقف نوّاب المعارضة على أساس تمثيلها لهم.

تصدّى محمد رضا الشبيبي داخل مجلس النوّاب لموضوعات شتّى سياسية وثقافية واقتصادية وغيرها، وكان في الواقع أحد أكثر النوّاب مداخلة في مناقشات المجلس، فقد كان مؤمناً «بسلطة وقوة مجلس الأمة[150]»، وبأن مجلس النوّاب تحديداً هو الذي «ينفّذ سلطة الأمة قبل كل سلطة» كما ذكر ذلك أمام المجلس نفسه في أحد اجتماعاته المبكرة[151]. ومن هذا المنطلق فإنه ناقش كل موضوع، وكل مسؤول بوضوح، وبجرأة كافية حتى وإن تعلّق ذلك بموضوع تعليم الأمير غازي[152]، أو بآراء وزير الدفاع أو الداخلية مثلاً[153]. بل انه طالب صراحة أن يكون نقاش خطاب العرش نقاشاً تفصيلياً، وانتقد الأكثرية داخل المجلس لأنها فرضت «طريقة الإجمال التي يقتصر فيها على شكر رئيس الحكومة الأعلى[154] شكراً مجرّداً من كل تعرّض لما جاء في خطاب العرش من اعتراض، أو انتقاد»[155].

وفي حالات غير قليلة كان جانب كبير من نقاش الجلسة أثناء دورتي المجلس الأولى والثانية يقتصر على الشبيبي والوزير المختص، يسفر النقاش في أغلب الحالات عن الأخذ برأي الشبيبي[156] الذي اتّسمت مناقشاته دائماً بالهدوء والرصانة، وقوة حججها، ووضوح لغتها، وواقعيتها، إذ أكّد منذ الدورة الأولى للمجلس ضرورة التفكير «بما هنالك من القابلية لتطبيق القوانين»[157]. لذا فإنّ كبار المسؤولين كانوا يولون آراءه ومقترحاته اهتماماً

خاصاً، ويثنون عليها أمام المجلس نفسه[158].

إن أهم موضوع سياسي أثير في تلك المرحلة كان يتعلّق بالمعاهدة العراقية ـ البريطانية الجديدة التي تمّ التوقيع عليها في لندن في الرابع عشر من كانون الأول سنة 1927[159]. لم تعرض المعاهدة على مجلس النوّاب أصلاً على أساس أنها استهدفت تعديل المعاهدة العراقية ـ البريطانية الأولى في ضوء توصيات سابقة، بما في ذلك توصيات المجلس التأسيسي. كما أن مجلس النوّاب لم يجتمع بعد التوقيع على المعاهدة، إذ جرى حلّه بإرادة ملكية صدرت يوم الثامن عشر من كانون الثاني سنة 1928، أي بعد مرور شهر وأربعة أيام على توقيع المعاهدة وكان المجلس لايزال في عطلته الاعتيادية[160]، وقد تزامن القرار مع بداية عهد الوزارة السعدونية الثالثة[161].

كان رئيس الوزراء الجديد عبد المحسن السعدون مخالفاً لعقد المعاهدة الجديدة، فكان يرى عدم عرضها على مجلس النوّاب رغم أنه وعد بذلك في منهاج وزارته. كما أن البريطانيين لم يكونوا راغبين بدورهم في عقد أي معاهدة جديدة بعد تعديل معاهدة سنة 1922 في كانون الثاني سنة 1926 على أثر حلّ مشكلة الموصل لصالح العراق[162]. وهكذا فإنّ معاهدة العام 1927 قدولدت ميتة، لكن مجرّد إثارة موضوعها، والتوقيع عليها أحدثا ضجة في صفوف الوطنيين، وعلى صفحات جرائد المعارضة. كان للشبيبي الموقف نفسه، فحسب وثيقة بريطانية سرية أنه دعا قبل التوقيع عليها إلى «إعادة النظر فيها لأنها تتعارض مع استقلال العراق» وطالب بالمناسبة أن يكون استقلال العراق «استقلالاً تامّاً لا تشوبه شائبة»[163].

من المنطلق ذاته وقف الشبيبي ضد استخدام الموظفين البريطانيين في دوائر الدولة، الأمر الذي أدّى إلى خلق حالة واضحة من الازدواجية في تسيير شؤون دوائر الدولة كما أكّد ذلك في أكثر من مناسبة. في تعقيب له على نية

الحكومة تجاوز ذلك الوضع الشاذّ قال الشبيبي أمام المجلس:

«أكتفي بالإشارة لأمر كلي خطير، أعني استعداد الحكومة لتسنم المسؤوليات العامة في إدارة شؤون الدولة. لا يخفى على النوّاب أن معنى هذا انتهاء الحكم المزدوج، وتلاشي الأوضاع الشاذة التي كان ولايزال لها أسوأ الأثر في تصريف شؤون الدولة، المالية منها والسياسية والاقتصادية، فكل وزارة تستطيع إنهاء الحكم المزدوج لجديرة بأن تقدم لها الأمة أخلص التهاني»(164).

لكن الشبيبي اتخذ بالمقابل موقفاً سلبياً من موضوع التجنيد الإلزامي الذي أثير في عهد وزارتي السعدونية الثانية والعسكرية الثانية (1926 - 1927)، وقد التقى في ذلك مع العديد من نوّاب المعارضة، وكان يوجد بينهم من عرفوا بمواقفهم الوطنية، وبمعاداتهم للوجود البريطاني دون هوادة، منهم، على سبيل المثال، شقيقه محمد باقر الشبيبي الذي ربط موقفه بعجز «المسؤولين عن تحقيق رغبة من رغبات الأمة، أو تدارك حاجة من حاجاتها الكبرى»، مشبهاً إياهم في ذلك بالاتحاديين الترك الذين لم يكترثوا بما كان «يقوله دعاة الإصلاح لهم»(165).

أما المؤرخ الحسني فإنه يبرر موقف هؤلاء النوّاب هكذا: «والظاهر أن مشروع التجنيد الإجباري لم يلق تأييد بعض العناصر التي اكتوت بنار هذه الخدمة في العهد التركي، وقاست الأمرين من هولها، فأخذت تعارضه بطرق مختلفة خشية أن يؤدي إلى النتائج نفسها التي أسفر عنها نظام التجنيد الإجباري في ذلك العهد الزائل»(166). وقد تحوّل ذلك إلى ذريعة بيد المندوب السامي البريطاني أيضاً. كتبت «تايمس» اللندنية عن ذلك تقول:

«إن المندوب السامي لايزال متمسكاً بخطته في

معارضته (لمشروع التجنيد الإلزامي) محتجّاً بنفور عامة الشعب العراقي من التجنيد الإلزامي بسبب ما لقيه من العنت والإرهاق في العهد العثماني»[167].

لا ينكر أن طبيعة النظام، ومناورات سلطات الانتداب ساعدتنا كثيراً على خلق الحساسيات في صفوف الجماهير، ولم تتمكن النخبة بدورها من تجاوز آثارها[168]، ولا ينكر أيضاً أن دوافع قطاع واسع من المعارضة كانت موضوعية لأنها كانت تريد الجيش أداة للدفاع عن الوطن لا أداة لقمع الجماهير، ولم يؤدّ الدافع الاقتصادي الدور الأخير في التأثير على الاتجاه السائد[169]، إلاّ أن الموقف السلبي الذي أبداه النوّاب وغيرهم من التجنيد الإلزامي كان، مع كل ذلك، وغير ذلك، موقفاً مرفوضاً لأنه، على أقلّ تقدير، التقى في نهاية المطاف مع موقف البريطانيين، دعك عن أن واقع الوضع الدولي في المنطقة كان يتطلب تطوير الجيش دون شك، ولم يكن بالإمكان تحقيق ذلك من دون تشريع قانون التجنيد الإلزامي[170].

كانت المعارضة للتجنيد الإلزامي قوية[171] إلى الدرجة التي دفعت الملك فيصل إلى تدارك الأمر، فقرر تعطيل المجلس النيابي، وأمر بفض اجتماعه الاعتيادي قبل أن تتلى لائحة قانونه في قراءتها الأولى كما يقتضي منطوق الدستور. لكن الملك استشار الشبيبي شخصياً حول الموضوع أكثر من مرة منذ تأسيس النظام الملكي في العراق. نقل الشبيبي فيما بعد نصّ ما دار بينه وبين الملك، ومن ثم بينه وبين ياسين الهاشمي حول الموضوع إلى مجلس النوّاب على النحو الآتي، وقد آثرنا نقله حرفياً لأنه يلقي الضوء أفضل من أي مصدر آخر على حقيقة موقفه، وآرائه حول هذا الموضوع المهم، والتي أثير، على ما يبدو، بعض الأقاويل حولها:

«ثم قال (الملك فيصل) فما رأيك الآن، ما رأيك في التجنيد الإجباري،

فقلت أخشى أن يتعذر تطبيقه في البلاد، ستعترض هذه الفكرة مشاكل كثيرة في مرحلة التطبيق والبلاد حديثة عهد بمحاسن الجندية والتجنيد، على عهد الأتراك قد أسيء نظام تطبيق نظام التجنيد على عهدهم في هذه البلاد، وفي غيرها من البلاد العربية، إذ أصبح أبناء البلد المشار إليه لا يبغضون نظاماً مثل هذا النظام الذي أساء إليه ولاة الأمر من الأتراك. . . وأكثر أبناء القبائل عندنا يعتبرون هذه الخدمة من قبيل العبودية، مع أنها خدمة مقدسة، ثم بينت له رأيي في الطريقة التي أقدر لها النجاح في تعميم خدمة العلم وذلك من ناحية ملائمتها للبيئة المحيطة، فقال لي إنها طريقة معقولة. . .»(172).

وحين أثار ياسين الهاشمي الموضوع نفسه معه خصيصاً كان جواب الشبيبي: «نحن دولة ناشئة فقيرة في شؤونها العسكرية والاقتصادية، وفي شؤونها الثقافية والعمرانية، فيجب أن تنهض هذه البلاد جميعاً على مستوى واحد، لا أن ينهض مرفق واحد على حساب الآخر، أي لا يصحّ أن ينهض الجيش، مثلاً، على حساب التجارة والزراعة والصناعة، أو على حساب الرفاه والرخاء في البلاد، وإنني أخشى من تضخم مصلحة واحدة وضمور المصالح المذكورة. . . كان جوابي بهذا المعنى، مع أنني حبّذت أن تأخذ الحكومة بجميع الوسائل الممكنة لإنشاء جيش جديد يعول عليه»(173).

يضيف الشبيبي على ذلك، فيقول:

«زارني الهاشمي في اليوم الثاني وقال أتدري ماذا يقال عنك في الدوائر العسكرية. . . يقال عنك أنك عدوّ التجنيد الإجباري، فقلت إنني لا يهمني ما يقال، ولكن ما رأيك في الجواب، فابتسم وقال لا رأي لمن لا يطاع»(174).

تؤيد مواقف محمد رضا الشبيبي الأخرى داخل مجلس النوّاب خلال دورته الأولى والثانية وحدة الفكر لدى الرجل في إطار اجتهاده الذي أراد منه

نهوض الوطن، وتجاوز مشكلاته بأفضل السبل الممكنة. إنه رأى في الاقتصاد المزدهر شرطاً ضرورياً لتحقيق التطور المنشود، لذا نراه يولي «تقدم الصناعة الوطنية»، والزراعة والري اهتماماً كبيراً كلّما سنحت له الفرصة إلى ذلك. إنه أكّد على الزراعة بصورة خاصة، وانتقد موقف الحكومة بشأنها انتقاداً مرّاً على أساس أنها ليست لديها «سياسة زراعية معينة»، وأن «وزارة الريّ والزراعة من أقلّ الوزارات أشغالاً وأعمالاً»، بل «ليس لهذه الوزارة منهاج معين» على الرغم من «صرف المخصصات الباهظة عليها»، بحيث فضّل الشبيبي إلغاءها على بقائها[175].

في السياق ذاته تطرق الشبيبي مراراً إلى موضوع الأرض وتسوية مشكلاتها، فقد «شهدت الفترة من عام 1925 حتى عام 1932... مناقشات طويلة كتبت فيها مذكرات وتقارير وملاحظات هدفت جميعها إلى تقرير الصيغة النهائية لتسوية حقوق الأراضي، وخاصة الأراضي الأميرية الواسعة»[176]. كان للشبيبي حضوره المتميز في المناقشات تلك، وكان المحور الأساس لمداخلاته في مجلس النوّاب هو رفض «احتفاظ الحكومة بالأراضي الأميرية الزراعية لنفسها» مما يجعل «الحكومة ملاكاً شغلها الشاغل تقسيم الأراضي، وعقد العقود مع هذا الفلاح مرة، ومع الفلاح الآخر مرة أخرى»[177]. من هذه الزاوية عدّ الشبيبي «إصرار الحكومة عدم تمليك الأراضي الأميرية للزراع» تهديداً حقيقياً لواقع ملكية الأرض في العراق، لأنّ موقف الحكومة من شأنه أن يجعل حالة الأراضي الأميرية «كحالة الوقف، أو أشد»[178].

لم يغب الفلاح عن ذهن الشبيبي أثناء مناقشاته المتكررة لموضوعي الأرض والضريبة فقد اعترض، مثلاً، على لائحة قانون حصة الحكومة من حاصلات الأراضي أثناء مناقشتها في الجلسة الحادية والأربعين من الدورة الأولى للمجلس، مؤكداً أن «ليس في اللائحة ما يحقق رجاء الزراع والفلاح،

ولا في تنزيل نسبة حصة الحكومة. هذا التنزيل شيء جدير بالذكر. . . وإذا كان في منهاج الحكومة ذكر لترقية الزراعة والفلاحة فما عليها إلاّ أن تعجل بسنّ لوائح من شأنها أن تخفف هذه التكاليف الفادحة التي ينوء تحت حملها الفلاح المسكين»[179].

ناقش الشبيبي جوانب مختلفة من موضوع ضرائب الدولة بالروحية ذاتها التي استهدفت تخفيف الأعباء عن كواهل أبناء الطبقات والشرائح الاجتماعية المسحوقة أكثر من أي شيء آخر. فرأى في ضريبة المواشي، مثلاً، عبئاً ثقيلاً لا بدّ من معالجة موضوعها لكونها «من أهم منابع الواردات في هذه الدولة»، إلاّ أن الحكومة لا تؤدّي، مع ذلك، ما عليها من التزامات مقابل ذلك فيما يخص «حماية صاحب الماشية، وحماية إنتاجه، وحماية سائر حقوقه»، وضمان «فعالية بيطرية تحمي بها الماشية»، من هنا فإنها «بمقدار حمايتها لصاحب الماشية ولإنتاجه لها أن تطالب، أو تصرّ على استيفاء الضريبة»[180].

وأثناء مناقشاته لميزانية الدولة كان الشيخ الشبيبي يعود مرة أخرى إلى موضوع الضريبة والرسوم، انه أراد ميزانية لا تؤدي نفقات أبوابها إلى فرض «الضرائب والرسوم الجديدة لسدّ نفقات الدولة»، وكان دائماً مع ميزانية تحول دون «انتشار البطالة والفقر، وتهافت الشبان من أبناء هذه البلاد على دواوين الحكومة للحصول على وظائف مهما صغرت»[181].

ومن أجل تحقيق الهدف نفسه انتقد الشبيبي «سياسة البذخ. . . المتبعة في نفقات هذه الدولة الفتية» أحياناً في تنفيذ بعض المشاريع دون التفكير «بقدرة دافعي الضرائب والتكاليف». إنه كان مع تفضيل الأهم على المهم، فإن تشييد جسور «في بغداد والبصرة والموصل»، مثلاً، كان أهم في نظره من تشييد جسر في الفلوجة. لكنه كان يؤكد، مع ذلك، ضرورة مراعاة «القياسات في ضوء الفروق الكبيرة» في حالة الاختيار[182].

التفت الشبيبي أيضاً إلى حالة موظفي الدولة الذين رأى وجوب الاهتمام بوضعهم المالي، وبمستقبلهم، مؤكداً «ضرورة رعاية حقوقهم، والعناية برفاهيتهم»، فإن «الموظف يقضي زهرة عمره في خدمة وطنه». لكنه لم يكن منصفاً، مع ذلك، في موقفه ممن أسماهم بـ« الموظفين الأميين، وأنصاف الأميين» الذين أيد رأي النوّاب الآخرين حول استثنائهم من «قانون التقاعد المدني» بسبب «الحالة المالية والاقتصادية» للبلد[183].

كان أمراً طبيعياً، ومتوقعاً تماماً أن يكون محمد رضا الشبيبي أكثر نوّاب المجلس في دورتيه الأولى والثانية مناقشة لموضوع التعليم بالتحديد، فقد كان يحز في نفسه أن يرى «البلاد قد نكبت بمعارفها نكبة لا مثيل لها» في مرافق حياتها الأخرى «الاقتصادية من زراعة وتجارة وصناعة»، وذلك بسبب «السياسة السقيمة المتبعة في المعارف»[184] و«منهاج التدريس»، فدعا إلى تطوير مؤسسات التعليم، بما فيها كلية الطب التي أكّد ضرورة توفير الملاك المتخصص لها، وتطبيق نظامها بدقة. ولم يكن الشبيبي مرتاحاً من «تطرق السياسة بأهوائها، والدعايات بغرائبها إلى معاهد العلم والتعليم والتهذيب» لأنّ الأمر أدى إلى «الاختلاف والافتراق»[185]، وإلى «فصم عرى الارتباط والتآخي والائتلاف»، وهو «حال تتفتت له الأكباد»[186].

ناقش الشبيبي في الدورتين أيضاً قضايا الصحة والأعمار والخدمات وغيرها بالروحية نفسها، وطرح بصددها آراءً جديرة بالتقدير، تجاوز فيها آراء معظم زملائه النوّاب[187]، فلم يجر نقاش في موضوع مهمّ داخل أروقة مجلس النوّاب إلاّ وأدلى الشبيبي بدلوه المليء فيه، وكان رائده في ذلك دائماً تقويم سياسة الدولة، وتوجيهها الوجهة الصحيحة حسب اجتهاده.

وفي نظرته للدولة ومؤسساتها كان الشبيبي يميل إلى قدر واضح من اللامركزية في الحكم، فأكّد على دور المتصرفين (المحافظين) الإداري،

وضرورة عدم تجاوز آرائهم من الوزارات حسب اختصاصاتها[188]. كما كان حريصاً غاية الحرص على دور مجلس النواب في مراقبة أعمال الحكومة باعتباره سلطة تشريعية. ومما يسجل للشبيبي حقّاً أنه أدرك في بدايات الحياة البرلمانية في العراق أن خطها البياني يسير باتجاه معاكس للديمقراطية البرلمانية الحقة بصورة ثابتة. ففي الجلسة الثانية للاجتماع غير الاعتيادي الثاني لمجلس النوّاب في دورته الأولى قال «إننا إذا استعرضنا تاريخ المجلس الموقّر، على أن لا بد من استعراضه يوماً، للقينا سلطة الأمة تتضاءل فيه بالتدريج»[189]. وقد قدّر له أن يستعرض هو نفسه ذلك التاريخ بعد مرور عقدين، وأمام المجلس نفسه، فإذا به يقول:

> كانت الدولة في «عهد المغفور له الملك فيصل الأول تخطو إلى الأمام خطوة فخطوة، فكانت مجالس الوزراء تتألّف وفقاً لقواعد الدستور، وكانت الانتخابات أيضاً تجري وفقاً لأحكام الدستور، وكان التذمر قليلاً من نتائج الانتخابات المذكورة لأنها كانت في كثير من الأحيان تراعى فيها القواعد الدستورية المذكورة إلى سنة 1932»، بينما أصبحت «الوزارات بعد هذا التاريخ تتدخل تدخلاً محسوماً في مجرى الانتخابات، وأصبحت[190] المجالس النيابية تتألف بصورة تشبه التعيين، مما أدى إلى الحدّ من سلطة المجالس، وشلّها عن القيام بواجباتها من محاسبة المسؤولين، وقد توالى القهقرى في هذه البلاد من ذلك الحين. . . »[191].

يبدو مما سبق واضحاً أن الشبيبي أثبت حضوراً متميزاً طيلة اجتماعات دورتي مجلسَ النواب التسع والثمانين والمأتين، وكان دائماً في خندق المعارضة ناقداً، وموجهاً. وعلى الرغم من نجاحه المشهود في تجربته

البرلمانية تلك إلاّ أنه لم يرشح نفسه للدورة الثالثة للمجلس التي جرت انتخاباتها في عهد الوزارة السعيدية الأولى التي تألّفت يوم الثالث والعشرين من آذار سنة 1930. بعد يوم واحد فقط من تأليفه الوزارة استصدر نوري السعيد إرادة ملكية تقضي بحلّ مجلس النوّاب لأنه كان يخشى أن لا يستطيع مواجهته في موضوع المعاهدة الجديدة مع بريطانيا، والتي تقررت المباشرة بالتفاوض لعقدها منذ الأيام الأخيرة لعهد الوزارة السعدونية الرابعة والأخيرة التي انتهى وجودها بانتحار السعدون[192]، الحدث الخطير الذي هزّ الشبيبي بقوة، فأراده أن يتحول إلى عبرة لتجاوز المشكلات والنواقص، فإنّ «تلك التضحية العظيمة، تضحية السعدون بحياته» تفرض «ضرورة مراعاة أوقاتنا، وعدم صرفها في تنميق الجمل، وتصفيف العبارات»[193].

إن ما كان يتوقعه الشبيبي للانتخابات، وأعمال المجلس في ظلّ الوزارة السعيدية دفعه إلى عدم ترشيح نفسه للدورة البرلمانية الجديدة[194]. تحقق فعلاً ما كان يخشاه الشبيبي، فقد «تم انتخاب المنتخبين الثانويين في معظم الألوية، على الرغم من الانتقادات القاسية، وأجواء المعارضة الشديدة، وسط جوّ مشبع بالإرهاب، وعيّن يوم 20 تشرين الأول 1930 موعداً لانتخاب النوّاب، فتقلّد رئيس الوزراء نوري السعيد منصب وزارة الداخلية وكالة. . .»[195]. بهذا الأسلوب جيء بمجلس «درب على الإطاعة تدريباً يضاهي تدريب كتيبة من كتائب الحرس» حسب وصف مستشار وزارة الداخلية أدموندس الذي كان له دوره الواضح في ذلك[196]، فقد ضمّ المجلس سبعين نائباً من أنصار السعيد من أصل ثمانية وثمانين عضواً من أعضائه.

سرعان ما تأيّدت صحة حدس الشبيبي، فإنّ أقطاب المعارضة ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني وعلي جودت الأيوبي الذين فازوا في انتخابات الدورة الثالثة لمجلس النوّاب، قدّموا استقالاتهم منه في الثامن من آذار 1931،

أي بعد افتتاحه بأربعة أشهر ونيف فقط، وذلك لأنّ «الأدلة والبراهين» قد توفرت لديهم بأنّ حكومة السعيد «لم تحترم الحقوق والحريات المنصوص عليها في الدستور، ولم تعبأ بأحكام القوانين في تنفيذ أغراضها وغاياتها التي لا تأتلف والصالح العام» كما ورد في نص استقالتهم الجماعية[197]. وقد حدث كل ذلك في خضم النضال ضد إبرام معاهدة جديدة مع بريطانيا لا تضمن بنودها طموحات العراقيين بالاتجاه الذي كانت المعارضة تريده.

موقف محمد رضا الشبيبي من معاهدة العام 1930:

ترك الشبيبي البرلمان وقتياً، لكنه لم يترك سوح النضال السياسي. فإنه وقف صراحة ضد معاهدة العام 1930 مع بريطانيا، مع العلم أن الوزارة أحاطت مفاوضاتها بقدر كبير من الكتمان. استغلّ الشبيبي في تلك المرحلة كل فرصة خاصة أو عامة لانتقاد المعاهدة، وفضح مراميها. سجّل لنا شاهد عيان موقفه من المعاهدة على النحو الآتي:

«بلغ من اتصالي بالشيخ الشبيبي أنني كنت أقضي الكثير من أوقاتي في بيته ببغداد حين يتم لي السفر إلى بغداد، وأقضي الكثير من الأوقات في بيته في النجف حين... يكون هو في النجف. وفي سنة 1930 كنت مدرساً في ثانوية النجف، وكان الشبيبي وياسين الهاشمي وحزبهما قد وقفوا ضد إبرام المعاهدة بين العراق وبريطانيا... وقد جاء الشبيبي إلى النجف وهو يشتعل غضباً... وفي هذه الأثناء زار الملك فيصل الأول النجف، فاستقبل استقبالاً رسمياً، وكان بين المستقبلين مدرسة الثانوية ومدرسة الغري الأهلية، وقد وقعت قبيل وصول الملك فيصل مشادة بين بعض طلاّب الثانوية ومدرسة الغري بسبب الموقف والمكان أدّت إلى مشاركة بقية الطلاّب في هذا الشجار، وساد الهرج والمرج حتى ظنّ بأنّ الحركة كانت مقصودة، وفسّرت من قبل

الشرطة تفسيراً كاذباً، وكان مأمور المركز حينذاك السيد محمد الخارجي، فقال في التقرير الذي كتبه بأنّ الشيخ محمد رضا الشبيبي الغاضب على المعاهدة لم يجىء إلى النجف إلاّ لغرض إحداث هذا الشغب، وأنه هو الذي دفع جعفر الخليلي بأن يثير في وجه الملك فيصل هذه الزوبعة... وفي أيام قليلة... جرى نقلي إلى سوق الشيوخ ونقل ذنون أيوب إلى أربيل...»[198].

أجرت جريدة «العالم العربي» الواسعة الانتشار عراقياً استفتاءً واسعاً أسمته «الاستفتاء الحرّ في المعاهدة الجديدة وذيولها» التقت خلاله ثلاثاً وعشرين شخصية سياسية معروفة من أمثال ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني وناجي السويدي وكامل الجادرجي ومزاحم الباجه جي وحكمت سليمان وتوفيق السويدي والدكتور عبد الإله حافظ وفهمي المدرّس وعبد العزيز القصّاب وحمدي الباجه جي ومحمد باقر الشبيبي وخير الدين العمري وغيرهم، ونشرت آراءهم على صفحات خمسة أعداد متتالية من أعدادها الصادرة في تشرين الأول [199]1930. كان الشيخ محمد رضا الشبيبي واحداً من الذين استطلعت «العالم العربي» رأيهم، وهذا نصّ ما ذكره كما نشرته الجريدة[200].

«رأي معالي الشيخ محمد رضا الشبيبي أحد الوزراء السابقين.
حضرة الفاضل صاحب جريدة «العالم العربي» المحترم. سألني فريق من الإخوان رأيي في مشروع المعاهدة الجديدة، وها أنا ذا أبعث لحضرتكم بهذه الكلمة راجياً نشرها نزولاً عند رغبة الإخوان. إنني أرتأي رفض مشروع المعاهدة بملحقاته لأنه مشروع تحمل العراق بموجبه كثيراً من المغارم والتبعات، ولم يكتسب في مقابل ذلك حقّاً جديداً من الحقوق. والقضية بالنسبة إلى الفريق الآخر[201] معكوسة، إذ حصل على أهم

الحقـوق والامتيـازات، وتخلـص مـن كـافـة التبعـات والمسؤوليات. محمد رضا الشبيبي في 1930/10/18»[202].

يبدو الشبيبي في رأيه هذا رصيناً، غير منفعل كعادته، على العكس من التيار المعارض السائد الذي كان يتسم بقدر كبير من العاطفة، والحماس المطلوب إعلامياً في مثل هذه الحالات. لكن المعاهدة لم تكن، مع ذلك، صفقة لـم يكتسب العـراق منهـا «حقّاً جـديداً مـن الحقـوق». إن مجـرد إلغـاء الانتداب، والاعتراف بالاستقلال السياسي للعراق اعترافاً دولياً، وقبول العراق على هذا الأساس عضواً في عصبة الأمم قبل أي قطر عربي آخر[203]، كان خطـوة سياسيـة إلـى الأمـام لهـا شـأنهـا، ولـو لـم يكـن الأمـر هكـذا لمـا جعـل المؤرخون من ذلك حدّاً فاصلاً بين مرحلتين في تاريخ العراق المعاصر. أضف إلى ذلك أن المعاهدة حررت خزينة الدولة من الأعباء المالية الثقيلة التي كانت تنوء بها بموجب بنود المعاهدات السابقة[204]، وبفضل موادها ألغيت أيضاً الامتيازات العدلية السابقة التي كانت تمسّ سيادة العراق في أخطر مؤسساتها الداخلية[205]. لا شك في أنّ «الفضل الأول في ذلك كان يعود إلى الرأي العام العراقي الذي لم يستطع البريطانيون تجاهله كليّاً في حساباتهم»[206]. ولا يخفى أن الشبيبي وأمثالـه مـن زعمـاء المعـارضـة أدّوا دوراً أسـاسيـاً فـي بلـورة ذلـك الرأي، وتوجيهه. ومما يسجل للشبيبي، فضلاً عن ذلك، هو أن دافعه الأول في موقفه ذلك لم يكن نابعاً من رغبة جامحة للاشتراك في السلطة، وتكريس المعارضة من أجل ذلك كما كان ديدن معظم الساسة العراقيين في ذلك العهد. فلقد اتّسمت أجوبة معظم الساسة الذين استفتتهم «العالم العربي» بقدر كبير من التطرف المصطنع، والحماس اللفظي الصرف، والرفض القاطع لكل ما كان يتعلق بالمعاهدة ليتحوّلوا لاحقاً إلى منفذي كل ما ورد فيها على العكس تماماً مما وعدوا، وتعهدوا، منهم توفيق السويدي الذي أكّد ضرورة رفض المعاهدة «لثقل وطأتها»، ومنهم مزاحم الباجه جي الذي رفض المعاهدة على صفحات

«العالم العربي» رفضاً قاطعاً لأنها بررت «لبريطانيا التدخل في كل صغيرة وكبيرة من شؤوننا، مما سيجعلنا غرباء في بلادنا، وعمّالاً لتنفيذ مرامي غيرنا البعيدة الفتاكة بنا وبقوميتنا»، بل ومنهم حتى ياسين الهاشمي الذي طلب بحرارة «من أبناء الشعب أن لا يقبلوا المعاهدة[207]» لأنها «صاغت لنا الاستقلال من مواد الاحتلال»، ورشيد عالي الكيلاني الذي قرر رفض المعاهدة على طول الخط لأنها «استبدلت الانتداب الوقتي بالاحتلال الدائم»[208].

دفعت إفرازات المعاهدة العراقية ـ البريطانية الجديدة الشبيبي إلى خضم الحياة الحزبية من جديد. ففي أواخر العام 1930 تألّف في بغداد حزبان جديدان، ألّف الأول منهما رئيس الوزراء نوري السعيد وسماه «العهد» تيمناً باسم حزب «العهد» الذي تأسس في الثامن والعشرين من عام 1913، وكان شخصياً له دور متميز في تأسيسه ونشاطه[209]. وسمي الآخر حزب «الأخاء الوطني» الذي ألّفه المعارضون ليكون نداً لـ «العهد» الذي كان بحكم واقعه حزباً حكومياً[210].

انضمّ محمد رضا الشبيبي إلى حزب «الأخاء الوطني» الذي أجريت الانتخابات لهيئته الإدارية بعد موافقة وزارة الداخلية على تأسيسه رسمياً بتاريخ الخامس والعشرين من تشرين الثاني [211] سنة 1930، فانتخب محمد رضا الشبيبي عضواً في الهيئة الإدارية للحزب مع كل من ياسين الهاشمي وحكمت سليمان وعبد الواحد الحاج سكر ومحسن أبو طبيخ ومحمد زكي البصري، فيما انتخب رشيد عالي الكيلاني معتمداً عاماً، وعلي جودت الأيوبي كاتماً للسر، والدكتور عبد الإله حافظ محاسباً للحزب[212]. وحين أعيدت انتخابات الهيئة الإدارية للحزب يوم الثامن عشر من تشرين الثاني سنة 1931 أعيد انتخاب الشبيبي عضواً مع كل من رشيد عالي الكيلاني وحكمت سليمان وكامل

الجادرجي ومحسن أبو طبيخ ويوسف غنيمة والسيد عبد المهدي وحسين النقيب، فيما أصبح ياسين الهاشمي هذه المرة معتمداً عاماً للحزب، واحتفظ كل من علي جودت الأيوبي وعبد الإله حافظ بموقعيهما في الهيئة[213].

كان حزب «الأخاء الوطني» في واقع الأمر استمراراً لحزب «الشعب» الذي كان الشبيبي من أعضائه البارزين كما أسلفنا[214]، مع تغيير شكلي في مهمات الحزب الجديد، فقد انصب نضال الحزب على معاداة معاهدة العام 1930 بدل المعاهدة العراقية ـ البريطانية السابقة، وعلى انتقاد رئيس الوزراء الجديد نوري السعيد بدلاً عن عبد المحسن السعدون.

كان محمد رضا الشبيبي من أبرز أعضاء حزب «الأخاء الوطني» دون شك[215]، لكنه مارس، مع ذلك، دوراً متواضعاً في نشاطه، فإنّ الحقائق المتوفرة بين أيدينا تسمح لنا أن نؤكد بأنّ دوره فيه كان أقل حتى من دوره في حزب «الشعب»، إذ بقيت الأسباب نفسها التي دفعته إلى تبني ذلك الموقف قائمة كما كانت، بل لا نتجاوز الحقيقة إذا أكّدنا أن الأسباب تلك قد تعززت في مرحلة تأسيس حزب الأخاء، ومن ثم في نشاطه وتوجهاته بعد ذلك. ولم يكن مجرّد صدفة، على ما نعتقد، أن الشبيبي لم يشترك في الهيئة المؤسسة التي قدمت طلب إجازة الحزب إلى وزارة الداخلية[216].

أكّد حزب «الأخاء الوطني» في منهاجه المقتضب[217]، وكذلك على لسان قادته ما يفيد أنه يقف ضد معاهدة العام 1930، ومن هذا المنطلق دخل في تحالف مع «الحزب الوطني العراقي»[218] قبل يومين من إجازته بصورة رسمية. دفع ذلك، فضلاً عن علاقته بقادة الأخاء، ولا سيما بشخص ياسين الهاشمي، الشبيبي إلى الانضمام للحزب. ولكن سرعان ما تبين أن معاداة المعاهدة ليست هدفاً بحدّ ذاته، بل شعار مطلوب في خضمّ الصراع ضد نوري السعيد من أجل السلطة.

يؤيد أكثر من دليل صحة هذا الاستنتاج. فقبل كل شيء أن منهاج الحزب نفسه لم يشر إلى موضوع المعاهدة بصورة مباشرة أصلاً، بل كل ما هنالك أنه أكّد في مادته الثانية ضرورة «العمل على تأليف رأي عراقي عام لمكافحة كل ما من شأنه أن يشوب استقلال البلاد بأية شائبة، أو يخلّ بالوحدة الوطنية، أو ينافي أحكام القوانين». واتخذ الحزب موقفاً أوضح من ذلك بعد تحالفه المؤقت مع الحزب «الوطني العراقي»، وبتأثير منه، إذ نصّت المادة الأولى من «وثيقة التآخي» الموقعة بين الحزبين ليلة الثاني والعشرين على الثالث والعشرين من تشرين الثاني 1930 ، على أن المعاهدة فاسدة، وجائرة يجب تعديلها»، وقد نشر معتمد الحزب «الوطني العراقي» جعفر أبو التمن بياناً لهذه المناسبة في جريدة «الأخاء الوطني» الناطقة باسم حزب «الأخاء الوطني»[219].

سرعان ما انفضت عرى التحالف بين الحزبين بسبب النوايا الحقيقية لقادة «الأخاء الوطني». فإنّ جريدة «الأخاء الوطني»[220] الناطقة باسمهم جعلت من شخص رئيس الوزراء نوري السعيد وحكومته هدفها الأول في حملتها ضد المعاهدة[221]، وقد بلغ الأمر بالجريدة حدّ أن تنعت الأخيرة بـ «معاهدة نوري السعيد» و«معاهدة نوري باشا» و«المعاهدة المأساة» التي يحمل رئيس الوزراء سفرها بيمينه، وكتاب الاتفاقيات بشماله»[222]، كما أخذت تنتقد حتى سفرات نوري السعيد الدبلوماسية التي كانت ضرورية لاستكمال مستلزمات دخول العراق في عصبة الأمم. لم تقصر الصحف المؤيدة لنوري السعيد في الردّ على الأخائيين[223]، فصارت «صحف الطرفين تطعن في رجال الفريقين طعوناً لم يعرف العراقيون مثيلاً لها»[224]، تحوّلت المعاهدة في خضمها إلى مجرّد أداة مؤثرة للطعن بيد الأخائيين، ولم يعبر ذلك على العهديين[225]، فقد نشرت جريدتهم «صدى العهد» في عددها الصادر يوم

الثالث من آب 1931 مقالاً افتتاحياً اختارت له عنوان «مضطربون يحنون إلى الكراسي لا إلى خدمة الوطن»(226). وقد أثبت نوري السعيد ذلك بصورة عملية، وبأسلوب ذكي للغاية حين تمكن في ذروة أيام الهجوم على وزارته بحجة المعاهدة من أن يستل من صفوف المعارضة مزاحم الباجه جي الذي كان أحد أبرز أقطابها، وأحد أشد المتحمسين ضد المعاهدة كما كان يدعي(227)، فقد استحدث له خصيصاً وزارة الاقتصاد في كانون الثاني 1931، ليسدد بذلك «ضربة أليمة للمعارضة» التي بلغ حماس الباجه جي ضدها حدّاً جعله يقترح بعد استيزاره بمدة وجيزة اعتقال أبرز عناصرها، وإسقاط الجنسية العراقية عن ياسين الهاشمي شخصياً(228).

وأخيراً تحوّل حزب «الأخاء الوطني» إلى مجرّد أداة بيد ياسين الهاشمي. يقول الباحث عن «ياسين الهاشمي ودوره في السياسة العراقية» ما نصّه بهذا الخصوص: «ومهما يكن الأمر فإنه لم تمض مدة طويلة حتى أصبح الحزب أداة شخصية بيد ياسين الهاشمي»(229).

من خلال ما سبق يبدو واضحاً لماذا تبنى محمد رضا الشبيبي موقفاً سلبياً واضح المعالم داخل حزب «الأخاء الوطني»، ولماذا لم يمارس نشاطاً ملموساً في صفوفه(230). إنه، على سبيل المثال، لم ينشر مقالة واحدة، أو حتى مجرّد تعقيب أو توضيح على صفحات جريدة «الأخاء الوطني»، في حين أنه كان صاحب أفضل قلم سيال وجريء بين جميع قادة الحزب(231). وعلى الغرار نفسه أنه لم يبد نشاطاً ملموساً أثناء الجولات التي قام بها الأخائيون في عدد من مدن الفرات الأوسط في مطلع العام 1931، حتى أن أعضاء الوفد قضوا ليلة في النجف في دار حسين النقيب لا في دار أسرة الشبيبي كما كان متوقعاً(232).

النشاط الفكري لمحمد رضا الشبيبي
في سنوات الانتداب:

لا شك في أن هموم السياسة، وأعبائها أبعدت محمد رضا الشبيبي كثيراً عن الأدب والتاريخ[233]. فمن بين قصائده ومقاطعه الشعرية السبع والتسعين التي ضمها ديوانه المنشور سنة 1940 لا يتزامن سوى تاريخ عشر منها مع عهد الانتداب[234]، مع العلم أن قسماً أساسياً من قصائده ومقاطعه العشر تلك قد نظمها قبل عودته إلى العراق أصلاً، وتحت تأثير أحداث غير عراقية[235]، كما أن قسماً آخر منها جاءت تعبيراً عن أحداث طارئة هزّته بعنف مثل قصيدته «الفيضان» التي قالها لمناسبة فيضان دجلة في العام 1926[236]، الفيضان الذي «أغرق شطراً من بغداد» حسب تعبيره، وفيها هو المحبّ للوطن كعادته، وثائر على الباغين الذين يرى فيهم «رقاً، لا انعتاقاً»[237]. ينطبق القول نفسه، ولكن من منطلق مغاير، على قصيدته «أعياد وأفراح» التي كانت «من وحي عيد الأضحى سنة 1924»، وهي قصيدة وجدانية صرفة[238]. وفي حزيران من السنة ذاتها[239] نظم قصيدة وجدانية أخرى سماها «سوانح في الحب والحكمة»[240]. كما قال قصيدة قبل ذلك (في العام 1921) تحدّث فيها عن شعراء العرب القدماء (الطائي والبحتري ومسلم،) اختار لها عنوان «بدائع الخيال»[241].

ومما يلاحظ على إنتاجه الأدبي الصرف يومذاك أنه لم يقل سوى قصيدة واحدة طيلة الحقبة الممتدة بين عامي 1925 و 1932 [242] التي تزامنت كليّاً مع المرحلة الأولى من نشاطه في المعارضة البرلمانية. كما يلاحظ أيضاً أن الطابع الوجداني، لا السياسي، يطغي على إبداعه الشعري في العقد الثالث. إن من شأن تعليق صاحب كتاب «محمد رضا الشبيبي ومكانته الأدبية بين معاصريه» على نتاجه الأدبي في الثلاثينيات أن يجسد أكثر ما نتوخى توضيحه في هذا المبحث، أنه يقول:

«إن رسالة الشبيبي الشعرية ضعيفة في هذه الفترة إذا ما قيست بعظمة الأحداث والأزمات التي مرّ العراق والعرب بها»[243].

لكن الشبيبي نظّم، مع ذلك، واحدة من أقوى قصائده السياسية في مطلع العقد الثالث سماها «باطل الحمد ومكذوب الثنا» ينتقد فيها الواقع السياسي في وطنه انتقاداً لاذعاً، مرّاً[244]. في تعليق معبّر له على قصيدته تلك يقول الدكتور الناقد علي جواد الطاهر:

«ثم عاد إلى العراق وأقام في بلدته يعمل ويتصل ويناقش، ساعياً للسير بالبلاد سيرة حميدة تحقق الاستقلال، وتضمن الرخاء، ويرقب الذين اشتغلوا ويشتغلون بالقضية الوطنية، ويرقب من تصدر منهم للحكم، ومن أغواهم المال والجاه، ومن باع الضمير والكرامة، ومن، ومن... وفي ذلك ما يبعث على السأم والألم. ويزيد الألم يوماً بعد يوم، وتشتد الشكوى ساعة بعد ساعة، وتشتد حتى تبيت كأنها أشدّ ما لقي، وأعنف ما عانى، وتحين فرصة يحيلها حروفاً، فتكون قصيدة لعلّها أقوى ما نظم، وقد جمعت عوامل الشكوى خارجية وداخلية، وأنواع الأزمات ما ظهر منها وما بطن. كان ذلك في عام واحد وعشرين وتسع مئة وألف والشاعر في الثلاثين»[245].

لم ينس الشبيبي لحظة «لغته الشريفة» في خضمّ المعترك السياسي، فكانت من أحبّ المواضيع إلى نفسه، ومن أكثرها تداولاً في مجلسه الخاص. وقد ألمحنا في حينه إلى اهتمامه الكبير بها داخل أروقة مجلس النوّاب، فغالباً ما كان يفرض إعادة صياغة مادة ما في مشروع لائحة قانونية حتى تستقيم لغوياً مع قواعد العربية. ولتفادي أي تأويل محتمل في المستقبل[246]. لكن ذلك الاهتمام لم يتحوّل في المرحلة الجديدة من حياته إلى إبداع في ميدان البحث اللغوي من النوع الذي لاحظناه في المرحلة المبكرة من نشاطه الفكري.

ينطبق القول نفسه على إبداعه في ميدان التاريخ، إذ لم نعثر له على نتاج تاريخي بارز طيلة عهد الانتداب سوى النبذة التي نشرها عن «القرامطة والإخوان» في جريدة «العراق» مطلع العام 1922[247]، حاول فيها، بالاستناد إلى «الكامل في التاريخ» لابن الأثير، أن يبين «اقتفاء الخلف[248] السلف[249]... في شنّ الغارة والغزو على ما يجاور من بلاد المسلمين». وكما هو واضح فإنّ تحرّشات الوهابيين على الحدود العراقية في تلك المرحلة هي التي دفعته إلى الكتابة في هذا الموضوع.

كان التاريخ أيضاً من المواضيع الأساسية المثارة في مجلس الشيخ الشبيبي في تلك المرحلة، وقد دعا إلى الاهتمام به، وانتقد بشدة «ضعف تدريس التاريخ في المدارس العراقية» وذلك في معرض نقاش له لمشكلات المجتمع أمام مجلس النوّاب في العام 1927[250].

ما سبق يعني أن مجلسه الخاص وأروقة مجلس النواب قد تحولا إلى المجال الأول الذي مارس الشبيبي خلاله النشاط الفكري في عهد الانتداب. فبعد استيزاره في العام 1924 انتقل إلى بغداد، واستقرّ فيها[251] حيث أصبح وريث مجالس آل الشبيبي في أجواء العاصمة التي اتّسمت في مرحلة تأسيس الدولة بقدر أكبر من الحيوية بسبب اختلافات الرأي والمشرب، فلقد كان يرتاد مجلسه أناس يدينون بشتّى القناعات ووجهات النظر. كتب أحد المتخصصين في شعره عن مجلسه[252] يقول:

> «وكان له... مجلس كتلك المجالس التي يعقدها الكثير من أعلام الأدب والعلم والسياسة في بغداد والنجف وغيرهما من الحواضر العراقية. ورغم أن داره كانت مفتوحة للزائرين في كل وقت، فقد كان يجلس لزائريه (خصيصاً) مساء كل يوم، وفي صباح الجمعة ومسائه في كل أسبوع. وكان هذا المجلس أشبه

بندوة تعالج فيه مختلف الشؤون الأدبية والعلمية والاجتماعية والسياسية، يختلف إليها مختلف الطوائف من أدباء ورجال ومتأدبين، ومن سياسيين ووزراء وتجار وكسبة وفلاحين. . .»[253].

لا شكّ في أن تطوراً ملموساً قد طرأ على آراء الشبيبي وأفكاره في ظلّ مستجدات ما بعد الحرب، وفي ضوء المستلزمات التي أفرزتها مهمّات تأسيس الدولة وتطويرها في ظرف شائك نجم عن الوجود البريطاني، وبالارتباط مع تعزيز الاحتكاك بأسباب الحضارة الغربية. ففي المرحلة الجديدة يزداد الشبيبي تأكيداً على توحيد الصفوف لمجابهة ألاعيب البريطانيين، وأساليبهم في بث بذور التفرقة، انه يريد مجتمعاً موحّداً يشعر أفراده بمسؤولياتهم، فيرفض أن تكون «في آرائنا شيع، وفي أحزابنا فرق»، ويرفض أن يكون في صفوفنا «شباب طائش نزق»، ويؤلمه أن يستشري الخلاف بين القوم، وينزف قلبه دماً إذا لم يتفقوا، فإنّ عمق اطلاعه على تجارب التاريخ علمه استحالة أن «يهان من اجتمع» وأن «يسود من افترق»[254].

من منطلق شعور عال بالمسؤولية أثار الشبيبي هذا الموضوع مراراً في سنوات الانتداب سواء في مجلسه، أو على الصعيد الرسمي. إنه تصدّى لموضوع خطير في هذا المجال لم يسبقه إليه أحد على حدّ علمنا. فأثناء مناقشة مجلس النوّاب عام 1928 للائحة قانون ذيل قانون المرافعات الشرعية دعا إلى توحيد القضاء في العراق، وهو أمر مطلوب لتحقيق وحدة إدارية متينة ذات مردود فكري في الوقت نفسه. قال الشبيبي عن هذا الموضوع: «إنني ممن يرى ضرورة توحيد المحاكم في هذه البلاد، ويعتقد أن في توحيدها صيانة للعدل»[255].

وتقديراً منه لدور التربية والتعليم الكبير في توحيد الصفوف انتقد الشبيبي

بشدة القصور الكبير الذي كان يعتري المدارس العراقية في هذا المضمار، إذ قال بخصوص ذلك في الجلسة الحادية عشرة من الاجتماع غير الاعتيادي الثاني لمجلس النواب ما نصه:

«ففي مدارس هذا القطر المحبوب كثير من بواعث الاختلاف والافتراق، وكل ما من شأنه فصم عرى الارتباط والتآخي والائتلاف، فهذا حال تتفتت له الأكباد»[256].

على الغرار نفسه اتّخذ محمد رضا الشبيبي موقفاً وطنياً صادقاً من القضية التي دخلت تاريخ العراق المعاصر باسم «قضية النصولي»، وخلاصتها أن أنيس زكريا النصولي، وهو مدرّس لبناني استقدمته وزارة المعارف للتدريس، نشر أواخر العام 1926 كتاباً بعنوان «الدولة الأموية في الشام»[257] تضمّن ما عدّه الشيعة طعناً بآل البيت[258]، مما أثار في كانون الثاني 1927 ضجّة كبيرة بين قطاع واسع من الرأي العام، ولا سيما في الجنوب، لم تهدأ إلاّ بعد أن قررت وزارة المعارف فصل النصولي، فأثار ذلك قطاعاً واسعاً من طلبة بغداد الذين تظاهروا احتجاجاً على «خنق الحرية الفكرية»[259].

هزّ الموضوع الشبيبي من الأعماق كأي حالة مشابهة كانت من شأنها تفرقة الصفوف كما لاحظنا ذلك مراراً بين دفتي هذه الرسالة، وأن أي ادعاء عكس ذلك لا يعدو كونه تجنياً على الحقيقة[260] ذلك لأنّ الشبيبي ظلّ حتى الرمق الأخير يعادي الطائفية[261]، فضلاً عن أنه كان ينظر إلى تاريخ العرب والإسلام في إطار شامل تجاوز فيه النظرة الضيقة إلى أحداثه، وتطوراته. يروي أحد روّاد مجلسه أنه كان يؤكد باستمرار أن «لا تاريخ أدبياً أو سياسياً أو حضارياً» للعرب في حالة «تجاوز تاريخ الدولة الأموية في الشام والأندلس، ومن ثم الدولة العباسية»، الاستنتاج الذي توصل إليه أثناء إقامته في دمشق ومطالعته الدؤوبة لمصادر ذلك التاريخ[262].

أما بالنسبة لقضية أنيس زكريا النصولي وكتابه تحديداً فقد ذكر الشبيبي أن أحرج موقف جابهه في حياته كان حين سئل عن رأيه في الموضوع، إذ أنه، كما أكّد، كان على علاقة جيدة بشخص النصولي، كما كان مقتنعاً بأنّ كتابه لم يكن فيه «أي طعن، أو إساءة لآل البيت»، «مما جعلني، والقول للشبيبي، أن أحسّ بإحراج كبير جداً بين أن أقف بما يمليه عليّ ضميري، وبين موقفي المحرج أمام أهل النجف[263] بالدرجة الأولى... في حين أن البعض من الطلبة الذين وقفوا إلى جانب النصولي كانوا من جماعتنا»[264].

لم تكن معالجات الشيخ الشبيبي لقضايا المجتمع العامة في سنوات الانتداب بمستوى الطموح، وهي لم تتجاوز مجلسه وأروقة مجلس النواب إلاّ ما ندر. إننا لم نعثر له خارج المجلسين سوى على بعض الآراء العامة التي كانت في الأصل ردّاً على استفتاء أجرته صحيفة «الحاصد» عرضت فيه على المفكرين العراقيين سؤالين، يقول الأول منهما «بماذا يجب أن يفكر العراقي للنهوض ببلاده نهضة حقيقية»، ويقول الثاني «وبأي الوسائل يسعى لإخراج فكرته إلى حيّز العمل». ذكر الشبيبي في جوابه أنه يطمح إلى «أن يتم لنا من مظاهر القوة والنهوض ما تمّ لغيرنا من الشعوب» شرط أن يتحوّل ذلك إلى حركة منظمة «لا تعدو احتفاظنا بكياننا قويّاً منيع الأركان، ولا تنحرف بنا عن التمسك بشعائرنا وأخلاقنا موقرة الاحترام»، مما يستوجب «تفاهم الطبقة المستنيرة المفكرة، وتوحيد جهودها»[265].

كما أنه وقف بحماس ضد تفاقم ظاهرة الإقبال المتزايد على تداول المشروبات الروحية، التي رأى فيها تهديداً خطيراً للمجتمع. وقد عرض بالنسبة للموضوع أمام مجلس النواب آراء اتّسمت بعمق واضح، أراد منها معالجة المشكلة بطريقة «تراعى فيها القواعد الطبيعية والاجتماعية»[266].

أما بالنسبة للمرأة فإنّ الشبيبي لم يرق في هذه المرحلة أيضاً إلى مستوى المثقفين المجددين من أمثال الزهاوي والرصافي وشكري الفضلي وإبراهيم

حلمي العمر وغيرهم، ممن اتخذوا موقفاً واضحاً من حقوقها قبل عهد الانتداب بمدة[267].

إلاّ أننا إذا أخذنا جميع الأمور التي أحاطت بالشبيبي بنظر الاعتبار حينئذٍ نجد لموقفه من المرأة العذر المقبول إلى حدّ كبير[268]. يؤكد المقرّبون من الشبيبي أنه كان، مع ذلك، أفضل من معظم أقرانه، الذين عاشوا مثل ظروفه، في موقفه من المرأة التي لم ينكر عليها حقوقها على الأقل في مجالسه الخاصة[269]. ثم إنه كان مع تعليم المرأة دائماً، ولم يكن مرتاحاً من أن واقع المجتمع أدّى إلى «أن تنال المرأة ضعف الرجل من تراث الجهل» حسب تعبيره على صفحات «المقتطف» في حزيران العام 1911. كما أن موقفه من تعليم بناته، الذي يتزامن في بداياته مع عهد الانتداب، يعد مؤشراً معبّراً آخر لموقفه من تعليم المرأة[270]. لكنه بالمقابل، كان ضد تدريس «الأشغال اليدوية والرقص والألعاب الرياضية»[271] في المدارس[272].

كان نشاط محمد رضا الشبيبي في الميدان الثقافي الصرف في عهد الانتداب دون مستوى نشاطه قبل الحرب عموماً. إنه تبنى في أواخر عهد الانتداب فكرة طائفة من أدباء النجف ومثقفيها لتأسيس جمعية «منتدى النشر» الأدبية التي قدّر لها فيما بعد أن تؤدي «دوراً كبيراً في خدمة الثقافة والأدب»[273]. كما كان مع شقيقه محمد جعفر الشبيبي[274] ضمن أول هيئة فكرت في تأسيس مجمع علمي عراقي في العام 1921، وقد ضمت خمسة عشر عضواً[275]. وبعد مرور عامين على تلك المحاولة التي لم يكتب لها النجاح انتخب الشبيبي عضواً عاملاً في «المجمع العلمي العربي بدمشق... اعترافاً بفضله وعلمه وأدبه»[276]. وقد دشن ذلك بداية حياة الشبيبي المجمعية التي تحوّلت إلى جزء مهم من حياته العلمية والثقافية في مرحلة ما بعد الانتداب التي برز فيها الشيخ محمد رضا الشبيبي عالماً ومفكّراً وسياسياً ووطنياً مخلصاً.

هوامش

(1) كان اسمها الحقيقي مجلس الدولة (Council of state).

(2) حكم القلة، أو الأقلية.

(3) الدكتور زكي صالح، مقدمة في دراسة العراق المعاصر، بغداد، 1953، ص 56.

(4) «الاستقلال»، (جريدة)، بغداد، العدد السابع، 31 تشرين الأول، 1920 والعدد 33، 6 كانون الثاني 1921.

(5) عبد الرزاق أحمد النصيري، المصدر السابق، ص 279 ـ 280.

(6) نشر نجله أسعد الشبيبي نص التقرير، مع صورة زنكوغرافية لصفحته الأولى بخط والده في العام 1969، أي بعد مرور أربع سنوات على وفاة الشبيبي. أنظر: «الثقافة الجديدة»، العدد الخامس، آب 1969، ص 225 - 237.

(7) وردت أسماء عدد منهم في رسالة الشبيبي إلى علوان الياسري، وهم «السيدين السندين الثقتين السيد نور والسيد محسن والشيخ مرزوق العواد وحضرة العلامة الميرزا أحمد» كما ورد في نص الرسالة.

(8) يوافق أواخر أيار سنة 1921.

(9) «الثقافة الجديدة»، العدد الخامس، آب 1969، ص 229. كذلك أنظر النص نفسه في صورة الرسالة المنشورة في الصفحة 228. توجد إشارة عابرة أخرى إلى الحقيقة ذاتها في مقدمة كتابه «رحلة في بادية السماوة». أنظر: محمد رضا الشبيبي، رحلة في بادية السماوة سنة 1339 هـ ـ 1920م، ص جـ.

(10) آثرنا نقل كل ما سجله الشبيبي بهذا الصدد لما ورد فيه من معلومات مفيدة، فضلاً عن أن ذلك من شأنه أن يجسّد لنا موقفه وآراءه في تلك المرحلة بصورة أفضل.

(11) يقصد تشرين الأول.

(12) يوافق 19 نيسان 1921، لكن المعروف أن السيد طالب النقيب قد أبعد مساء اليوم السادس عشر من نيسان 1921، أي قبل ثلاثة أيام من التاريخ الوارد في تقرير الشيخ الشبيبي الذي اعتمد أغلب الظن تاريخ نشر بيان المندوب السامي عن إبعاد طالب النقيب في الجرائد المحلية يوم التاسع عشر من نيسان 1921. وللتفصيل عن الموضوع أنظر: عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الأول، الطبعة السابعة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1988، ص 42 - 44.

(13) هكذا ورد في النص.

(14) «الثقافة الجديدة»، العدد الخامس، آب 1969، ص 233 - 234.

(15) المصدر نفسه، ص 235.

(16) المصدر نفسه، ص 229.

(17) كان الرأي العام العراقي، ولا سيما الوسط الثقافي منه، يميل بقوة إلى اختيار الأمير فيصل ملكاً للعراق. حسبما يؤكد فريق المزهر آل فرعون، وهو من المشاركين في الأحداث، أن زعماء العراق عدلوا منذ العاشر من تشرين الثاني سنة 1920 عن المناداة باسم الأمير عبد الله ملكاً على العراق، وقرروا مبايعة فيصل. فريق المزهر آل فرعون، المصدر السابق، ص 516 - 520.

(18) راجع المبحث الخاص برحلة محمد رضا الشبيبي إلى الحجاز وبلاد الشام في الفصل الثاني من هذه الرسالة.

(19) «الثقافة الجديدة»، العدد الخامس، آب 1969، ص 229.

(20) المصدر نفسه، ص 233.

(21) المصدر نفسه، ص 237.

(22) في طريقه إلى بغداد من البصرة عرّج الأمير فيصل على الكوفة والنجف وكربلاء لزيارة العتبات المقدسة. أنظر: عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الأول، ص 51.

(23) جعفر الخليلي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 125.

(24) يسميه الحسني بيعة. أنظر: عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الأول، ص 58.

(25) كانت النجف تتبع كربلاء إدارياً يومئذٍ.

(26) للتفصيل عن ذلك أنظر:

غسان العطية، المصدر السابق، ص 499 - 501.

(27) كان محمد رضا الشبيبي يتمتع أيضاً باحترام خاص من لدن نوري السعيد على الرغم من اختلافهما الكبير في الرأي والموقف. يروي خليل كنه وفؤاد عارف شواهد معبرة عن ذلك. يؤكد كنه أن نوري السعيد ظلّ يقبل الشبيبي من كتفيه حين لقائه به، تقديراً له واحتراماً (مقابلة مع خليل كنه في 6 كانون الأول 1991، مقابلة مع اللواء المتقاعد فؤاد عارف في 11 كانون الثاني 1992).

(28) «الرابطة»، العدد السادس، السنة الثانية، كانون الثاني 1976، ص 155.

(29) «محاضر مجلس النوّاب. الاجتماع غير الاعتيادي. الجلسة السادسة عشرة من الدورة العاشرة»، بغداد، 1947، ص 585.

(30) يؤكد عبد الرزاق الهلالي ذلك باعتباره حقيقة لا حجة، بينما أن واقع النشاط الفكري والأدبي المحدود للشيخ الشبيبي في تلك المرحلة يؤيد ما ذهبنا إليه، وسوف نتطرق إلى ذلك الموضوع لاحقاً. عن رأي عبد الرزاق الهلالي أنظر ص 23 من كتابه «دراسات وتراجم عراقية».

(31) استمرت انتخابات أعضاء المجلس التأسيسي لغاية الخامس والعشرين من شباط سنة 1924.

(32) للتفصيل عن ذلك أنظر:

عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الأول، ص 147 - 149، 180 - 196، 211 - 238.

(34) «الرابطة»، العدد الرابع، السنة الثانية، أيلول 1975، ص 132.

(35) المصدر نفسه، ص 132 - 133.

(36) للتفصيل عن الموضوع أنظر:

الدكتور فاروق صالح العمر، الأحزاب السياسية في العراق 1921 - 1932، بغداد، 1978، ص 59 - 109.

(37) محمد مهدي البصير، المصدر السابق، ص 209.

(38) عبد الرزاق الحسني، الأحزاب السياسية العراقية، الطبعة الثانية، بيروت، 1983، ص 34.

(39) محمد مهدي البصير، المصدر السابق، ص 209.

(40) «العراق في الوثائق البريطانية سنة 1936»، ص 65.

(41) هاجم الإخوان النجديون عدداً من القبائل العراقية في منطقة المنتفك يوم الحادي عشر من آذار سنة 1922، مما أدّى إلى هياج الرأي العام العراقي بقوة. للتفصيل عن الموضوع أنظر:

صادق حسن السوداني، العلاقات العراقية السعودية 1920 - 1931، بغداد، 1974 -1975، ص 68 - 86.

(42) محمد مهدي البصير، المصدر السابق، ص 210.

(43) تاريخ الثامن والعشرين من تموز الذي ورد في رسالة «دور المجددين في الحركة الفكرية والسياسية في العراق 1908 - 1932» غير صحيح (أنظر: عبد الرزاق أحمد النصيري، المصدر السابق، ص 323). يؤكد الحسني أيضاً أن القانون صدر يوم الثاني من تموز سنة 1922 بعد أن أقرّه مجلس الوزراء في جلسته المنعقدة بتاريخ التاسع والعشرين من حزيران السنة نفسها (أنظر: عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الأول، ص 119).

(44) الدكتور فاروق صالح العمر، المصدر السابق، ص 66.

(45) للتفصيل عن تأسيسهما، ومنهاجيهما، ودورهما السياسي أنظر:

عبد الرزاق الحسني، تاريخ الأحزاب السياسية في العراق، ص 12، 33 - 54.

(46) المصدر نفسه، ص 12، 55 - 64.

(47) للتفصيل عن ذلك أنظر:

عبد الرزاق أحمد النصيري، المصدر السابق، ص 322 - 329. أما عن دور الشبيبي وتردده تحديداً فانظر ص 325 - 327.

(48) قدمت الوزارة الهاشمية الأولى استقالتها يوم الحادي والعشرين من حزيران سنة 1925.

(49) سامي عبد الحافظ القيسي، ياسين الهاشمي ودوره في السياسة العراقية بين عامي 1922 - 1936، الجزء الأول، البصرة، 1975، ص 219 - 324، (الكتاب في الأصل رسالة ماجستير قدمت إلى كلية الآداب ـ جامعة بغداد).

(50) ألّفت الوزارة العسكرية الأولى يوم الثاني والعشرين من تشرين الثاني سنة 1923 من أجل جمع المجلس التأسيسي، وإقرار المعاهدة العراقية ـ البريطانية بتخطيط من الملك فيصل الأول، فلما أنجزت مهمتها رفعت كتاب استقالتها إلى الملك الذي قبلها في اليوم نفسه، وكلّف ياسين الهاشمي أيضاً في اليوم نفسه بتأليف الوزارة

الجديدة التي دخلها الشبيبي.

(51) يقول الدكتور يوسف عز الدين بهذا الخصوص حين «عهد فيصل إلى ياسين الهاشمي بتأليف وزارته الأولى أبرق إليه قائلاً إنه يسرّه التعاون معه». أنظر: الدكتور يوسف عز الدين، شعراء العراق في القرن العشرين، ص 123. ورد التأكيد على الحقيقة ذاتها في الورقة الثانية من مخطوطة «الشبيبي في حقل الوطنية» المحفوظة في مكتبة المجمع العلمي العراقي.

(52) عبد الرزاق الهلالي، دراسات وتراجم عراقية، ص 23؛ «العربي»، العدد 159، فبراير 1972، ص 80.

(53) اشترك معه في الوزارة كل من عبد المحسن السعدون للداخلية، وساسون حسقيل للمالية، وإبراهيم الحيدري للأوقاف، ورشيد عالي الكيلاني للعدلية، ومزاحم الباجه جي للأشغال والمواصلات. يقول الحسني إن ياسين الهاشمي تفاهم مع الملك فيصل الأول على اختيار وزرائه، وأن المندوب السامي أقرّ بدوره هذا الاختيار. أنظر:

عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الأول، ص 246.

(54) تقلّد وزارة المعارف قبل الشبيبي كل من عزت باشا الكركوكلي وعبد الكريم الجزائري وعبد الحسين الجلبي والشيخ محمد حسن أبو المحاسن.

(55) أفرد الدكتور إبراهيم خليل أحمد مبحثاً خاصاً في كتابه «تطور التعليم الوطني في العراق 1869 ـ 1932» (البصرة، 1982، ص 212 - 214) لموضوع «تعيين الشيخ محمد رضا الشبيبي وزيراً للمعارف».

(56) قبل تأليف الوزارة الهاشمية الأولى بمدة طويلة تحوّل موضوع الأرض إلى واحدة من أعقد مشاكل الريف في العراق، وقد تفاقمت أبعاد المشكلة أكبر بعد الحرب العالمية الأولى. لم تتخذ وزارة ياسين الهاشمي الأولى موقفاً عملياً من تلك المشكلة، ولم نعثر على ما يؤشر موقفاً محدداً من محمد رضا الشبيبي إزاءها، مع العلم أن جنوب البلاد كان أكثر مناطق العراق معاناة منها، وكان الشبيبي على علم بذلك عن كثب.

(57) علقت أوساط الرأي العام العراقي آمالاً كبيرة على منهاج وزارة الهاشمي، وقد نشرته جريدة «الاستقلال» المعارضة، وتناولته بالتعليق. أنظر:

«الاستقلال»، 8 و15 و21 آب 1924.

وأكّدت مجلة «الحرية» بصورة خاصة على حقيقة أن وزارة الهاشمي هي أول وزارة تؤلّف

بعد انتهاء مهمات «المجلس التأسيسي» المصيرية. أنظر: «الحرية»، (مجلة)، بغداد، العددان الثالث والرابع، 15 أيلول 1924، ص 190.

(58) مما يسجل للوزارة الهاشمية الأولى أنها هي التي قررت تأليف أول وزارة خارجية عراقية بتاريخ الرابع والعشرين من تشرين الثاني سنة 1924. وفي الثامن والعشرين من أيار سنة 1925 تقرر إنشاء أول ممثلية للعراق في لندن.

(59) تأسست في العام 1921.

(60) مقتبس من:

عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الأول، ص 269.

(61) يقول مؤلف كتاب «تطور التعليم الوطني في العراق» عن منهاج وزارة المعارف في عهد الشبيبي أنه «تميز عن غيره من المناهج الوزارية السابقة بكونه منهاجاً شاملاً لكل جوانب السياسة التعليمية». أنظر: الدكتور إبراهيم خليل أحمد، المصدر السابق، ص 212.

(62) كانت ميزانية الدولة نفسها تعاني من عجز كبير في عهد الوزارة الهاشمية، قدر بحوالي سبعة ملايين روبية (الروبية وحدة العملة المستخدمة في العراق يومذاك، وكانت الروبية الواحدة تعادل 75 فلساً). وقد بلغ الأمر بالوزارة أنها رفضت دفع القسط المستحق من الدين العثماني البالغ ثلاثة ملايين روبية، لأنّ دفعه كان من شأنه أن يؤدي إلى عجز الدولة عن صرف رواتب الموظفين.

(63) عن الأزمة الاقتصادية في عهد الوزارة الهاشمية الأولى أنظر: سامي عبد الحافظ القيسي، المصدر السابق، ص 226 - 229.

(64) المصدر نفسه، ص 223 (المتن والهامش).

(65) الدكتور إبراهيم خليل أحمد، المصدر السابق، ص 214.

(66) المصدر نفسه، ص 231 - 232، 247 - 250.

(67) نعود إلى تفصيلات الموضوع فيما بعد.

(68) في النص: فيها.

(69) للتفصيل عن الموضوع أنظر:

الدكتور إبراهيم خليل أحمد، المصدر السابق، ص 214 - 216.

(70) للتفصيل أنظر:

الدكتور نوري عبد الحميد خليل، التاريخ السياسي لامتيازات النفط في العراق

1925 - 1952، بغداد، 1980، ص 53 - 122.

(71) اختلفت آراء الرجلين قبل منح امتياز النفط بصدد بعض القضايا المالية التي تصدّت الوزارة لمعالجتها، إلاّ أن ذلك لم يترك أي أثر على موقف الشبيبي من الوزارة.

(72) بعد سلسلة من المناورات، والمحاولات للنفوذ إلى نفط بلاد ما بين النهرين تأسست في الحادي والثلاثين من كانون الثاني عام 1911 في لندن «شركة الامتيازات الإفريقية والشرقية المحدودة» اشترك فيها البنك الألماني بنسبة 25٪ من أسهمها والبنك الوطني التركي وكاسل وكولبنكيان بنسبة 75٪ المتبقية منها. تغير اسمها إلى «شركة النفط التركية» في 25 أيلول 1912. بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى تغير مساهمو الشركة التي أصبحت تمثل المصالح البريطانية والفرنسية والأمريكية فضلاً عن كولبنكيان، وقد تغير اسمها إلى «شركة النفط العراقية» اعتباراً من يوم الثامن من حزيران عام 1929.

(73) الدكتور نوري عبد الحميد خليل، المصدر السابق، ص 102 - 103.

(74) نشطت المعارضة ضد الامتياز في الأشهر الأولى من العام 1925 بصورة خاصة، فقد وحّد حزبا «النهضة» و«الأمة» جهودهما لتنظيم المظاهرات، وتقديم مذكرات الاحتجاج، كما شنت العديد من الصحف حملة لاذعة ضدها.

(75) إن موقف ياسين الهاشمي من المعاهدة العراقية ـ البريطانية، ومن امتياز النفط هو الذي دفع المستشرق الجورجي ألبرت منتشاشفيلي إلى التأكيد على أن الهاشمي «استطاع أن يجد لغة مشتركة مع الإنكليز». أنظر: أ.م. : منتشاشفيلي، العراق في سنوات الانتداب البريطاني، ترجمة الدكتور هاشم صالح التكريتي، من منشورات جامعة بغداد، بغداد، 1978، ص 243.

(76) الدكتور نوري عبد الحميد خليل، المصدر السابق، ص 102 - 104.

(77) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الأول، ص 287.

(78) حسين جميل، المصدر السابق، ص 165. في الواقع أن البريطانيين هم الذين حولوا موضوع مصير ولاية الموصل إلى ورقة ضغط على الحكومة العراقية.

(79) كان الكيلاني عضواً في اللجنة الوزارية التي عهد إليها تدقيق شروط الامتياز، لذا جاء كتاب استقالته أكثر توثيقاً من كتاب استقالة الشبيبي.

(80) «العربي»، العدد 159، فبراير 1972، ص 80. حسب علي منصور الجابري، (المصدر السابق، ص 22) أن الشبيبي لم يكن مرتاحاً أيضاً من سياسة الحكومة المالية.

(81) مقتبس من:

عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الأول، ص 290 - 291.

(82) «العراق»، العدد 1484، 21 آذار 1925. يذكر الحسني خطأ أن تاريخ قبول استقالتي الشبيبي والكيلاني كان الرابع عشر من آذار. أنظر: عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الأول، ص 290.

(83) أنظر على سبيل المثال:

«العراق»، العددان 1468 و1472، 3 و7 آذار 1925.

(84) سامي عبد الحافظ القيسي، المصدر السابق، ص 307 - 308.

(85) ملاك غني من الكاظمية، كان على علاقة وطيدة بنوري السعيد، عهد إليه حقيبة وزارة المعارف مراراً سواء في سنوات الانتداب، أو بعدها.

(86) عهدت وزارة العدلية وكالة إلى مزاحم الباجه جي.

(87) سامي عبد الحافظ القيسي، المصدر السابق، ص 308.

(88) كان ذلك أوضح بالنسبة له، لأنّ الكيلاني سرعان ما أبدى قدراً من التراجع، والمساومة في مواقفه السياسية اللاحقة.

(89) أنظر على سبيل المثال:

«الاستقلال»، الأعداد 581 و583 و588 في 8 و11 و17 مارث 1925؛ «المفيد»، الأعداد 342 و344 و345 في 8 و10 و11 مارث 1925؛ «العراق»، الأعداد 1471 و1472 و1479 و1482 في 6 و16 و18 و19 آذار 1925؛ «السياسة»، العدد الخامس، 7 آذار 1925.

(90) «العراق»، العدد 1472، 7 آذار 1925.

(91) «العراق»، العدد 1479، 16 آذار 1925.

(92) مع العلم أن ياسين الهاشمي لم يقدم إلى ذلك الحين استقالة الشبيبي والكيلاني إلى البلاط الملكي بعد.

(93) «المفيد»، العدد 344، 10 مارث 1925.

(94) هكذا ورد نصّاً.

(95) «المفيد»، العدد 345، 11 مارث 1925.

(96) مع ذلك نرى قدراً من المبالغة في تعليق صاحب الرسالة الجامعية «الشبيبي شاعراً» بهذا الخصوص، إذ يقول «وعلى أثر هذه الاستقالة عانى (الشبيبي) ما عانى من دسائس السلطات الأجنبية، والإنكليزية منها بصورة خاصة، فاتخذت القرارات السرية

لإبعاده عن المناصب الوزارية. . .». أنظر: قصي سالم علوان، المصدر السابق، ص 61.

(97) بما فيهم أولئك الساسة الذين عرفوا باتجاهاتهم العلمانية أكثر من الشبيبي، من أمثال حكمت سليمان الذي أصبح وزيراً للمعارف في الوزارة السعدونية الثانية التي ألّفت يوم السادس والعشرين من حزيران سنة 1925 على أثر سقوط الوزارة الهاشمية الأولى.

(98) من ذلك، على سبيل المثال، المراسيم التي صدرت في عهد الوزارة السعدونية الثالث (14 كانون الثاني 1928 - 28 نيسان 1929)، ردّاً على المظاهرات الطلابية الواسعة يوم الثامن من شباط عام 1928 لمناسبة زيارة الزعيم الصهيوني البريطاني المعروف السر ألفرد موند للعراق، والتي نصّت على عقاب الطالب الذي «لم يكمل الثامنة عشرة من عمره. . . بالجلد بالمقرعة، بعد المعاينة الطبية، على أن لا يزيد ذلك على 25 جلدة» إذا «اشترك في أي اجتماع غير قانوني، أو أقلق أو حاول أن يقلق السلم العام بصورة أخرى»، وبالطرد «طرداً مؤقتاً أو مؤبداً» بالنسبة لكل طالب أكمل الثامنة عشرة من عمره ممن «يثبت بأنهم اشتركوا في المظاهرات التي وقعت في 8 شباط سنة 1928»، وأن «لا يستخدم في دوائر الحكومة في المستقبل من تقرّر طرده من هؤلاء طرداً مؤبداً لسبب الحادث المذكور»، مما تحوّل إلى سابقة خطيرة في التاريخ السياسي للعهد الملكي. بقي أن نقول إن توفيق السويدي كان وزيراً للمعارف في الوزارة السعدونية الثالثة، وكان، كما هو معروف، شخصية قانونية معروفة، ومثّل العراق في المؤتمر العربي في باريس سنة 1913، كما ترأس المؤتمر العراقي بدمشق سنة 1920 كما سبق وأن نوهّنا إلى ذلك. عن المراسيم أنظر: عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الثاني، الطبعة السابعة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1988، ص 154 - 158.

(99) «المفيد»، العدد 344، 10 مارث 1925.

(100) يؤكد المقربون من الشبيبي أن وضعه المالي في معظم الأحيان كان وضعاً متواضعاً، بل ودون الوسط في بعض الظروف (مقابلة مع الدكتور حسن علي محفوظ في 3 شباط 1992؛ مقابلة مع أحمد المظفر في 10 تشرين الثاني 1991).

(101) علي الخاقاني، المصدر السابق، الجزء التاسع، ص 17.

(102) استوزر الشبيبي أربع مرات أخرى، فقد كان استيزاره الثاني في وزارة ياسين

الهاشمي الثانية (17 آذار 1935 ـ 29 تشرين الأول 1936)، وللمرة الثالثة في وزارة جميل المدفعي الرابعة (17 آب 1937 ـ 25 كانون الأول 1938)، وللمرة الرابعة في وزارة جميل المدفعي الخامسة (2 حزيران ـ 7 تشرين الأول 1941)، وللمرة الخامسة والأخيرة في وزارة محمد الصدر التي ألّفت على أثر وأد «معاهدة بورتسموث» بفضل الوثبة (29 كانون الثاني ـ 23 حزيران 1948)، مع العلم أنه قدّم استقالته من أكثر من وزارة من هذه الوزارات.

(103) أنظر نصّ القانون، وما دار حوله من نقاش في المجلس التأسيسي في:
«مذاكرات المجلس التأسيسي العراقي لسنة 1924م ـ 1343هـ»، الجزء الثاني، ص 1080 ـ 1328.

(104) منح القانون الأساسي مجلس النوّاب، أو أحد أعضائه بتأييد عشرة آخرين حق اقتراح اللوائح، فضلاً عن اللوائح التي تتقدم بها الحكومة حسب احتياجات مؤسساتها.

(105) بدأت الانتخابات النيابية يوم الثاني والعشرين من تشرين الثاني سنة 1924، وانتهت في أيار من السنة التالية.

(106) «العراق»، العدد 1492، 31 آذار 1925.

(107) «العراق»، العدد 1470، 5 آذار 1925، اختارت الجريدة عنواناً معبّراً لمقالها الافتتاحي، هو «في الحركة بركة».

(108) من شباب بغداد المتحمسين يومذاك، عرف بمواقفه المعادية للانتداب، بذل أيام الانتخابات جهوداً حثيثة لصالح مرشحي المعارضة، ورد عنه في وثيقة بريطانية ما نصّه: «من المتطرفين البارزين. متصل عادة بجميع المشاغبات والدسائس الوطنية».
أنظر:
«العراق في الوثائق البريطانية سنة 1936»، ص 60.

(109) «العراق»، العدد 1473، 9 آذار 1925.

(110) إن ترشيح الشبيبي نفسه عن بغداد لا يخلو، بحدّ ذاته، عن مغزى، فإنه تحول إلى اسم بارز أصبح بوسعه أن يرشح نفسه خارج مسقط رأسه على غرار كبار الساسة العراقيين يومذاك.

(111) من المثقفين المعروفين، تقلّد في مرحلة ما بعد الانتداب مناصب رفيعة في الدولة.

(112) هو عبد الهادي بن الشيخ أحمد الظاهر، كان محامياً ثم موظفاً ثم وزيراً للاقتصاد في وزارة توفيق السويدي الثانية المؤلفة في 23 شباط 1946. توفي في بغداد يوم

الثامن والعشرين من كانون الثاني عام 1979. مقابلة مع عبد الرزاق الحسني، في 11 تشرين الثاني 1992.

(113) في النص: أسمائهم.

(114) «المفيد»، العدد 354، 23 مارث 1925.

(115) منح المسيحيون قانوناً حق انتخاب أربعة نوّاب يمثلونهم في المجلس، كما منح اليهود الحق نفسه.

(116) «المفيد»، العدد 351، 18 مارث 1925.

(117) في النص: أسمائهم.

(118) «الاستقلال»، العدد 591، 21 مارث 1925.

(119) انتخب رشيد عالي الكيلاني رئيساً للمجلس في دورته الأولى، وكان حينئذٍ وزيراً للداخلية في الوزارة السعدونية الثانية، فاستقال عن منصبه الوزاري وتفرّغ كليّاً لشؤون المجلس.

(120) ورد خطأً في التقرير الذي أعدته السفارة البريطانية خصيصاً عن الشخصيات العراقية أن الشيخ الشبيبي كان عضواً في المجلس التأسيسي. أنظر: «العراق في الوثائق البريطانية سنة 1936»، ص 70.

(121) عبد الرزاق الهلالي، دراسات وتراجم عراقية، ص 23.

(122) أعيد انتخابه للدورات الثانية والرابعة والخامسة والعاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة، وأخيراً الثالثة عشرة.

(123) كان كلاهما يمثلان لواء المنتفك في المجلس.

(124) الدكتور لطفي جعفر فرج عبد الله، عبد المحسن السعدون. دوره في تاريخ العراق السياسي المعاصر، من منشورات مكتبة اليقظة العربية، بغداد، 1988، ص 179 - 180.

(125) ألّف عبد المحسن السعدون وزارته الثانية يوم السادس والعشرين من حزيران 1925 ليخلف بذلك وزارة ياسين الهاشمي. بقيت الوزارة السعدونية الثانية في الحكم حتى الحادي والعشرين من تشرين الثاني 1926.

(126) للتفصيل عن الحزبين، وعن منهاجيهما أنظر:

عبد الرزاق الحسني، تاريخ الأحزاب السياسية العراقية، ص91-104؛ الدكتور فاروق صالح العمر، المصدر السابق، ص 157 - 190.

(127) حسب الدكتور فاروق صالح العمر في كتابه «دور الأحزاب السياسية في العراق» (ص 165) لم يكن يحق لغير أعضاء مجلس النوّاب الانتماء إلى «حزب التقدم».

(128) هم، فضلاً عن محمد رضا الشبيبي، كل من ياسين الهاشمي وأحمد الشيخ داود وفخري الجميل ومحمود رامز ومزاحم الباجه جي وعبد اللطيف الفلاحي.

(129) هم كل من ثابت عبد النور وإبراهيم كمال وسعيد الحاج ثابت. أما العضوان الآخران فكانا نصرت الفارسي نائب ديالى، ورشيد الخوجة نائب الرمادي.

(130) وقع الحسني في خطأ واضح حين جعل الشبيبي معتمداً لحزب «الشعب» في الجزء الثاني من «تاريخ الوزارات العراقية» (ص25)، في حين أنه يذكر في كتابه الآخر «تاريخ الأحزاب السياسية في العراق» (ص 101) إن الشبيبي كان نائباً للرئيس فيه.

(131) تألف منهاج «حزب الشعب» من ست مواد مركزة ذات طابع عام.

(132) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الأحزاب السياسية العراقية، ص 104.

(133) المصدر نفسه، ص 170 - 171.

(134) استقال العديد من أعضائه بعد مرور مدة وجيزة على تأليفه.

(135) الدكتور فاروق صالح العمر، المصدر السابق، ص 168.

(136) العبارة للمؤرخ الحسني. أنظر: عبد الرزاق الحسني، تاريخ الأحزاب السياسية العراقية، ص 103.

(137) عهدت إليه حقيبة وزارة المالية.

(138) الدكتور فاروق صالح العمر، المصدر السابق، ص 178.

(139) «محاضر مجلس النواب. محضر الجلسة الثالثة والخمسين من الاجتماع غير الاعتيادي الأول لمجلس النواب لسنة 1926 - 1927»، ص 775 - 776.

(140) ترأس تحرير «نداء الشعب» الصحفي المعروف إبراهيم حلمي العمر (بغداد 1890 - بغداد 12 كانون الثاني 1942)، وكان صاحب امتيازها عضو الهيئة الإدارية للحزب إبراهيم كمال بن أحمد مختار باعتباره محامياً.

(141) بعد توقفها عن الصدور «أعادها عبد الغفور البدري لتحلّ محلّ جريدة «الاستقلال» المعطلة، فصدرت لمدة أسبوع»، ثم عادت للصدور في العام 1928 إلى أن عطلتها الوزارة السعيدية الأولى التي تألفت يوم الثالث من آذار سنة 1930. عن ذلك أنظر: زاهدة إبراهيم، المصدر السابق، ص 245.

(142) «نداء الشعب»، العدد 6، 26 كانون الثاني 1926.
(143) فائق بطي، صحافة العراق. تاريخها وكفاح أجيالها، بغداد، 1968، ص 56؛ عبد الرزاق الحسني، تاريخ الأحزاب السياسية العراقية، ص 103 - 104.
(144) نشرت «نداء الشعب» العديد من مقالاتها بأسماء مستعارة، من قبيل متألم وعربي وطائر وما إلى ذلك. كان عبد اللطيف الفلاحي ونصرت الفارسي من أكثر أعضاء «حزب الشعب» نشراً في جريدة «نداء الشعب».
(145) «نداء الشعب»، العدد 1، 20 كانون الثاني 1926.
(146) فائق بطي، المصدر السابق، ص 56.
(147) «نداء الشعب»، العدد 6، 26، كانون الثاني 1926.
(148) هكذا ورد النص.
(149) آثرنا نقل هذا المقطع الطويل نسبياً من مقالة الشبيبي لأنه يعبّر أيضاً عن أفكاره في هذه المرحلة بصورة واضحة.
(150) كان يطلق على مجلسي النوّاب والأعيان معاً اسم مجلس الأمة عادة.
(151) «محاضر مجلس النوّاب. محضر الجلسة الثانية من الاجتماع غير الاعتيادي الثاني لمجلس النوّاب لسنة 1927»، ص 827.
(152) المصدر نفسه، ص 825 - 826.
(153) المصدر نفسه، محضر الجلسة الثانية والثلاثين من الاجتماع غير الاعتيادي الأول لمجلس النوّاب لسنة 1926 - 1927، ص 403.
(154) يقصد به الملك.
(155) «محاضر مجلس النوّاب. الدورة الانتخابية الثانية. اجتماع 1928»، ص 13.
(156) أنظر على سبيل المثال:
«محاضر مجلس النوّاب. الدورة الانتخابية الثانية. اجتماع عام 1929»، ص 102 - 103، 143، 141، 164، 347 – 349 وغيرها.
(157) أنظر قوله بصدد ذلك في محضر الجلسة السابعة في المصدر نفسه، ص 28.
(158) أنظر على سبيل المثال تعقيب وزير المالية على إحدى مداخلات الشبيبي في الجلسة التاسعة والعشرين لمجلس النوّاب في دورته الأولى في آذار 1927 في: «محاضر مجلس النواب. محضر الجلسة التاسعة والعشرين من الاجتماع غير الاعتيادي الأول لمجلس النوّاب لسنة 1926 - 1927»، ص 360.

(159) اصطدم عقد المعاهدة، كالعادة، بعقبات مختلفة بسبب موقف الجانب البريطاني، وذلك في غضون مدة طويلة بدأت بتأليف لجنة وزارية في الثامن والعشرين من تشرين الثاني 1926 إلى حين توقيع المعاهدة يوم الرابع عشر من كانون الأول العام التالي. للتفصيل عن ذلك أنظر:

عبد الرزاق الحسني، العراق في ظل المعاهدات، الطبعة الخامسة، بيروت، 1982، ص 160 - 204.

(160) عبد الرزاق، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الثاني، ص 151.

(161) تألفت الوزارة السعدونية الثالثة يوم الرابع عشر من كانون الثاني عام 1928، وبقيت في الحكم حتى الثامن والعشرين من نيسان العام التالي.

(162) عبد الرزاق الحسني، العراق في ظل المعاهدات، ص 188 - 189.

(163) مقتبس من:

عبد الرزاق أحمد النصيري، المصدر السابق، ص 315.

(164) «محاضر مجلس النوّاب. الدورة الانتخابية الثانية. اجتماع 1929»، ص 29.

(165) «العالم العربي»، العدد 1090، 2 تشرين الأول 1927.

(166) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الثاني، ص 100.

(167) مقتبس من:

«العالم العربي»، العدد 1030، 24 تموز 1927. من الجدير بالذكر أن جريدة «المقطم» القاهرية اقتبست الكلام نفسه من «تايمس» ونشرته في عددها الصادر يوم 20 تموز 1927.

(168) وقف النائب الكردي الليبرالي المعروف اسماعيل الرواندوزي بدوره ضد مشروع التجنيد الإلزامي، ونشر رأيه حوله في الصحافة المحلية. عن ذلك أنظر:

عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية الجزء الثاني، ص 100، 104.

(169) في المجتمعات غير المتطورة اقتصادياً يقف الفلاحون والزراع وملاكو الأرض معاً ضد التجنيد الإلزامي عادة لأنه يجرد الأولين من مصدر رزق أفراد أسرهم، ويجرّد الأخيرين من قوة إنتاجهم الأساسية.

(170) لم يسنّ قانون الخدمة الإلزامية الذي عرف بـ«قانون الدفاع الوطني» إلاّ في الثاني عشر من حزيران سنة 1935. للتفصيل عن الموضوع، وملابساته وإفرازاته أنظر:

الدكتورة رجاء حسين حسني الخطاب، تأسيس الجيش العراقي وتطور دوره

السياسي من 1921 - 1941، الطبعة الثانية، بغداد، 1982، ص 95 - 126.

(171) أثيرت ضجة واسعة حول الموضوع، تحدثت عنها الصحافة العراقية والبريطانية على نطاق واسع. عن ذلك أنظر: «العالم العربي»، العددان 989، 1030، 7 حزيران 24 تموز 1927.

(172) «محاضر مجلس النوّاب. الدورة العاشرة. محضر الجلسة الثانية والثلاثين من الاجتماع غير الاعتيادي لسنة 1947»، ص 585.

(173) المصدر نفسه، ص 285 - 286.

(174) المصدر نفسه، ص 286.

(175) المصدر نفسه الدورة الانتخابية الثانية، اجتماع 1928، ص 774.

(176) عماد أحمد الجواهري، تاريخ مشكلة الأراضي في العراق ودراسة في التطورات العامة 1914 - 1932، من منشورات وزارة الثقافة والفنون، بغداد، 1978، ص 222.

(177) «محاضر مجلس النوّاب. الدورة الانتخابية الثانية. اجتماع 1928»، ص 238.

(178) المصدر نفسه، الدورة الانتخابية الأولى. الاجتماع غير الاعتيادي لسنة 1927، ص 43.

(179) المصدر نفسه، الدورة الانتخابية الأولى. محضر الجلسة الحادية والأربعين ص 517.

(180) المصدر نفسه، الدورة الانتخابية الثانية. اجتماع 1929، ص 333 - 334.

(181) المصدر نفسه الدورة الانتخابية الأولى. محضر الجلسة الثالثة والخمسين، ص 775 - 776.

(182) المصدر نفسه، محضر الجلسة الحادية والخمسين، ص 725 - 726، 731.

(183) المصدر نفسه، الدورة الانتخابية الثانية. اجتماع 1929، ص 207.

(184) على الرغم من ذلك وقف الشبيبي بشدة ضد اقتراح عدد من النوّاب إلغاء وزارة المعارف، فقد أكّد أن «مخصصات وزارة المعارف مهما بلغت، وكثرت فإن البلاد في حاجة ماسة إليها، وأن هذا الاعتقاد هو من معتقدات المجلس والأمة، وأنهما لا يستكثران على المعارف ذلك». أنظر:
المصدر نفسه، الدورة الانتخابية الثانية. اجتماع 1928، ص 741.

(185) كان الشبيبي يلمّح بذلك إلى النزعات الطائفية، الموضوع الذي نعود إلى بعض تفصيلاته فيما بعد.

(186) «محاضر مجلس النوّاب. الدورة الانتخابية الأولى. الاجتماع غير الاعتيادي الثاني لسنة 1927. محضر الجلسة الحادية عشرة»، ص 1047؛ «محاضر مجلس النوّاب. الدورة الانتخابية الثانية. اجتماع 1928»، ص 73.

(187) لم نر داعياً لأيراد أمثلة محددة عن ذلك، فإنّ محاضر مجلس النوّاب لدورتيه الأولى والثانية طافحة بعشرات النماذج المعبرة عن مداخلاته وآرائه.

(188) «محاضر مجلس النوّاب. الدورة الانتخابية الأولى. الاجتماع غير الاعتيادي الثاني لسنة 1927. محضر الجلسة الثانية والثلاثين»، ص 405.

(189) المصدر نفسه، محضر الجلسة الثانية، ص 827.

(190) في النص: وكانت.

(191) «محاضر مجلس النوّاب. الدورة الانتخابية العاشرة. الاجتماع غير الاعتيادي لسنة 1947. محضر الجلسة الرابعة»، ص 58.

(192) للتفصيل عن ذلك أنظر:

الدكتور لطفي جعفر فرج عبد الله، المصدر السابق، ص 344 - 361.

(193) «محاضر مجلس النوّاب. الدورة الانتخابية الثانية. اجتماع 1929»، ص 57.

(194) «لم يتعاون الشيخ محمد رضا الشبيبي مع نوري السعيد، ولا مع أي من وزاراته العديدة التي تألّفت في العهد الملكي» ـ مقابلة مع خليل كنه في 6 كانون الأول 1991.

(195) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الثالث، الطبعة السابعة، من منشورات دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1988، ص 68.

(196) مقتبس من المصدر نفسه، ص 69.

(197) سامي عبد الحافظ القيسي، المصدر السابق، الجزء الثاني، بغداد، 1975، ص 133 - 134.

(198) جعفر الخليلي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 129 - 130. في تعليق له على تلك الأحداث يقول الحسني: «كثر الشغب ضد الوزارة السعيدية الأولى، فأراد صاحب الجلالة أن يتصل بأفراد الشعب نفسه ليقف على الخبر اليقين، فسافر إلى كربلاء والنجف... وفي اليوم الثاني قصد الكوفة والحلّة، فأقيمت مظاهرات عنيفة في كل قصبة مرّ بها جلالته، واضطرّت الحكومة إلى أن توقف عدداً من الأهلين...». أنظر: عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الثالث،

ص 140.

(199) «العالم العربي»، الأعداد 2024 ـ 2028، 17 - 22 تشرين الأول 1930.

(200) أعاد الحسني نشر أجوبة عدد من الذين استفتت «العالم العربي» آراءهم، وذلك في معرض معالجته لموضوع معاهدة العام 1930، كان جواب الشبيبي واحداً منها.
أنظر: عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الثالث، ص 53.

(201) المقصود بالفريق الآخر الجانب البريطاني.

(202) «العالم العربي»، العدد 2026، 19 تشرين الأول 1930.

(203) قبلت مصرفي عصبة الأمم بعد العراق بخمس سنوات.

(204) الدكتور مجيد خدوري، تحرر العراق من الانتداب، بغداد، 1935، ص 21 - 22.

(205) عبد الرحمن البزاز، العراق من الاحتلال حتى الاستقلال، الطبعة الثالثة، بغداد، 1967، ص 201 - 202.

(206) الدكتور عبد المجيد كامل التكريتي، الملك فيصل الأول ودوره في تأسيس الدولة العراقية الحديثة، بغداد، 1991، ص 313.

(207) في النص: أن لا يقبلوها.

(208) «العالم العربي»، العددان 2024 و2025، 17 و18 تشرين الأول 1930.

(209) عن دور نوري السعيد في تأسيس حزب «العهد» قبيل الحرب العالمية الأولى، وعن نشاطه في صفوفه أنظر:
عبد الرزاق أحمد، نوري السعيد ودوره في السياسة العراقية حتى عام 1932، من منشورات «مكتبة اليقظة العربية»، الطبعة الثانية، بغداد، 1988، ص 34 - 36.

(210) للتفصيل عن كيفية تأسيس الحزبين، وعن منهاجيهما أنظر:
عبد الرزاق الحسني، تاريخ الأحزاب السياسية العراقية، ص 108 - 121؛ الدكتور فاروق صالح العمر، المصدر السابق، ص 191 - 218، 270 - 275.

(211) ورد عشرون تشرين الثاني سهواً في ص 115 - 120 من كتاب «تاريخ الأحزاب السياسية العراقية» للحسني، مع العلم أن المؤلف نفسه ذكر التأريخ بصورة صحيحة في ص 97 من الجزء الثالث من كتابه الآخر «تاريخ الوزارات العراقية»، كذلك في ص 99 من كتابه «تاريخ الصحافة العراقية».

(212) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الأحزاب السياسية العراقية، ص 116.

(213) سامي عبد الحافظ القيسي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 128.

(214) حتى أن النظام الداخلي للحزبين كان واحداً، فإنّ ياسين الهاشمي «جاء بالنظام الداخلي نفسه (لحزب الشعب) ولم يغير فيه سوى الاسم، وكان من أطول الأنظمة الداخلية للأحزاب (111 مادة) سواء المتقدمة عليه، أو التي جاءت بعده». أنظر المصدر نفسه، ص 124 - 125.

(215) يقول سامي عبد الحافظ القيسي بهذا الصدد: «وكان محمد زكي ومحمد رضا الشبيبي وأخوه باقر الشبيبي ويوسف غنيمة أبرز أعضاء الحزب». المصدر نفسه، ص 126.

(216) أعضاء الهيئة المؤسسة كانوا ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني وكامل الجادرجي وحكمت سليمان وناجي السويدي وعلي جودت الأيوبي والدكتور عبد الإله حافظ ومحمد زكي المحامي.

(217) كان منهاج حزب «الأخاء الوطني» يتألف من أربع مواد عمومية فقط.

(218) من أكثر الأحزاب المتمسكة بتلابيب الوطنية في عهد الانتداب، تأسس بزعامة جعفر أبو التمن، وأجيز رسمياً لأول مرة يوم الثاني من آب سنة 1922، ارتبط اسم الشبيبي به في المرحلة التحضيرية لتأسيسه كما أسلفنا.

(219) «الأخاء الوطني»، (جريدة)، بغداد، العدد 30، 4 أيلول 1931.

(220) صدر عددها الأول يوم الأحد الموافق للثامن عشر ربيع الأول 1350هـ/ الثاني من آب 1931م.

(221) أنظر على سبيل المثال:

«الأخاء الوطني»، الأعداد 38 و43 و75 و264، 14 و20 أيلول و27 تشرين الأول 1931 و31 آب 1932 وغيرها.

(222) «الأخاء الوطني»، العددان 43 و75، 20 أيلول و27 تشرين الأول 1931.

(223) أهمها «صدى العهد» و«العراق». أما «العالم العربي» و«البلاد» و«الأخبار» و«الجهاد» فقد حذت حذو «الأخاء الوطني» في موقفها من حكومة نوري السعيد.

(224) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الثالث، ص 98.

(225) تحوّل العهديون والأخائيون إلى مصطلحين شائعين في تلك الأيام للدلالة على المنتسبين إلى حزبي «العهد» و«الأخاء الوطني».

(226) «صدى العهد» (جريدة)، بغداد، العدد 293، 3 آب 1931.

(227) كان مزاحم الباجه جي من أشدّ المتحمسين ضد المعاهدة في «الاستفتاء الحر»

الذي أجرته جريدة «العالم العربي»، وقد فاق في ذلك معظم الساسة الذين استفتتهم الجريدة المذكورة. استهلّ الباجه جي جوابه بالقول: «أرجو أن تتضافر الجهود، وتتحد القلوب، وتتخلص النيات على رفض (المعاهدة) واستنكارها واستفظاعها لما احتوت عليه من أخطار وأضرار. قد سبق لي وأنا في فلسطين وسوريا أن كتبت مقالات في هذا الموضوع كشفت عمّا تحمله هذه المعاهدة من استعمار محقق لم يضمنه لبريطانيا حتى الانتداب الممقوت». أنظر:

«العالم العربي»، العدد 2024، 17 تشرين الأول 1930. كان تسلسل ردّ الباجه جي على صفحات الجريدة الرابع بعد ناجي السويدي وياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني.

(228) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الثالث، ص 104 - 105، 151.

(229) سامي عبد الحافظ القيسي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 128.

(230) للأسباب ذاتها انسحب كامل الجادرجي من حزب «الأخاء الوطني» وانضم إلى جماعة «الأهالي». من المفيد أن نشير إلى أن الجادرجي يتحدث في مذكراته باسمه، وباسم أبي التمن، عن انتهازية قادة الحزب. أنظر:

«مذكرات كامل الجادرجي وتاريخ الحزب الوطني الديمقراطي»، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1970، ص 25 - 27.

(231) أجرينا جرداً كاملاً بذلك في أعداد «الأخاء الوطني» الصادرة في عامي 1931 و1932.

(232) محمد مهدي كبة، مذكراتي في صميم الأحداث 1918 ـ 1958، دار الطليعة، بيروت، 1965، ص 49 - 50.

(233) في جوابه على السؤال التالي الذي وجه إليه في العام 1958 «هل كان قيامكم بأعباء السياسة السبب الأول في انقطاعكم عن الشعر؟» قال الشبيبي: «نعم أعباء السياسة كان لها الأثر الأكبر... أي نعم ما في شك». أنظر: «العراق»، العدد 2981، 19 تشرين الثاني 1985.

(234) «ديوان الشبيبي»، ص 3 - 199.

(235) المصدر نفسه، ص 136، 183 - 184.

(236) وقع الشبيبي في التباس واضح بالنسبة لتاريخ الفيضان حين يذكر في ديوانه أنه وقع في العام 1927 (ديوان الشبيبي، ص 165)، بينما الصحيح هو يوم التاسع من نيسان 1926 تحديداً، ففي ذلك اليوم «فاضت المياه في نهر دجلة... فيضاناً لم تشهد

بغداد مثله منذ أمد بعيد، فانكسرت بعض السدود التي تقي العاصمة عادة من الغرق، وغمرت المياه البيوت والبساتين المحيطة بها، وكذا القصور والمباني وكور الطابوق القائمة في خارجها. . . واستطاعت السلطات المختصة أن تسد الكسرات في السادس عشر من شهر نيسان، أي بعد مرور أسبوع على الغرق، ولكن بعد تضحيات وأضرار جسيمة» دفعت الملك فيصل إلى إصدار أمر «بعدم إجراء مراسيم المعايدة في عيد الفطر». أنظر:

عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الثاني، ص 55-56.

(237) «ديوان الشبيبي»، ص 165. من المفيد أن نشير إلى أن الشبيبي أثار موضوع الفيضان أمام مجلس النوّاب، وانتقد موقف الحكومة منه بشدة، فقد أراد منها اتّخاذ إجراءات واسعة لتفادي نتائجها وتخصيص الأموال الكافية من أجل ذلك. أنظر:

«محاضر مجلس النوّاب. الدورة الانتخابية الثانية. اجتماع 1928»، ص 591. عاد الشبيبي إلى الموضوع ثانية في اجتماع السنة التالية لمجلس النواب، فطالب بتمديد أجل استيفاء السلف التي بحق الزرّاع حتى يتسنى لهم تجاوز صعوباتهم المالية التي أدّت آثار الأزمة الاقتصادية العالمية التي تفاقمها أكثر. أنظر:

«محاضر مجلس النواب. الدورة الانتخابية الثانية. اجتماع 1929»، ص 89.

(238) «ديوان الشبيبي»، ص 139-140.

(239) في ذي القعدة سنة 1342 هـ كما ورد في ديوانه.

(240) «ديوان الشبيبي»، ص 142.

(241) المصدر نفسه، ص 149.

(242) نقصد بها قصيدة «الفيضان» الآنفة الذكر.

(243) الدكتور علي جابر المنصوري، المصدر السابق، ص 151. في تعليق الدكتور يوسف عزّ الدين حول الموضوع نفسه قدر من الابتعاد عن الحقيقة على ما نعتقد. أنه يقول «وفي عام 1924 عين الشاعر وزيراً في وزارة ياسين الهاشمي، وبذلك ودّع شاعرنا حياة الكفاح والثورة». أنظر: الدكتور يوسف عزّ الدين، في الأدب العربي الحديث، ص 141.

(244) «ديوان الشبيبي»، ص 105 ـ 106. نشر القصيدة لأول مرة في مجلة «العرفان» اللبنانية (المجلد السابع، الجزء السادس، 1922، ص 328).

(245) الدكتور علي جواد الطاهر، الشيخ محمد رضا الشبيبي، حياته وشعره، ص 30.

(246) أنظر على سبيل المثال:
«محاضر مجلس النواب. الدورة الانتخابية الثانية. اجتماع 1929»، ص 103، 104، 136، 141، 164، 336 وغيرها.
(247) «العراق»، العدد 491، 1 كانون الثاني 1922.
(248) يقصد بهم الإخوان.
(249) يقصد بهم القرامطة.
(250) «محاضر مجلس النواب. الدورة الانتخابية الأولى. الاجتماع غير الاعتيادي الثاني لسنة 1927. محضر الجلسة الحادية عشرة»، ص 1047.
(251) سكن في حي الزوية، من ضواحي الكرادة الشرقية، على ضفاف دجلة.
(252) استقى معلوماته عن مجلسه من روّاده.
(253) قصي سالم علوان، المصدر السابق، ص 70.
(254) العبارات المقتبسة وردت ضِمن أبيات سداسيته «الشباب الطائش» التي نشرها لأول مرة في مجلة «الاعتدال» النجفية (صدر عددها الأول في شباط 1932). أنظر: «ديوان الشبيبي»، ص 91.
(255) «محاضر مجلس النواب. الدورة الانتخابية الثانية. اجتماع 1928»، ص 41.
(256) «محاضر مجلس النواب. الدورة الانتخابية الأولى. الاجتماع غير الاعتيادي الثاني. محضر الجلسة الحادية عشرة»، ص 1047.
(257) وكان الكتاب في الأصل عبارة عن محاضراته التي كان يلقيها على الطلبة في مادة التاريخ.
(258) أكّد ساطع الحصري الذي كان يومذاك مديراً عاماً للمعارف، ووقف إلى جانب النصولي وكتابه، أكّد فيما بعد أن مقدمة كتاب «الدولة الأموية في الشام» لم تخل من استفزاز وإثارة. أنظر:
ساطع الحصري، مذكراتي في العراق، الجزء الأول 1921-1927، دار الطليعة، بيروت، 1967، ص 558.
(259) للتفصيل عن «قضية النصولي» أنظر:
خيري أمين العمري، حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث، من منشورات مكتبة آفاق عربية للنشر والتوزيع، بغداد، بلا، ص 144-170.
(260) لا يمكن الاتفاق، لذلك، مع ما يذكره ساطع الحصري من أن الشبيبي كان له يد

في إثارة الضجة حول كتاب النصولي. أنظر: ساطع الحصري، المصدر السابق، ص 564.

(261) يبدو ذلك واضحاً، جلياً في مذكرته الجريئة التي قدمها إلى شخص رئيس الوزراء الدكتور عبد الرحمن البزاز بتاريخ الثامن والعشرين من تشرين الأول سنة 1965، أي قبل وفاته بأشهر قليلة. صورة من نص المذكرة محفوظة في مكتبة الأستاذ أحمد المظفر.

(262) مقابلة مع ياسين الحسيني في 13 آب 1992.

(263) المقصود ذلك القطاع من النجفيين الذين وقعوا تحت تأثير العاطفة في موقفهم من قضية النصولي.

(264) مقابلة مع ياسين الحسيني في 13 آب 1992. تؤكد المصادر أن الطلبة في بغداد تجاوزوا فعلاً القضايا الطائفية.

(265) «الحاصد»، بغداد، العدد 10، 25 أيلول 1930، ص 4.

(266) «محاضر مجلس النواب». الدورة الانتخابية الثانية. اجتماع 1928»، ص 403.

(267) عن ذلك أنظر:

عبد الرزاق أحمد النصيري، المصدر السابق، ص 136 - 146.

(268) كان والده الشيخ جواد الشبيبي، مثلاً، من أشد المعارضين لموضوع السفور، ووقف ضد الزهاوي والرصافي حوله. أنظر: علي جابر المنصوري، المصدر السابق، ص 96 - 97.

(269) مقابلة مع أحمد المظفر في 10 تشرين الثاني 1991.

(270) تخرجت ابنته الكبرى وجيهة من كلية الملكة عالية، وكذلك ابنته الثانية هدية، فيما تخرّجت ابنته الثالثة عائدة من كلية الآداب، ونالت ابنته الرابعة أسماء شهادة الماجستير في الاقتصاد، وحصلت ابنته الخامسة أروى على دبلوم مكتبات، وأخيراً حصلت ابنته السادسة على شهادة الماجستير في الاقتصاد أيضاً.

مقابلة مع أحمد المظفر في 10 تشرين الثاني 1991.

(271) أغلب الظن أن مواقف الشبيبي من مثل هذه الأمور، ومن موضوع الخمر وما شابه هي التي دفعت واضعي التقرير البريطاني الخاص عن الشخصيات العراقية إلى التأكيد على أنه كان رجعياً في آرائه. أنظر:

«العراق في الوثائق البريطانية سنة 1936»، ص 70.

(272) «محاضر مجلس النواب. الدورة الانتخابية الأولى. الاجتماع غير الاعتيادي الثاني. محضر الجلسة الحادية عشرة»، ص 1047.

(273) قصي سالم علوان، المصدر السابق، ص 64.

(274) محمد جعفر الشبيبي (1898 - 1963)، شقيق محمد رضا الشبيبي، كان سياسياً واقتصادياً معروفاً.

(275) قصي سالم علوان، المصدر السابق، ص 64 - 65.

(276) عبد الرزاق الهلالي، دراسات وتراجم عراقية، ص 30.

الخاتمة

إن كلّ ما ورد بين دفتي هذه الرسالة يبين بصورة لا لبس فيها أن محمد رضا الشبيبي كان وجهاً من أبرز وجوه الفكر الوطني العراقي الأصيل، اتّسم بقدر كبير من الوضوح والثبات والجرأة، وبصفات أخرى مكّنته من تقديم أفضل ما لديه حسب اجتهاده للشعب والوطن طيلة المرحلة التاريخية التي اخترناها إطاراً زمنياً لرسالتنا.

برز محمد رضا الشبيبي قبل الحرب العالمية الأولى أديباً أولاً، ومفكّراً ثانياً، وسياسياً في الأخير، فيما طرأ قدر كبير من التوازن بين الجوانب الثلاثة في شخصية الشبيبي طيلة سنوات الحرب، لينقلب الميزان كليّاً لصالح الفكر والسياسة في شخصيته في سنوات الانتداب.

تسلّق الشبيبي سلّم المجد والشهرة بسرعة، وكان الفضل في ذلك يعود، دون شكّ، إلى انتمائه وإمكاناته الذاتية، وإلى نشاطه الدؤوب، وإيمانه الراسخ بعدالة قضية شعبه، فغدا في مرحلة مبكرة من عمره واحداً من أبرز أعلام المجتمع النجفي أولاً، ومن ثم العراقي بعد ذلك. وقد أهّله ذلك للقيام بأدقّ، وأهمّ المهمات منذ شبابه، وليتبوأ أرفع المناصب فيما بعد.

لم يغر المنصب والجاه الشيخ الشبيبي، ولم يثنياه عن التمسك بما عدّه أرفع مبدأ في حياته، فقد ظلّ هو هو، مفكّراً متواضعاً، متّصلاً بقضايا الناس

والوطن سواء في ميدان العمل والجهاد، أو في كرسي الوزارة، أو فوق منصة البرلمان، أو في مجلسه الخاص ومجالس غيره من المفكرين وكبار المسؤولين، ومن عراقيين وغير عراقيين.

دخل الشبيبي السياسة من أوسع أبوابها في مرحلة تاريخية صعبة، أحداثها معقدة ومتشابكة، فاستحوذت على جلّ اهتماماته، مما أبعده من أكثر من ميدان كان بوسعه أن يبدع فيه، ويبرز. ففي مجال التاريخ، وهو موضوع يهمنا بصورة خاصة، ظهرت ملكاته في وقت مبكر من مرحلة دراستنا حين طرق أبوابه باحثاً، محققاً، أجاد في ميدانه، وقدّم شيئاً جديراً بالتقدير. إننا نعتقد بأنه لو قدّر للشبيبي أن يكرّس الجزء الأكبر من اهتمامه لعلم التاريخ لأصبح واحداً من فطاحل المؤرخين العرب المعاصرين، فكلّ شروط المؤرخ الناجح كانت متوفرة فيه، ولا سيما الإدراك التاريخي والمثابرة وأسلوب الصياغة والتعبير. لكنْ اهتماماته السياسية أبعدته حتى عن قرض الشعر الذي كان يؤلّف جزءاً سلساً من حياته، لا يكلّفه كما يكلّفه البحث في ميدان التاريخ.

إن ما قدمه الشيخ محمد رضا الشبيبي في ميادين الحياة كافة في غضون العقود الأربعة الأولى من عمره جعل منه زعيماً وطنياً، ومصلحاً اجتماعياً معروفاً، له مقامه لدى أبناء الشعب، مما أهّله لأداء أدوار أهمّ وأخطر في مرحلة ما بعد الانتداب.

المصادر والمراجع

مؤلفات الشبيبي المخطوطة والمنشورة:

- «الترجمة الذاتية»، مخطوطة، مطبوعة على الآلة الكاتبة بإشراف الشيخ محمد رضا الشبيبي وموافقته، 1964، محفوظة في مكتبة خضر الولي.
- «تقرير وجيز عن أحوال العراق»، ـ «الثقافة الجديدة» (مجلة)، العدد الخامس، بغداد، آب 1969.
- «ديوان الشبيبي»، عنيت بنشره جمعية الرابطة العلمية الأدبية، القاهرة، 1940.
- «رحلة في بادية السماوة سنة 1339هـ 1920م»، بغداد، 1964.
- «شذرات من مذكرات الشبيبي»، بغداد، 1973.
- «مذكرة الشبيبي إلى رئيس الوزراء الدكتور عبد الرحمن البزاز بتاريخ الثامن والعشرين سنة 1965»، محفوظة في مكتبة أحمد المظفر.
- «نبذة عن سيرة المرحوم الوالد الشيخ جواد الشبيبي»، مخطوط محفوظ في المجمع العلمي العراقي.

الوثائق والمخطوطات:

- «الحكومة العراقية. وزارة الداخلية. مجموعة مذاكرات المجلس التأسيسي العراقي لسنة 1924م ـ 1343 هـ»، بغداد، بلا.

- دار صدام للمخطوطات، رقم الملف 34535، عنوان الملف: رزوق عيسى.
- دار صدام للمخطوطات، رقم الملف 34715، عنوان الملف: محمد باقر الشبيبي.
- دار صدام للمخطوطات، رقم الملف 34727، عنوان الملف: محمد رضا الشبيبي.
- دار صدام للمخطوطات، رقم الملف 34770، عنوان الملف: كاظم الدجيلي.
- دار صدام للمخطوطات، رقم الملف 34803، عنوان الملف: هبة الدين الحسيني.
- شاكر جابر، أنساب العشائر العراقية، الجزء الرابع، من تاريخ الكرادة الشرقية، مخطوطة محفوظة في مكتبة شاكر جابر.
- «العراق في الوثائق البريطانية 1905 - 1930»، ترجمة فؤاد قزانجي، تقديم ومراجعة عبد الرزاق الحسني، بغداد، 1989.
- «العراق في الوثائق البريطانية لسنة 1936»، ترجمة وتحرير نجدة فتحي صفوة، منشورات مركز دراسات الخليج العربي جامعة البصرة، تسلسل 68، البصرة، 1973.
- «محاضر مجلس النواب. الدورة الانتخابية الأولى»، للسنوات 1926، 1927، 1928.
- «محاضر مجلس النواب. الدورة الانتخابية الثانية»، للسنوات 1928، 1929.
- «محاضر مجلس النواب. الدورة الانتخابية العاشرة»، 1947.
- «المؤلفات الخطية للمرحوم عباس العزاوي»، المجمع العلمي العراقي، قسم المخطوطات، المجموعة الثالثة، التسلسل 54.
- نجم عبد الله الجبوري، الشبيبي أستاذ القومية، مخطوطة محفوظة في المجمع العلمي العراقي.

ـ «وثائق المؤتمر العربي الأول 1913»، تقديم وجيه كوثراني، بيروت، 1980.

المقابلات الشخصية:

ـ أحمد المظفر، 12 تشرين الثاني 1991.

ـ حسين جميل، 15 تشرين الثاني 1991.

ـ الدكتور حسين محفوظ، 3 شباط 1992.

ـ خليل كنه، 6 كانون الثاني 1991.

ـ عبد الرزاق الحسني، 11 تشرين الثاني 1992.

ـ اللواء المتقاعد فؤاد عارف، 11 كانون الثاني 1992.

ـ محمد حسين الشبيبي، 13 آذار 1992.

ـ ياسين الحسيني، 13 آب 1992.

الرسائل الجامعية غير المنشورة:

ـ عبد الرزاق أحمد النصيري، دور المجددين في الحركة الفكرية والسياسية في العراق 1908 - 1932، رسالة دكتوراه غير منشورة ـ كلية الآداب، جامعة بغداد، 1990.

ـ فاهم نعمة إدريس، مجلة لغة العرب، دراسة فكرية سياسية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1989.

الكتب العربية والمعربة:

ـ إبراهيم الوائلي، ثورة العشرين في الشعر العراقي، بغداد، 1968.

ـ الدكتور إبراهيم خليل أحمد، تطور التعليم الوطني في العراق (1869 - 1933)، من منشورات مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، البصرة، 1982.

- إبراهيم مدكور، مجمع اللغة العربية في عيده الخمسين. مع الخالدين، القاهرة، 1981.
- «أحداث ثورة الغشرين كما يرويها شاهد عيان» عني بتحقيقها ونشرها حكمت رحماني، بغداد، 1973.
- أحمد حامد الشربتي، الشبيبي في حكمه وأمثاله ونماذج من أغراضه الشعرية، بغداد، 1986.
- أدهم آل جندي، أعلام الأدب والفن، الجزء الثاني، دمشق، 1958.
- سر ارنلد تي. ويلسون، بلاد ما بين النهرين بين ولاءين. خواطر شخصية وتاريخية، الجزء الأول، من احتلال البصرة إلى احتلال بغداد، نقله إلى العربية، قدم له وعلّق عليه فؤاد جميل، الطبعة الثانية، تقديم ومراجعة الدكتور علاء نورس، بغداد، 1992.
- أ.م. منتشاشفيلي العراق في سنوات الانتداب البريطاني، ترجمة الدكتور هاشم صالح التكريتي، من منشورات جامعة بغداد، بغداد، 1978.
- الدكتور بدوي أحمد طبانة، معروف الرصافي، دراسة أدبية لشاعر العرّاق وبيئته السياسية والاجتماعية، القاهرة، 1947.
- تحسين العسكري، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية، الجزء الأول، بغداد، 1976.
- توفيق السويدي، مذكراتي. نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية، بيروت، 1989.
- توفيق علي برو، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني 1908 - 1914، القاهرة، 1960.
- جعفر الخليلي، هكذا عرفتهم. الجزء الأول، بغداد، 1963، الجزء الثاني، بيروت ـ بغداد، 1968.

ـ جعفر محبوبة، ماضي النجف وحاضرها، الجزء الأول، بغداد، 1958، الجزء الثاني، النجف، 1958.

ـ جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ترجمة ناصر الدين الأسد والدكتور إحسان عباس الطبعة السادسة، بيروت، 1982.

ـ حسن الأسدي، ثورة النجف، من منشورات وزارة الإعلام، بغداد، 1975.

ـ الدكتور حسن صبحي، اليقظة القومية الكبرى، القاهرة، 1965.

ـ حسين جميل، شهادة سياسية 1908 - 1930، لندن، 1987.

ـ الدكتور حسين القهواتي، دور البصرة التجاري في الخليج العربي 1869 - 1914، بغداد، 1980.

ـ حمود عبد الأمير الحمادي، الشبيبي الكبير ـ الشيخ محمد جواد ـ حياته وأدبه، النجف، 1972.

ـ خيري أمين العمري، حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث، من منشورات مكتبة آفاق عربية للنشر والتوزيع، بغداد، بلا.

ـ رافائيل بطي، الصحافة في العراق، من منشورات معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1955.

ـ الدكتورة رجاء حسين حسني الخطاب، تأسيس الجيش العراقي وتطور دوره السياسي من 1921 - 1941، الطبعة الثانية، بغداد، 1982.

ـ زاهدة إبراهيم، دليل الجرائد والمجلات العراقية، دار النشر والمطبوعات الكويتية، الكويت، 1982.

ـ الدكتور زكي صالح، مقدمة في دراسة العراق المعاصر، بغداد، 1953.

ـ ساطع الحصري، مذكراتي في العراق، الجزء الأول، 1921 - 1927، دار الطليعة، بيروت، 1967.

ـ ساطع الحصري، يوم ميسلون ـ صفحة من تاريخ العراق الحديث، بيروت، 1948.

- سامي عبد الحافظ القيسي، ياسين الهاشمي ودوره في السياسة العراقية، الجزء الأول، البصرة، 1975، الجزء الثاني، بغداد، 1975.
- ستيفن همسلي لونكريك، العراق الحديث من سنة 1900 إلى سنة 1950، الجزء الأول، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي، الطبعة الأولى، بغداد، 1988.
- سليمان فيضي، في غمرة النضال، بغداد، 1952.
- الدكتور سيار كوكب علي الجميل، تكوين العرب الحديث 1516 - 1916، الموصل، 1991.
- العميد الركن شكري محمود نديم، حرب العراق 1914 - 1918، دراسة علمية، الطبعة الثامنة، بغداد، 1974.
- صادق حسن السوداني، العلاقات العراقية ـ السعودية 1920 - 1931، بغداد، 1974 - 1975.
- «صفحات من مذكرات سعيد كمال الدين»، بغداد، 1987.
- «صفحات من مذكرات عبد الحميد الزاهد من المشاركين بأحداث الثورة العراقية»، تقديم وتعليق كامل سلمان الجبوري، بغداد، 1987.
- طلال مجذوب، إيران من الثورة الدستورية حتى الثورة الإسلامية، بيروت، 1980.
- عباس العزاوي، عشائر العراق، الجزء الرابع، بغداد، 1956.
- عبد الله فياض، الثورة العراقية الكبرى سنة 1920، الطبعة الثانية، بغداد، 1975.
- عبد الرحمن البزاز، العراق من الاحتلال حتى الاستقلال، الطبعة الثالثة، بغداد، 1967.
- عبد الرزاق أحمد، نوري السعيد ودوره في السياسة العراقية حتى عام 1932، من منشورات مكتبة اليقظة العربية، الطبعة الثانية، بغداد، 1988.

- عبد الرزاق الحسني، تاريخ الأحزاب السياسية العراقية، الطبعة الثانية، بيروت، 1983.
- عبد الرزاق الحسني، تاريخ الصحافة العراقية، الطبعة الثالثة، صيدا، 1971.
- عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق السياسي الحديث، الجزء الأول، الطبعة السابعة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1989.
- عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الأول، الجزء الثاني، الجزء الثالث، الطبعة السابعة، بغداد، 1988.
- عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، الطبعة الخامسة، بيروت، 1982.
- عبد الرزاق الحسني، ثورة النجف بعد مقتل حاكمها الكابتن مارشال، الطبعة الثانية، بيروت، 1978.
- عبد الرزاق الحسني، العراق في دوري الاحتلال والانتداب، الجزء الأول، صيدا، 1935.
- عبد الرزاق الحسني، العراق في ظل المعاهدات، الطبعة الخامسة، بيروت، 1982.
- عبد الرزاق الهلالي، تاريخ التعليم في العهد العثماني، بغداد، 1959.
- عبد الرزاق الهلالي، دراسات وتراجم عراقية، بيروت، 1972.
- عبد الرزاق الهلالي، قال لي هؤلاء، بغداد، 1990.
- الدكتور عبد المجيد كامل التكريتي، الملك فيصل الأول ودوره في تأسيس الدولة العراقية الحديثة، بغداد، 1991.
- الدكتور علي جابر المنصوري، محمد رضا الشبيبي ومكانته الأدبية بين معاصريه، الطبعة الأولى، بغداد، 1982.
- علي جواد الطاهر، منهج البحث الأدبي، الطبعة السابعة، بغداد، 1986.

- علي الخاقاني، شعراء الغري أو النجفيات، الجزء السابع والجزء العاشر، النجف، 1956.
- الدكتور علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء الأول، بغداد، 1969، الجزء الخامس، حول ثورة العشرين، القسم الأول، بغداد، 1977.
- عماد أحمد الجواهري، تاريخ مشكلة الأراضي في العراق ودراسة في التطورات العامة 1921 - 1932، من منشورات وزارة الثقافة والفنون، بغداد، 1978.
- عمر أبو النصر، العراق الجديد، بيروت، 1937.
- غسان العطية العراق. نشأة الدولة 1908 - 1931، ترجمة عطا عبد الوهاب، لندن، 1988.
- فائق بطي، الصحافة العراقية ميلادها، تطورها، بغداد، 1961.
- فائق بطي، صحافة العراق. تاريخها وكفاح أجيالها، بغداد، 1968.
- الدكتور فاروق صالح العمر، الأحزاب السياسية في العراق 1921 - 1932، بغداد، 1978.
- فريق المزهر آل فرعون، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة 1920، بغداد، 1952.
- فيصل محمد الأرحيم، تطور العراق تحت حكم الاتحاديين 1908 - 1914، الموصل، 1975.
- فيليب ويلارد آيرلند، العراق. دراسة في تطوره السياسي، ترجمة جعفر الخياط، بيروت، 1949.
- قصي سالم علوان، الشبيبي شاعراً، بغداد، 1975.
- الدكتور كمال مظهر أحمد، أضواء على قضايا دولية في الشرق الأوسط، بغداد، 1978.

ـ الدكتور كمال مظهر أحمد، تيكه بشتني راستي (فهم الحقيقة) وموقعها في الصحافة الكردية، من منشورات المجمع العلمي الكردي، بغداد، 1978.
ـ الدكتور كمال مظهر أحمد، من تاريخ صحافة ثورة العشرين، بغداد، 1987.
ـ الدكتور كمال مظهر أحمد، النهضة، سلسلة الموسوعة الصغيرة، العدد 37، بغداد، 1979.
ـ الدكتور لطفي جعفر فرج عبد الله، عبد المحسن السعدون، دوره في تاريخ العراق السياسي المعاصر، من منشورات مكتبة اليقظة العربية، بغداد، 1988.
ـ لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة الدكتورة عفيفة البستاني، موسكو، 1971.
ـ الدكتور مجيد خدوري، تحرر العراق من الانتداب، بغداد، 1935.
ـ محسن الأمين، أعيان الشيعة، المجلد الأول، المجلد الثاني، بيروت، 1986.
ـ محمد طاهر الموصلي، تاريخ مقدرات العراق السياسية، المجلد الثاني، بغداد، 1924.
ـ محمد علي كمال الدين، معلومات ومشاهدات في الثورة العراقية الكبرى لسنة 1920، بغداد، 1971.
ـ محمد علي كمال الدين، ثورة العشرين في ذكراها الخمسين، بغداد، 1971.
ـ محمد مهدي البصير، تاريخ القضية العراقية، الطبعة الثانية، لندن، 1990.
ـ محمد مهدي كبة، مذكراتي في صميم الأحداث 1918 - 1958، دار الطليعة، بيروت، 1965.
ـ الدكتور محمد مهدي علام، المجمعيون في خمسين عاماً، القاهرة، 1986.

- محمد هادي الأميني، معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف خلال ألف عام، النجف، 1964.
- محمود العبطة، الديمقراطية في العراق، الجزء الأول، النجف، 1960.
- «مذكرات كامل الجادرجي وتاريخ الحزب الوطني الديمقراطي»، دار الطليعة، بيروت، 1970.
- المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، نقله إلى العربية وكتب حواشيه جعفر الخياط، الطبعة الثانية، بغداد، 1971.
- منير بكر التكريتي، الصحافة العراقية واتجاهاتها السياسية والاجتماعية والثقافية من 1869 - 1921، بغداد، 1969.
- مكي حبيب المؤمن وعلي عجيل منهل، من طلائع يقظة الأمة العربية، بغداد، 1981.
- مير بصرى، أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث، من منشورات وزارة الأعلام، بغداد، بلا.
- الدكتور نوري عبد الحميد خليل، التاريخ السياسي لامتيازات النفط في العراق 1925 - 1952، بغداد، 1980.
- هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوربي الحديث، نقله إلى العربية الدكتورة زينب عصمت راشد والدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1970.
- الدكتور وميض جمال عمر نظمي، ثورة 1920. الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق، الطبعة الثانية، بغداد، 1985.
- يونس الشيخ إبراهيم السامرائي، القبائل العراقية، الجزء الأول، الطبعة الثانية، بغداد، 1989.
- يوسف أسعد داغر، مصادر الدراسة الأدبية. الفكر العربي الحديث في سير

أعلامه، من منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 1972.
- يوسف عز الدين، شعراء العراق في القرن العشرين، الجزء الأول، بغداد، 1969.
- يوسف عز الدين، في الأدب العربي الحديث. بحوث ومقالات، بغداد، 1967.

المصادر الأجنبية:

الوثائــق:

- War office, 32/5806/2205, The potential Enemies in Mesopotamia, No, 1621458, April 15, 1920.

الكتـب:

1 - Abrahamian. E.Iran between two revolutions, New Jersey, 1982.

2 - Brown, E.G. The persian revolution of 1905- 1909, second Imperssion, London, 1966.

3 - E.Burgoyne, Gertrude Bell from her personal papers, London, Ernest Bennlimited, 1961.

4 - D.L. George, the truth about peace treaties, Vol.II, London, 1938.

5 - R.Storrs, Orientations, second Edition, London, Nicholson and Watson, 1929.

6 - A.T. Wilson, Loyalties, Mesopotamia, Vol. II, 1917 - 1920, Reissued in the OXFORD Book shelf, 1936.

المقالات والبحوث:

- إبراهيم الوائلي، في ذكرى ثورة العشرين، ـ «الرابطة»، (مجلة)، العدد الثالث، بغداد، تموز 1975.
- حسن الأمين، الشيخ محمد رضا الشبيبي علامة العراق وشاعر العرب،

ـ «العربي»، (مجلة)، العدد 159، الكويت، فبراير 1972.

ـ حسين علي محفوظ، علامة العراق الأستاذ محمد رضا الشبيبي، ـ «الرسالة والرواية»، (مجلة)، العدد 864، القاهرة، 23 يناير 1950.

ـ الدكتورة سكريد فيستفال هلبوش، مدنية المعدان في الماضي والحاضر، نقله من الألمانية الدكتور محمود الأمين، ـ «سومر»، (مجلة)، المجلد الثالث عشر، الجزء الأول والثاني، 1957.

ـ «الشبيبي: السياسي الصادق بين الجرأة النادرة والعمل من أجل الحق بلا هوادة» ـ «الجمهورية»، (جريدة)، بغداد، 28 تشرين الثاني، 1967.

ـ عبد الحميد العلوجي، الحضور اليمني في العراق، ـ «الجمهورية»، العدد 8291 في 12 أيلول 1992.

ـ الدكتور علي جواد الطاهر، محمد رضا الشبيبي حياته وشعره، ـ «الرابطة»، العدد الثالث، السنة الثانية، تموز 1975.

ـ علي ظريف الأعظمي البغدادي، تاريخ ملوك الحيرة، ـ «دار السلام»، (مجلة)، العدد التاسع، من المجلد الثالث، 2 أيار 1920.

ـ الدكتور عماد عبد السلام رؤوف، نشأة التنظيمات السياسية في آخر العصر العثماني، ـ «دراسات في التاريخ والآثار»، (مجلة)، العدد الثاني، بغداد، 1982.

ـ الدكتور عناد غزوان، شاعرية الشيخ محمد رضا الشبيبي، ـ «البلاغ»، (مجلة)، العدد الخامس، تشرين الثاني، 1966.

ـ غرافي، شطرة المنتفك، ـ «دار السلام»، العدد العاشر، المجلد الرابع، 15 أيار 1921.

ـ فراتي، على هامش الثورة العراقية الكبرى. خواطر وتعليقات مستمدة من الواقع المرئي والمسموع عن الثورة العراقية 1920، من منشورات جريدة «الهاتف»، بغداد، 1952.

ـ الدكتور كمال مظهر أحمد، الكرد ومعركة الشعيبة، ـ «روسنييري نوي»، مجلة المثقف العربي، العدد 125، بغداد ربيع 1990.

ـ الدكتور كمال مظهر أحمد، المفكر ومهمات المرحلة في ضوء تجربة الكوميديا الإلهية لدانتي، ـ «آفاق عربية»، (مجلة)، العدد الحادي عشر، بغداد، تشرين الثاني، 1983.

ـ «مع رجال الفكر. الشيخ محمد رضا الشبيبي»، «الفكر»، (مجلة)، بغداد، 1958.

المراجع المساعدة:

ـ الموسوعة العربية الميسرة، المجلد الأول، المجلد الثالث، بيروت، 1980.

ـ خير الدين الزركلي، الأعلام، المجلد السادس، المجلد السابع، المجلد الثامن، الطبعة الرابعة، بيروت، 1979.

ـ دليل الجمهورية العراقية لسنة 1960، دائرة معارف علمية وتاريخية، صدر تحت إشراف وزارة الإرشاد، بغداد، 1961.

ـ دليل المملكة العراقية لسنة 1935 - 1936 المالية، بغداد، 1935.

ـ «مختار الصحاح»، تأليف محمد بك أبي بكر بن عبد القادر الرازي، بيروت، دار الكتاب العربي، بلا.

ـ موسوعة الهلال الاشتراكية، منشورات دار الهلال، الطبعة الأولى، القاهرة، 1968.

الصحف والمجلات:

الصحـــف:

ـ «الجمهورية»، بغداد، 1967، 1992.

ـ «الحاصد»، بغداد، 1930.

ـ «الأخاء الوطني»، بغداد، 1931، 1932.

- «الاستقلال»، بغداد، 1921.
- «الزهور»، بغداد، 1329هـ.
- «الزمان»، بغداد، 1962.
- «صدى العهد»، بغداد، 1931.
- «العالم العربي»، بغداد، 1927، 1930.
- «العراق»، بغداد، 1922، 1925.
- «العراق»، بغداد، 1985.
- «العرب»، بغداد، 1917، 1918.
- «الفرات»، النجف، 1920.
- «المفيد»، بغداد، 1925.
- «المقطم»، القاهرة، 1927.
- «نداء الشعب»، بغداد، 1930، 1931.

المجلات:

- «آفاق عربية»، بغداد، 1983.
- «الاعتدال»، النجف، 1932.
- «البلاغ»، بغداد، 1966، 1973، 1975.
- «الثقافة الجديدة»، بغداد، 1969.
- «الحرية»، بغداد، 1924.
- «الرابطة»، النجف، 1975، 1976.
- «الرسالة والرواية»، القاهرة، 1950.
- «الزهور»، القاهرة، 1914.
- «العربي»، الكويت، 1972.
- «العرفان»، صيدا، 1909، 1910، 1911، 1914، 1921، 1922.
- «الفكر»، بغداد، 1958.

- «المقتطف»، القاهرة، 1911.
- «المؤرخ»، بغداد، 1938.
- «دار السلام»، بغداد، 1920، 1921.
- «دراسات في التاريخ والآثار»، بغداد، 1982.
- «روسنييري نوي» (المثقف الجديد»، بغداد، 1990.
- «كل شيء»، بغداد، 1958.
- «سومر»، بغداد، 1957.
- «لغة العرب»، بغداد، 1912، 1913، 1914.